إسكندر ديماس

عقد الملكة

رواية

ترجمة

شفيق أسعد فريد

الكتاب: عقد الملكة (رواية)

الكاتب: إسكندر ديماس

ترجمة: شفيق أسعد فريد

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

ديماس ، إسكندر
عقد الملكة (رواية)/ إسكندر ديماس, ترجمة: شفيق أسعد فريد
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٦٤ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٨ – ٣٦٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٢١٩ / ٢٠٢١

عقد الملكة

رواية





الفصل الأول

الوليمة

نهض الماريشال دي رامبوليه مقعده أمام المرآة.. بعد أن فرغ من طلاء حاجبيه وشعره المستعار بالصبغة المعطرة، وراح يزيل ما تساقط منها على ثوبه الأنيق المصنوع من القطيفة الزرقاء. وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً في تراخ، ثم توقف فجأة ونادى كبير خدمه، فأقبل هذا بعد لحظات.

سأله الماريشال وهو منتفخ الأوداج:

- أكبر الظن أنك هيأت لي غداء فاخراً؟

- أجل يا مولاي.

- هل لديك قائمة بأسماء المدعوين؟

- إنني أذكرهم تماماً يا مولاي.. وقد هيأت طعاماً لتسعة أشخاص.

- فقال الماريشال:

- ومتى نتناول الطعام؟

- إن المواطنين يتناولون غداءهم في الساعة الثانية.. والأشراف في الساعة الرابعة و..

- ومتى أتناوله أنا إذن؟

- ستتناولون طعامكم في الساعة الخامسة يا مولاي.

- الخامسة؟ ولماذا؟

– لأن الملوك لا يتناولون طعامهم إلا في الساعة الخامسة ولما كان بين مدعويك ملك..

– فصاح الماريشال:

– إنك مخطيء يا صاح.. فإن مدعوي من الأشراف.

فقال الخادم:

– لا أخالني مخطئاً حين أقرر أن الكونت هاجا هو ملك السويد بلحمه ودمه.

فأجاب الماريشال غاضباً:

– أنني لا أعرف ملكاً بهذا الإسم.

فأحنى الخادم قامته بإحترام وقال:

– أرجو المعذرة يا مولاي، فإنني أعتقد..

فقاطعه الماريشال قائلاً:

– ليس من شأنك أن تعتقد أو تظن.. فأنت هنا تتلقى الأوامر وتنفذها دون اعتراض أو تساؤل.

فأحنى الخادم قامته مرة أخرى.. واستطرد الماريشال:

– ومادام مدعوي جميعاً من الأشراف.. فسنتناول طعامنا إذن في الساعة الرابعة

تجهم وجه الخادم في الحال.. كأنما تلقى الحكم بإعدامه، ولكنه ما لبث أن استعد من خوفه قوة وقال:

– مهما تكن الأحوال يا مولاي فإنكم أن تتناولوا طعام الغداء قبل الساعة الخامسة.

امام الماريشال محنقاً: ولم ذاك يا رجل؟

- لأن ذلك مستحيل يا مولاي..

فاستطرد المارشال وهو يعض على شفته الرقيقة بنواجده:

- مادام الأمر كذلك، فأنا أنصح لك بالبحث عن سيد آخر عقب إنتهاء وليمة اليوم، فأنا لا أسمح لأحد أن ينطق بكلمة «مستحيل» في منزلي.

وللمرة الثالثة أحنى الخادم قامته. وقال:

– حسنا يا مولاي.

وهم بمغادرة الغرفة. بيد أن الماريشال أستوقفه قائلاً:

– ليت شعري ما الذي يدفعك إلى مخالفة أوامري.

فأجاب الخادم في صوت أجش:

– مولاي لقد كان إمبراطور النمسا يتناول طعام الغداء على مائدة الكردينال دي روهان مرة في السنة، وبالرغم من إنه كان يأتي إلى الوليمة متخفياً إلا إننا كنا نعامله داخل القصر بما يليق بمقامه السامي.

واليوم سيأتي رجل إلى قصرك يدعو نفسه الكونت هاجا، ولكننا نعرف انه ملك السويد قبل كل شيء، ولهذا فقد عولت عن أن أؤدي واجبي على الوجه الأكمل.

قال الماريشال:

– مهما يكن من أمر فإنني لا أود أن يعرف أحد ان الكونت هاجا هو مالك السويد.

فقال الخادم:

– ومن قال إن أحدًا غيري يعرف تلك الحقيقة يا مولاي.

– إذن لماذا لا تهيئ لنا المائدة في الساعة الرابعة؟

– لأنني أنتظر وصول شيء.. وهذا الشيء لن يصل قبل الساعة الرابعة.

فسأل الماريشال في لهفة:

– وما هذا الشيء الذي تنتظر؟ أهو سمكة. أم ماذا؟ لقد أثرت فضولي أيها الخبيث.

– إنني أنتظر وصول زجاجة نبيذ يا مولاي.

فبدت الدهشة على وجه الماريشال.. وسأل:

- زجاجة نبيذ! إنني لا أفهم ماذا تعني.. فهل لك أن تفصح؟

– إن جلالة ملك السويد.. آه.. معذرة يا مولاي فقد كان يجب أن أقول الكونت هاجا– لا يسرب إلا نبيذ توكاي.

– وهل يوجد نبيذ توكاي في مخازني؟ إذ كان الأمر كذلك فلا مناص من فصل الساقي.

– عفواً يا مولاي.. فإن لديك ستين زجاجة من نبيذ توكاي.

– إذن هل تعتقد أن الكونت سيشرب أكثر من ستين زجاجة حتى ترسل في طلب المزيد؟

– كلا يا مولاي.. فعندما زار الكونت باريس– وكان وقتئذ أميراً– دعاه ملك فرنسا السابق إلى وليمة أعدها له.. وقدم له نبيذاً فاخراً كان قد تلقاه هدية من امبراطور النمسا.. ولست أشك في أنك تعرف أن هذا النوع من النبيذ نادر حتى أن الملوك أنفسهم لا يتناولونه إلا غراراً.

وتوقف الخادم.. فسأل الماريشال:

- وماذا بعدئذ؟

- ولم يبق من الإثنتي عشرة زجاجة التي أرسلها الإمبراطور سوى زجاجتين.. أحداهما في مخزن جلالة الملك لويس الخامس عشر..

– والثانية؟

فأجاب الخادم وقد تلاعبت على شفتيه إبتسامة ماكرة:

– أما الثانية فقد سرقت.

- ومن الذي سرقها؟

– أحد أصدقائي.. وهو ساقي الملك الراحل.

– إذن فقد أعطاك إياها صديقك اللص.

فقال الخادم في كبرياء: –أجل يا مولاي.

– وماذا فعلت بها؟

– أخفيتها في مخزن مولاي السابق.

– مولاك السابق؟ ومن كان مولاك في ذلك الوقت؟

– صاحب النيافة الكردينال دي روهان.

– يا إلهي! في ستر اسبورج!

فتنهد الخادم.. وقال:

– نعم.. وقد أرسلت في إحضارها، بيد إنني لا أتوقع عودة الرسول قبل الساعة الرابعة والنصف.

فمد الماريشال يده إلى خادمه.. وصافحه في حرارة.. ثم قال:

– لقد ضاعفت راتبك منذ الآن.

فشكره الخادم.. وسأله الماريشال:

– ما رأيك فيما لو سقطت الزجاجة من الرسول وتحطمت؟

فابتسم الخادم في خبث.. وأجاب:

– ومن ذا الذي لا يحرص على مثل تلك الزجاجة الثمينة يا مولاي؟

فصمت الماريشال.. ثم أطرق برأسه إلى الأرض مفكراً. أما الخادم فلبث برهة يرمق سيده في خبث.. ثم قال:

– وليس موعد وصول النبيذ هو ما دعاني إلى تأخير موعد الوليمة فحسب.. وإنما يقيني من تأخر قدوم زائريك هو الذي حملني على ذلك..

– وكيف لا يحضرون في الموعد؟

– لنبدأ بمسيو لوناي يا مولاي.. إنه لا يغادر الباستيل قبل الساعة الرابعة.. ولما كانت الشوارع مغطاة بالثلوج..

فقاطعة الماريشال قائلاً:

– إن مسيو لوناي يغادر الباستيل عقب تناول المساجين طعام الغداء في الساعة الثانية عشرة ظهراً.

– معذرة يا مولاي.. فقد تغير هذا الموعد بعد مغادرتك إياه.

فقال الماريشال:

– يبدو لي أنك تعرف كل شيء.

فابتسم الخادم واستطرد:

– أما مسيو دي تافرني فلست أشك في أنه الزائر الوحيد الذي سيأتي في الموعد المحدد.

– ولماذا؟

– لأنه من أصدقائك المقربين.

فقال الماريشال:

– حسناً.. وأين سنتناول الطعام؟

– في القاعة الكبرى يا مولاي.

– ولكنها شديدة البرودة.

– لقد تداركت الأمر يا مولاي. فوضعت وسائل التدفئة في الغرفة منذ ثلاثة أيام.

ودقت الساعة في تلك اللحظة.. فصاح الماريشال:

– يا الله! لقد بلغت الساعة الرابعة والنصف.

فأجاب الخادم:

– أجل يا مولاي، وها هو ذا الرسول قد وصل بزجاجة النبيذ.

وأسرع الخادم بمغادرة الغرفة. وتحول الماريشال الى المرآة ثانية فغمغم:

– لو بقي هذا الخادم معي عشرين سنة أخرى..

ولكنه لم يتم جملته. فقد ارتفعت خلفه ضحكة نسائية رنانة. فدار على عقبيه وهتف:

– هذا أنت يا كونتس؟ إنك أول الزائرين قدوماً.

وراح يرمقها بإعجاب.. ثم استطرد:

– يالك من جميلة فاتنة!

فقالت الكونتس:

– إنني أكاد أتجمد من البرد يا دوق.

– إذن فهيا بنا إلى مخدعي.

وفجأة سمعا صوتاً من ورائهما يقول:

– تريثا.. فأنا هنا..

فصاح الماريشال:

– هو ذا تافريي قد حضر

ثم مال على أذن الكونتس. وهمس قائلاً:

– كم كنت أود لو قتله الطاعون حتى لا يضايقنا!

ضحكت مدام دوباري.. ودلف الجميع إلى الغرفة المجاورة.. وفي اللحظة التالية بدأ المدعوون يفدون على القصر حتى إذا إكتمل عددهم إنتقلوا إلى قاعة المائدة. وبدأ الخدم عملهم في هدوء.وشرع الجميع يتناولون طعامهم في سكون. وضاق الماريشال ذرعاً بهذا السكون. فإلتفت إلى جاره الأيمن وقال:

– إنك لا تشرب شيئاً من الخمر يا كونت.

كان الكونت في الثامنة والثلاثين من عمره. قصير القامة. مرتفع الكتفين. أزرق العينين. عريض الجبهة. تبدو على ملامحه دلائل النبل

قال الكونت:

– إنني أشرب الماء القراح فقط يا ماريشال.

فانثنى الماريشال قائلاً:

– إلا عندما تكون بصحبة لويس الرابع عشر، فقد رأيتك تشاطره النبيذ مرة دعيت أنا فيها لتناول الطعام على المائدة الملكية.

– إنك تذكرني بمناسبة سعيدة يا ماريشال. لقد كان ذلك عام ١٧٧١ وشربنا يومئذ الكثير من نبيذ توكاي.

فأحنى رامبوليه قامته.. وقال:

– إذن إسمح لي يا مولاي أن أقدم لك كأساً من هذا النبيذ.

فرفع الكونت هاجا الكأس في يده وراح ينظر الى السائل وقال في لهجة تم عن النبل:

– إنني شاكر لك هذا الكرم يا ماريشال.

ونهض الجميع واقفين وقد رفعوا رؤوسهم وصاحوا:

– ليحيا الملك

فاستطرد الكونت هاجا قائلاً:

– أجل.. ليحيا جلالة ملك فرنسا. ما رأيك في ذلك يا مسيو دي لامبروز؟

فأجاب الكابتن في تملق وإحترام:

– مولاي.. لقد غمرني جلالة ملك فرنسا بعطفه حتى لأشعر في قرارة نفسي بأنني أول شخص يجب عليه أن يهتف بحياته، ولن تمضي ساعة واحدة حتى أغادر هذه الدار لألحق بالباخرتين اللتين وضعهما جلالته تحت تصرفي. وعندئذ يتعين على أن أهتف لملك آخر هو خير مولى !

فقالت مدام دوباري وكانت تجلس إلى يسار الماريشال:

– إننا على استعداد لأن نشرب النخب الذي تقترحه يا مولاي.. بيد أني أرى أن يتزعمنا أكبر الحاضرين سناً.

ضحك الماريشال.. وقال:

– إن مدام درباري تعني أحدنا يا مسيو تافريني..

فقال الآخر وكان يجلس بمقابلة صاحب الوليمة:

– لا أعتقد أن الماريشال دي رامبوليه هو أكبرنا سناً..

فقال الدوق: إذن هو أنت من تعنى..

فاستطرد الآخر قائلاً:

–كلا.. فأنا أصغر منك بثماني سنوات. فقد ولدت عام ١٧٠٤

فقال الماريشال:

– أية قسوة هذه.؟ إنك تكشف القناع عن الثمانية والثمانين عاماً التي إنقضت منذ أن تفتحت عيناي على هذا العالم

فقال مسيو دي كوندرسيه.. وكان من أساتذة الرياضة المعروفين:

– مستحيل أن سنك ثمانية وثمانين عاماً يا سيدي الدوق.

فقال الماريشال:

– إنها الحقيقة يا سيدي، وإلا فأنت لا تصلح لأن تكون من علماء الرياضة.. فأنا من رجال القرن الماضي، فقد ولدت عام ١٦٩٦

فصاح دي لوناي: هذا مستحيل !

فقال الماريشال:

– أحسب أن أباك أقدر الناس على تعزيز قولي، فقد كنت من نزلائه في الباستيل عام ١٧١٤

فقال مسيو فافراس:

– دعونا من ذلك الجدل الممل.. إن أكبرنا سناً هو النبيذ الذي يشربه الكونت هاجا الآن.

– إنك على صواب يا مسيو دي فافراس، فإن عمر هذا النبيذ مائه وعشرين عاماً.

وصاح آخر وكان يدعي كاليوسترو:

– لحظة واحدة أيها السادة. فأنا أطالب بالأسبقية..

فصاح جميع الحاضرين في صوت واحد:

– أنت تدعي الأسبقية على نبيذ توكاي؟

فأجاب كالبوستر وفي هدوء:

– أجل.. فقد كنت ممن ملأ تلك الزجاجات..

فبدت الدهشة على وجوه الجميع.. وأستطرد الرجل:

– أجل.. أنا.. وكانا ذلك في يوم إنتصار مونتكيو كوني على الأتراك عام ١٦٦٤

ضج الحاضرون بالضحك ، وخاصة حين أدركوا أن المتكلم نطق بكلماته في لهجة تدل على إيمانه بما يقول.. وقالت مدام دوباري:

– وعلى هذا الأساس، لابد أنك بلغت الثلاثين بعد المائة يا سيدي

فأجاب كاليوسترو في هدوء:

–ربما أكثر قليلاً.. وأذكر أن جلالة إمبراطور النمسا إنتدبني في صباح اليوم التالي كي أهنئ مونتكيو كولي. لأنه بإنتصاره في سانت جوتارد قد إنتقم لما حدث في (أسبك) حين أهان الملحدون أبناء الإمبراطورية من أصدقائي ورفاقي في الجيش عام ١٥٣٦

فصاح الكونت هاجا في برود:

– أكبر ظني أنك تعدو الخمسين بعد المائة من عمرك يا سيدي؟

– أجل يا مولاي.. فقد شاهدت معركة كريسي التي انهزم فيها الفرنسيون.. ولو إني أعتقد أن النصر الذي حازه الملك إدوارد لم يكن نصراً مشرفاً.. فأنه كان يتفوق على الفرنسيين بمدافعه. وهو أمر كان يجهله فيليب دي فالوا أو إن شئت كان لا يصدقه..

فقالت مدام دوباري:

– إذن فأنت تعرف فيليب دي فالوا أيضاً؟

فأجاب كاليوسترو:

لقد كنت أحد اللوردات الخمسة الذين رافقوا فيليب خارج ميدان القتال يا سيدتي

فقالت مدام دوبادي:

– يبدو أنك عاصرت جميع القدماء يا سيدي..

فاستطرد كاليوسترو قائلاً:

– أجل.. ولقد شاهدت أيضاُ موقعة أكتيوم فقد تصادف أن كنت أقوم بزيارة مصر وقتئذ إجابة للدعوة التي وجهتها إلى كليوباترا لكي أعيد إلى الإسكندرية حريتها.

فسألت مدام دوباري:

– وهل شاهدت الملكة كليوباترا؟

– بكل تأكيد يا سيدتي..

– هل كانت حقاً جميلة كما يروون عنها؟

– فأحنى كاليوسترو قامته.. واستطرد قائلاً:

– لقد كانت كليوباترا ضئيلة الجسم نحيلته.. ولكنها كانت مملوءة حيوية وتتمتع بذكاء نادر..

ثم نزع خاتماً كان يلبسه في أصبعه. وقدمه الى الكونتس قائلاً:

– انظري.. لقد أعطتني كليوبترا هذه الماسة دلالة على شكرها..

فمدت الكونتس يدها وتناولت الخاتم، وراحت تنظر إليه بإمعان فأدركت أن قيمة الحجر الكريم لا تقل عن ثلاثين أو أربعين ألفاً من الفرنكات..ولما فرغت مدام دوباري من فحص الخاتم ناولته لجارها وهكذا دواليك إلى أن عاد ثانية لصاحبه الذي وضعه في أصبعه بهدوء.. وقال:

– يبدو أنكم لا تصدقون قصتي.. ولكنكم لستم أول من أنكرها، فقد سبقكم إلى ذلك فيليب دي فالوا ورفض الإصغاء إلى نصحي والتقهقر أمام الملك إدوارد حتى لا تكون هزيمته ساحقة.

فضحكت مدام دوباري.. ثم قالت:

– الحق إنك رجل ظريف يا مستر كاليوسترو، ولكن خبرني هل رأيت حقاً كليوبترا؟

– أجل يا كونتس.. وفي إستطاعتي أن أؤكد لك أن عيني كليوبترا كانتا تشبهان عينيك من حيث جاذبيتهما.. كما أنها كانت تتمتع بكتفين يشبهان كتفيك في جمالهما..

– ولكن ماذا تعرف أنت عن كتفي؟

– أعرف الكثير يا سيدتي فأنا أعرف مثلاً أن هناك نقطة سوداء فوق الضلع السادس من جنبك الأيسر..

–لا شك أنك عراف يا سيدي الكونت..

فصاح الماريشال ضاحكاً:

– كلا. كلا.. إنه ليس بعراف. وليس في الأمر كذلك أية غرابة، لأنني أنا الذي أخبرته بذلك..

فتحولت الكونتس إلى الماريشال.. وسألت:

– وأنت من أدراك بذلك؟

فعض الماريشال على شفته.. وأجاب:

– هذا سر عائلي، لا أستطيع أن أبوح به..

فقالت الكونيس:

– يجب على الإنسان أن يلزم معك جانب الحذر دائماً..

ثم التفتت إلى كاليوسترو.. وقالت:

– إذن كيف أمكنك أن تستعيد شبابك يا سيدي؟ فإنه بالرغم من قولك إنك تناهز الثلاثة آلاف عام فإنك تبدو كشخص في الأربعين من عمره .

– إنك محقة في قولك يا سيدتي.. ولكن ذلك سر من أسراري الخاصة.

فقالت الكونتس: هل لك أن تطلعني على هذا السر

– أطلعك عليه!؟ ولماذا؟ لقد أستعدت شبابك يا سيدتي من قبل ومن يراك الآن يحكم بأنك لا تتجاوزين الثلاثين من عمرك..

– يالك من متملق!

– إنني لا أقرر غير الحقيقة.. ولا شك إنك إستعملت الأكسير الذي أستعمل..

– وكيف كان ذلك يا سيدي؟

– لست أدري كيف أمكن أن تنسى ذلك يا سيدتي.. أفلا تذكرين منزلاً معيناً في شارع سانت كلود. يوم أن جئت لمقابلة مسيو دي سارتين لأمر ما.؟

–أظنك تذكرين أنك صنعت معروفاً لأحد أصدقائي واسمه جوزيف بلسامو. وأن صديقي هذا أعطاك زجاجة من الأكيرس وأوصاك بأن تشربي ثلاث نقط كل صباح ألا تذكرين أنك فعلت ما أوصاك به صديقي بإنتظام حتى فرغت الزجاجة في العام الماضي؟

فقالت الكونتس:

– يالله يا سيدي. إنك تذكرني بأشياء كثيرة

– أجل.. أشياء لم يكن يعرفها أحد غيرك.. ولكن ما الفائدة من أن يكون الإنسان عرافاً إذا لم يستطع معرفة أسرار جاره؟

– إذن فجوزيف بلسامو يعرف سر الإكسير كما تعرفه أنت؟

– كلا يا سيدتي. أنه لا يعرف شيئاً عنه على الإطلاق. فقد وهبته ثلاث أو أربع زجاجات من الإكسير ،لأنه كان من أعز اصدقائي.

– وهل ما زال لديه بقية منها؟

– لا أدري.. فقد اختفى المسكين منذ عامين أو ثلاثة. وآخر مرة رأيته فيها كانت على ضفاف نهر أوهير في أمريكا عندما عول على القيام برحلة إلى جبال روكي. وبعدئذ علمت أنه مات.

فصاح الماريشال:

– هل لك أن تطلعنا على هذا السر يا كونت؟

وقال الكونت هاجا:

– هل تعني ما تقول حقاً يا سيدي؟

فأحنى كليوسترو قامته وقال:

– أجل يا سيدي

وقال الماريشال:

– ما دامت الكونتس قد استعادت عنفوانها وفتوتها. فما رأيك في تقديم بعض من إكسيرك هذا لصديقنا تافرني كي يعود شاباً؟

فنظر كالبوسترو إلى البارون وسأل:

– هل ترغب في ذلك حقاً يا سيدي.؟

وقبل أن يجيب البارون صاح الجميع في صوت واحد: – نعم. نعم

فقال كاليوسترو.

– إن الأمر في غاية البساطة.

وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أفرغ بعض محتوياتها في قدح قد حوى بعض الشمبانيا المثلجة.وقدم القدح إلى البارون. فتحولت الأنظار إلى تافرفي في لهفة.ومد البارون يده فتناول القدح. ورفعه إلى شفتيه ليجرعه ولكنه توقف وقد بدأ علية التردد.ضحك الحاضرون، ولكن كليوسترو رفع يده يمنعهم عن الإسترسال في الضحك. وصاح:

– إشرب يا بارون. وإلا فقدت شراباً تساوي كل نقطة منه مائة قطعة ذهبية!

فقال البارون. وقد ارتجفت أوصاله:

– إذن فإما أن أشرب أو أعطى القدح لغيري؟!

وقال رامبوليه. وهو يمد يده ليتناول القدح:

– ناولنيه.

وكأنما كانت هذه الكلمة حافزاً إستثار عزيمة البارون. فرفع القدح إلى فمه وجرع ذلك الشراب السحري.وفجأة. شعر بالحرارة تسري في جسده. وأحس كأن كهولته قد فارقته والدم يتدفق في عروقه حارا كما أحس بأن جلده المتغضن قد تمدد. وبعينيه قد إتسعتا وزادت قوة أبصارهما. وزال إرتجاف أوصاله ويديه. أما صوته فقد أضحى جهورياً بعد إذ كان خافتاً لا يكاد يسمع ولم يشك البارون في أنه قد إستعاد شبابه حقاً وتخلص من الشيخوخة المحطمة.

وفي الحال دوت في القاعة صرخات هي مزيج من الدهشة والرعب وكأنما أراد البارون أن يؤكد للجميع أنه قد عاد شخصاً آخر فرفع صحفة الطعام وإلتهم ما فيها غير عابئ بعظام اللحوم.

وظل يأكل ويمرح زهاء النصف ساعة وهو يردد في فرح أن أسنانه قد عادت إليه ثانية. وأنه قادر على التمتع بكل لذائذ الحياة ومباهجها بينما لبث المدعوون يحملقون

في وجهه وقد عقلت الدهشة ألسنتهم.وفجأة.. وببطء، بدأت شيخوخة البارون تعاوده. كمصباح نصب منه الزيت فأخذ يخبو شيئاً فشيئا

تأوه البارون وقال:

– أواه.. الوداع يا شبابي.

وتدحرجت على خديه دمعتان.. وكأنما رثى الباقون لحال البارون فشاركوه التحسر والتنهد.

قال كاليوسترو:

– المسألة في غاية البساطة أيها السادة.. لقد أعطيت البارون خمساً وثلاثين نقطة من الإكسير.. فعاوده شبابه خمساً وثلاثين دقيقة فقط.

فصاح البارون في لهفة:

– إذن أعطني غيرها يا كونت؟

– كلا يا سيدي.. فقد تقتلك المحاولة الثانية.

وكانت مدام دوباري أكثر الحاضرين لهفة وإهتماماً بمفعول هذا الإكسير السحري الذي سبق لها أن تعاطته.ولما استعاد تافرني شبابه.. خيل إليها أن تنقض على الزجاجة وتخطفها من يد كاليوستري. بيد أنها عادت فقاومت هذا الإغراء..حين لاحظت دبيب الشيخوخة يدب في جسد تافرني ثانية.

وقالت:

– إن المسألة لا تعدو التغرير والخداع.. فإن تأثير هذا الإكسير العجيب لا يزيد على خمس وثلاثين دقيقة.

وقال السكونت هاجاً:

– ومعنى ذلك أنه إذا أراد شخص أن يستعيد شبابه مدة عامين فعليه أن يشرب

نهراً بأكمله من هذا الإكسير.

فضحك الجميع. وقال دي كوندرسية:

– إنها عملية حسابية بسيطة.. إذ يكفي أن يتعاطى الإنسان ٣١٥٣٠٠٠ نقطة كي يستعيد شبابه مدة عام واحد.

وقال لامبروز:– وبذلك يجد العالم نفسه إزاء أزمة مائية خطرة ، فيضرع إلى الله إما أن يرسل طوفاناً ثانياً أو أن يقبض أرواح الكهول إليه!

وقالت مدام دوباري:

– مهما يكن من أمر، فأنا لم أكن في حاجة إلى مثل هذه الكمية عندما تعاطيت هذا الإكسير لأول مرة.. فقد أوقفت الكمية القليلة التي استعملتها تقدم الزمن بي مدة عشر سنوات!

فقال كاليوسترو:

– أجل يا سيدتي. إن الكهول يحتاجون إلى كمية كبيرة حتى يمكن أن يحصلوا على نتائج سريعة حاسمة.. ولكن سيدة مثلك كانت في الثلاثين من عمرها.. أو رجلاً في الأربعين من عمره مثلي عندما تعاطيت الإكسير لأول مرة، لا يحتاج إلا إلى عشر نقط لكل فترة من فترات التطور.

فسأل الكونت هاجا:– ماذا تعني بفترات التطور.؟

– إن قوى الإنسان ونموه يتمان في فترات غايتها عشر سنوات حتى إذا بلغ الخامسة والثلاثين وقف النمو تماماً، فإذا تقدمت به السن إلى الأربعين بدأت قواه في الانحطاط، ولكنه انحطاط غير ملحوظ فإذا أشرف على الخمسين بدأت الشيخوخة والضعف يدبان في جسمه بشكل واضح ويسرعان به نحو القبر.بيد أن هذه النظرية الطبيعية لا تنطبق على حياتنا الحالية. فقد تغلبت المدنية بوسائلها الهدامة على الطبيعة. فعجلت بفترة الإنحطاط عشر سنوات. أعني أن الإنسان يبدأ في الإنحلال

عندما يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره.. أما أنا فقد وفقت إلى الحصول على هذا الإكسير قبل أن أتخطى فترة التحول. وبذلك أمكنني أن أقاوم الإنحلال وأتمتع بالشباب طالما أرغب في ذلك.

فصاحت الكونتس:

– ألم يكن الأجدر بك أن ترجع بسنك إلى العشرين؟

فابتسم كاليوسترو.. وأجاب:

– بل إنني أفضل أن أكون في الأربعين من عمري ممتلئاً صحة ونشاطاً على أن أكون غراً في العشرين من عمري.

فقالت الكونتس: حقاً؟

فاستطرد كاليوسترو:

– بلا شك يا سيدتي. إن الشاب يشتهي النساء اللائي يبلغن الثلاثين من عمرهن وهو في العشرين.أما إذا كان الرجل في الأربعين من عمره فيمكنه أن يسوس صغيرات النساء وكبار الرجال.

فقالت الكونتس:

– إنني أسلم بقولك يا سيدي. فأنت نفسك خير برهان على صدق ما تقوله.

وقال تافرني في حزن:

– وا أسفاه. لقد اهتديت إلى ذلك الإكسير السحري متأخراً.

واستطردت الكونتس:

– خرنير يا بارون. لقد قلت إنك إستعملت هذا الإكسير لأول مرة عندما كنت في الأربعين من عمرك.

– أجل يا سيدتي.

– ومنذ ذلك الوقت. أعني منذ حصار طرواده..

– كلا.. بل قبل ذلك بقليل يا سيدتي.

– ومنذ ذلك الوقت وأنت لا تتخطى سن الأربعين؟

– أجل والدليل على ذلك حالتي الراهنة.

وقال دي كوندرسيه:

– إنكما لا تتجادلان في معضلة الإبقاء على الشباب فحسب. وإنما في كيفية الخلود. فما دمت قد إستطعت الإحتفاظ بشبابك منذ حصار ترواده إلى الآن فمعنى ذلك أنك لن تموت أبدًا.

– هذا هو الواقع يا ماركيز.

– وهل أفهم من ذلك أنك غير قابل للقتل ؟

– كلا يا سيدي.. فمثلي في ذلك مثل أي شخص عادي.

– إذن هل قضيت ثلاثة آلاف وخمسمائة عام دون أن تتعرض لحادث ما؟

– لقد كان ذلك بمحض الصدفة يا سيدي الماركيز.. على أني أرجو أن تصغوا إلى إيضاحي عن السر في ذلك.

فصاح الجميع في حرارة:– أجل. أجل.

إستطرد كليوسترو قائلاً:

– ما هي أول ضرورة من ضروريات الحياة؟ أليست هي الصحة؟

– أجل.

– وكيف السبيل إلى المحافظة على الصحة؟

فقال الكونت هاجا:

– دقة قيادة الجسم والعناية به.

– حسناً يا كونت. إذن لم لا يكون هذا الإكسير هو أفضل وسيلة للعلاج، لقد توصلت إلى إكتشافه وبواسطته أمكنني أن أحتفظ بشبابي وصحتي.. وحياتي.

– ولكنك تعلم أن مصيرنا جميعًا الفناء في النهاية.

– هذا صحيح يا سيدي. ولكن لا تنسى أنني أداوم على إدخال عنصر جديد إلى جسمي كل صباح كي أحفظه من الوهن والانحلال وبذلك يستطيع القيام بحركته الآلية دون تراخ أو فتور.وقد أكسبني تكرار هذه العملية حذقا في تعرف حاجة الجسم البشري حتى لا تصرعه الشيخوخة. كما علمتني الحذر وتجنب الأخطار التي قد تودي بالحياة.. فأنا مثلاً لا أقبل إطلاقًا أن أودع نفسي رهينة بين يدي مسيو لوناي كي يودعني الباستيل ويمنع عني الطعام، ليرى مبلغ ما في قولي من صحة. كما لا أقبل أيضًا أن أنفرد بمسيو دي كوندرسيه لأنني واثق أنه يود أن يفرغ السم الموضوع في الخاتم الذي يلبسه في إصبع يده اليسرى في قدحي– لا لرغبة شريرة ولكن إرضاء لحقيقة علمية خطرت له.

فنظر مسيو دي لوناي ومسيو دي كوندرسيه كل منهما إلى الآخر في دهشة وقد تخضب وجهاهما بحمرة الخجل.

واستطرد كاليوسترو قائلاً:

– أليست هذه هي الحقيقة يا مسيو دي لوناي؟ إننا لسنا في ساحة القضاء حتى تخشى الإعتراف.

فقال مسيو دي لوناي ضاحكاً:

– الحقيقة ما قررت يا كونت..

بدرت من شفاه الحاضرين صيحات الإعجاب.. بينما إستطرد كاليوسترو قائلاً:

– وعلى هذا الأساس أمكنني أن أتجنب التعرض للتهلكة.. فأنا أقارن الظروف

الحالية بما يماثلها في الماضي لأتخذ من المقارنة درساً.. ومن الدرس موعظة، ولا شك أن للألف عام التي عشتها أكبر الأثر فيما صرت إليه من حنكة ودراية.

فقال مسيو لامبروز:

– لو إنك قبلت مرافقتي في الرحلة التي أعتزم القيام بها حول العالم لقدمت إلى أجل الخدمات يا سيدي.

لم يجب كاليوسترو.. فاستطرد لامبروز:

– مادام الكونت كاليوسترو لا يرى مرافقتي في رحلتي، فأرجو أن يسمح لي سيدي الماريشال بالإنصراف. فان الساعة الآن السابعة وقد وعدت جلالة الملك أن أبدأ رحلتي بعد ربع ساعة.غير أني أود قبل أن أنصرف أن أسأل الكونت كاليوسترو أن يتكهن بما سيحدث لي ما بين فرساي وبرست.

فنظر كاليوسترو إلى لامبروز نظرة هي مزيج من العطف والإشفاق.. فلم يسع مسيو لامبروز غير الرحيل. وفيما كان لامبروز يودع الماريشال رامبوليه.. قال الأخير:

– الوداع يا عزيزي لامبروز..

فأجاب الآخر:

– كلا.. بل إلى اللقاء، وإلا اعتقد الجميع إنني لن أعود.. فإن رحلة حول العالم قد تستغرق غيبة ست سنوات ولكنها لا تقتضي كلمة «الوداع».

فأجاب الماريشال:

– إن ستة أعوام بالنسبة إلى من كان في مثل سني هي بمثابة ستة قرون.. وعلى ذلك فأنا أرى من الأوفق أن أقول «الوداع».

فقال لامبروز ضاحكاً:

– إذن فلنسأل العراف.. ولكن مالنا ولهذا.. إن قبلة واحدة على يد الكونتس

كفيلة بأن تطيل في أجلي عشرين عاماً أخري.. والآن إلى اللقاء..

ثم غادر الغرفة.. ولما انقطع وقع حوافر جواده.. إلتفت الجميع إلى كاليوسترو متسائلين

وكان الكونت هاجا أول من قطع حبل الصمت.. سأل:

– لماذا لم تجيب على سؤاله يا مسيو كاليوسترو؟

فانتفض كاليوسترو في مكانه كأنما أفاق من حلم مزعج، وأجاب:

– الواقع إنني كنت في موقف حرج، فكان على إما أن أكذب أو أقرر حقيقة محزنة

– وكيف ذلك؟

– كان يجب أن أقول له (أن الدوق مصيب في قوله لك «الوداع»)

فامتقع وجه الماريشال. وسأل:

– ماذا تعني بذلك يا سيدي؟

– لا تنزعج يا ماريشال. فإن الخاتمة المؤلمة ليست خاتمتك.

فصاحت مدام دوباري:

– ماذا تقول؟ هل تعني أن لامبروز المسكين..

فقاطعها كاليوسترو:

– إنه لن يقبل يدك مرة ثانية يا سيدتي بل ولن تقع عيناه على من غادرهم الآن مرة أخرى.

بدرت صيحات الدهشة من أفواه السامعين وعلت وجوههم علامات الحزن والتأثر.

وقالت الكونتس:

– أتوسل إليك أن تطلعنا على ما سيحدث للامبروز المسكين.

فهز كاليوسترو رأسه نفياً.. فصاح الآخرون:

– نعم. أسمعنا نبوءتك.

فقال العراف:

– إنكم تعرفون أن مسيو لامبروز يرغب في القيام برحلة حول العالم. ليستأنف أبحاث الكابتن كوك المسكين الذي لقي حتفه في جزائر سندوتش

– أجل.. أجل. كلنا نعرف ذلك.

– وكل العوامل تدل على أن لامبروز سيوفق في رحلته، فهو بحار ماهر كما أنه سيتبع طريقاً آمناً

فقاطعه الكونت هاجا قائلاً:

– نعم. فإن جلالة ملاك فرنسا عالم جغرافي قدير، وهو الذي رسم له خط السير.

فقال كاليوسترو:

– لقد سارع لامبروز بالرحيل من هنا. ولكنني لا أعتقد أنه سيرحل في الوقت المحدد لبدء الرحلة. فهنالك عقبات كثيرة ستحول دون رحيله سريعاً من برست.

وأمسك كاليوسترو لحظة. وهو يحملق في قدح الماء الموضوع أمامه. ثم عاد فقال:

– إنني أرى لامبروز وقد بدأ رحلته وسط مظاهر الفرح والابتهاج وها قد مضى عامان من مدة الرحلة دون أن يحدث شيء مؤلم.

– وبعدئذ؟

– ومرت الأعوام.. وإذا بالبحر تتسع دائرته حول السفن.. وتظلل السماء

سحب قاتمة.. ثم تظهر أراض مجهولة.. وأشباح مرعبة المنظر. وهي ترقب السفينة وقد حملتها العاصفة الثائرة نحو الشاطئ..

أواه.. لامبروز.. لامبروز.. لو إنك تسمعني لصرخت أطلب إليك أن تحذر الجزائر المجهولة..

وصمت كاليوسترو.. بينما بدت دلائل الذعر والفزع على وجوه الحاضرين.

سأل الكونت هاجا:

– إذن لماذا لم تحذره؟

وصاحت الكونتس دوباري:

– أجل.. لماذا لا ترسل من يمنعه من الرحيل.. فإن حياة مثل هذا الرجل العظيم أثمن بكثير من أن تعرض للتهلكة في رحلة خطرة كهذه؟

وحينئذ نهض الماريشال واقفاً وهم بدق الجرس. لكن كاليوسترو منعه من ذلك وقال:

– لا فائدة ترجى من ذلك. فإن النصيحة لن تجدي مع لامبروز وهو القدر قد كتب له في سجل الأبدية.. فلن يستطيع أحد الحيلولة بينه وبين ما كتب له.

فأطرق الجميع برؤوسهم دلالة على الإقتناع.. وقال دي كوندرسية:

– إن القناع الذي يحجب عنا مآسي المستقبل لهو أعظم رحمة منحها الله للإنسان..

فقال الكونت هاجا:

– هل لك أن تطلعني على مستقبلي يا مسيو دي كاليوسترو؟

فهز العراف رأسه نفياً.. فقال الكونت:

– تذكر يا سيدي أن هناك رجالاً تتوقف عليهم مصائر الملايين من البشر..

فقال كاليوسترو:

– إذن سلني يا مولاي أجيبك.

فقال الملك وقد بدت عليه دلائل العظمة لأول مرة:

– إنني آمرك أن تكشف القناع عن مستقبلي وخاتمتي يا مسيو كاليوسترو .

فحدق كاليوسترو ثانية في القدح ثم قال:

– خبرني ماذا تريد أن تعرف يا مولاي؟

– أريد أن أعرف أية ميتة سأموت.

– ستموت بطلق ناري يا مولاي.

فلمعت عينا الملك جوستاف.. وقال:

– إذن سأموت في معركة! ميتة مقاتل شريف، شكراً لك يا مسيو دي كاليوسترو..

وأطرق العراف برأسه إلى الأرض.. ولزم الصمت..

فسأل الملك في تحد:

– مالك قد أطرقت برأسك إلى الأرض يا سيدي؟ ألم تقل إنني سأموت كمحارب شريف، فهل في ذلك ما يؤلم ؟ إنه لشرف ونعم الشرف

فرفع كاليوسترو رأسه، وقال في لهجة حزينة:

– مولاي. إنني لم أقل إنك ستموت في ساحة القتال. ولكنك ستلاقي حتفك في إحدى الحفلات الراقصة.

لزم الملك الصمت.. على حين دفن كاليوسترو وجهه بين يديه وارتسمت علامات الذعر على وجوه المدعوين

ورفع مسيو كوندرسيه القدح من أمام العراف. ونظر إليه بإمعان كأنما ليخترق حجب القدح ويرى تلك الشاشة البيضاء التي يقرأ كاليوسترو عليها مستقبل الرجال، فلما أخفق، أعاد القدح إلى موضعه، ثم قال:

– وهل لك أن تطلعني على مستقبلي يا مسيو كاليوسترو؟

فرفع العراف رأسه ثانية، وقال في صوت أجش:

– سيدي.. إنك رجل له خطره في الدوائر العلمية، وإذا شئت أن تعرف مستقبلك فأعلم إذن أنك ستموت بنفس السم الذي تحمله في خاتمك.

فقال العالم:

– ولكنني سأتخلص منه فوراً..

وقالت الكونتس:

– أجل.. تخلص منه في الحال يا ماركيز حتى لا يصيبك الموت.. إن هذا العراف المشئوم يتهددنا جميعاً بسوء المصير

فقال العراف:

– لا فائدة ترجى من ذلك يا سيدتي.. فإن مسيو كوندرسيه لن يقذف بالسم.

وقال العالم:

نعم.. إنني سأحتفظ به. لا لكي أساعد القدر في عمله.. وإنما لأنه سم نادر. حضره كابانيس، ولن تتاح لي فرصة أخرى للحصول على كمية أخرى منه..

واستطرد كاليوسترو:

– إن القدر لا يعجز أبداً عن إيجاد الوسيلة التي يحقق بها قضاءه.

وقال الماركيز:

– إذن فسأموت بفعل السم، حسناً، إنها ميتة مدهشة على كل حال.

فقاطعه مسيو فافراس قائلاً:

– لقد عرفنا الآن أن مسيو لامبروز سيموت غريقاً.. وجلالة ملك السويد سيموت بطلق ناري.. وأما الماركيز فسيموت بتأثير السم.. ترى ماذا قدر لي أنا إذن؟

فأجاب العراف:

– لا تحسد هؤلاء السادة على نهاياتهم يا سيدي.

فسأل فافراس:

– لماذا؟ أتنتظرني ميتة أشنع من ميتاتهم؟

– أجل.. ستموت مشنوقاً يا سيدي.

فصاح رامبولية: مشنوقاً.. يا للشيطان.

وساد الصمت بين الحاضرين. فلم يكن أحد يجرؤ على الحديث بعد إذ تكهرب الجو عقب تلك التصريحات المؤلمة.

وأخيراً قال مسيو دي لوناي للعراف:

– الحق إنني أرتجف لمجرد تذكر نبوءاتك ولا أجد في نفسي الجرأة لسؤالك عما سيصيبني.

فقال كاليوسترو:

– إنك تحسن بذلك صنعاً يا سيدي. فلا تحاول البحث عما يخبئه لك المستقبل. فإن المستقبل بيد الله.

وقالت الكونتس:

–يبدو أنك تشعر بالجبن من تعرف مصيرك يا مسيو دي لوناي.

فالتفت حاكم الباستيل إلى العراف. وقال:

– إذن. هل لك أن تتنبأ ما سيحدث لي مستقبلاً يا سيدي؟

فأجاب كاليوسترو:

– وا أسفاه، أنك ستلاقي مصرعك بضربة فأس.

فبدأ الإشمئزاز على وجه الحاكم، على حين حاول رامبوليه وتافرني أن يحملا العراف على عدم الاسترسال في هذه الأحاديث المؤلمة. بيد أن الثرثرة النسائية لم تلبث أن تغلبت على حكمة الرجال. إذ قالت الكونتس:

– أكبر الظن أن امرأة مثلي لن تكون خاتمتها مفجعة كما تنبأ لكم مسيو دي كاليوسترو؟ ويلوح لي أنني سأموت كما تموت أية امرأة عجوز محطمة هجرها الأهل والناس ، أليس كذلك يا مسيو كاليوسترو؟

ونظرت إلى العراف في إنتظار جوابه. بيد أن كاليوسترو آثر الصمت مما زاد فضول الكونتس، فسألت في ألحاح:

–ماذا؟ ألا تجيب يا سيدي؟

– وماذا تريدني أن أقول يا سيدتي؟

ترددت.. ثم إستجمعت أطراف شجاعتها. وصاحت:

– حسناً. سأجازف كما جازف الآخرون. وأطلب إليك أن تخبرني بمصير جان دي فوبرنيير، كونتس دوباري.

فأجاب العراف:

– ستطيح سكين الجلاد برأسك يا سيدتي..

فإمتقع وجهها وقالت في ضراعة:

– لا شك إنك تهزل يا سيدي ؟

– ولماذا تعتقدين إنني أقصد الدعابة يا سيدتي ؟

– ذلك لأنه يتحتم أن يرتكب الإنسان جريمة ما حتى تطيح سكين الجلاد برأسه.. وهو أمر لا أخالك تعتقد أن امرأة ضعيفة مثلي تجرؤ على إتيانه.

وضحكت ضحكة هسترية.. واستطردت قائلة:

– إذن هيا بنا نتهيأ للموت يا مسيو دي فافراس..

فاسترسل العراف قائلاً:

– لا داعي لذلك يا سيدتي.. فستذهبين إلى المشنقة في عربة!

– يالك من شخص مزعج يا سيدي.. ولكن كم أرجو أن تتهيأ لي الفرصة وقتئذ حتى أصعد إلى المشنقة ومعي كاهن أعترف عليه.

فرفع العراف يده يقاطعها. وقال:

– لن يحدث شيء من هذا يا سيدتي.. فإن آخر شخص في فرنسا سيصعد إلى المشنقة مع الكاهن هو جلالة ملك فرنسا.

نطق كاليوسترو بتلك الكلمات في صوت داو مخيف أرسل الذعر إلى قلوب سامعيه.وساد الصمت.. وأخيراً رفع العراف القدح الذي كان يشاهد فيه تلك المناظر المروعة وهم بأن يجرع محتوياته، ولكنه أعاده إلى مكانه ثانية وقد بدأ عليه الضجر.وتحول إلى مسيو دي تافرني فأسرع الأخير يقول في فزع:

– كلا.. لا تطلعني على شيء، فأنا لا أريد أن أعرف ما ينتظر في من مصير.

وقال الماريشال رامبوليه:

– إذن خبرني ماذا قدر لي في لوح القدر يا كاليوسترو؟

– كن مطمئناً يا سيدي الماريشال، فأنت الشخص الوحيد الذي سيموت في فراشه مطمئناً.

فصاح الماريشال في جذل:

– إذن هيا بنا لنتناول القهوة أيها السادة!

نهض الجميع وقوفاً.. وفيما كانوا يتهيأون لمغادرة القاعة اقترب الكونت هاجا من العراف.. وسأل:

– هل لك أن تخبرني ماذا أحذر في المستقبل؟

فأجاب العراف: احذر من القفازات يا مولاي..

وقال كوندرسية: وأنا ؟

– من (عجة) البيض يا سيدي.

وسأل فافراس: وأنا؟

– من رسالة.

وسأل مسيو لوناي: وأنا؟

– حذار من سقوط الباستيل

أما الكونتس فسألت وقد امتقع وجهها خوفاً:

– وأنا.. مم أحذر؟

– أما أنت أيتها الكونتس الجميلة فإجتنبي قصر لويس الخامس عشر.

وغادر الجميع الغرفة في صمت.. وأراد كاليوسترو أن يتبعهم حين استوقفه الماريشال

وقال له:

– لحظة واحدة يا صديقي.. فما زال هناك تافرني. فإننا نجهل مصيره..

فصاح تافرني:

– ولكنني لا أريد أن أسمع شيئاً من تنبؤاته

وقال الماريشال:

– إذن هل لك أن تطلعنا على شيء لا يعرفه سوانا – تافرني وأنا – حتى نثق بصدق تنبؤاتك؟

فابتسم العراف وقال:

– ماذا تقول؟

فقال الماريشال:

– خبرنا لماذا قدم تافرني إلى فرساي مفضلاً ذلك على العيشة الهادئة في قصره الجميل في «المنزل الأحمر» الذي ابتاعه له الملك منذ ثلاث سنوات؟

فقال كاليوسترو:

– إن ذلك من البساطة بمكان.. فقد حاول مسيو تافرني منذ عشر سنوات أن يزوج ابنته أندريه من الملك لويس الخامس عشر ولكنه لم ينجح في محاولته.

فصاح تا فرني: يا للشيطان.

وإستطرد العراف قائلاً:

–والآن يحاول مسيو تافرني أن يزوج إبنه فيليب من الملكة ماري إنطوانيت.. أليست هذه هي الحقيقة يا سيدي؟

فصاح تافرني في انفعال:

– إن هذا الرجل ساحر ولا شك.

ولكنه حين التفت إلى كاليوسترو ثانية كان هذا قد اختفى.

قال الماريشال:

– هيا بنا إلى قاعة الجلوس كي نحتسي القهوة.

ولكنهم لم يجدوا أحداً في القاعة. فقد رحل الجميع إذ لم يجرؤوا على مقابلة ذلك العراف الجهنمي مرة أخرى.

الفصل الثاني

المرأتان المجهولتان

عانت باريس في شتاء عام ١٧٨٤ أهوالاً ومصاعب تشيب لها الولدان. فقد كثر هطول الأمطار، وhشتد البرد بشكل لم يسبق له مثيل، فتحولت الأنهار إلى ثلاجات، وتراكمت في الشوارع كتل من الجليد، عطلت الأعمال وعرقلت الحركة العامة. ونزلت بالبلاد مجاعة جائحة بسبب الثلوج التي غطت الحقول فنضب المحصول إلى درجة خطيرة، وألفى الناس أنفسهم يتضورون جوعاً ولا يجدون ما يقيهم زمهرير الشتاء، فخرجوا إلى الشوارع وهم يصرخون في طلب الخبز والوقود.

وإزاء هذه المشكلة الخطيرة رأي لويس السادس عشر أن يتبرع لشعبه مبلغ ثلاثة ملايين من الفرنكات تخفيفاً لويلات الأزمة، وكي يجد المتضورون جوعاً ما يسدون به الرمق.

أما الوقود فقد سمحت الحكومة للشارين أن يبتاعوه من مخازنها أو غاباتها، فظن الجميع أن الأزمة قد خفت وطأتها، وأن الرخاء لا يلبث أن يعم البلاد، ولكن سرعان ما خاب ظنهم حين أعلن حاكم باريس نفاد الوقود وقلة الغلال..وأقيمت الصلاة في الكنائس، وتضرع البؤساء إلى الله أن يرفع عنهم البرد والمجاعة..وكأنما استجابت السماء دعوات المصلي، فصفا الجو فترة من الزمن، فنسي الجميع همومهم واستأنفوا حياة المرح المشهورة عن الباريسيين.

بيد أن الطقس لم يلبث أن عاد سيرته الأولى، فاشتد الصقيع وانتشرت المجاعة

مرة أخرى. فرأى الملك أن يشكل لجنة لبحث الحالة، وتشكلت اللجنة ثم قررت أن تناشد الكهنة والرهبان العودة إلى مواطنهم الأصلية حتى يخف الضغط في طلب الخبز والوقود.

ولما ظهر أن تلك الإجراءات لم تف بالغرض المنشود إجتمعت اللجنة ثانية وقررت مناشدة القضاة ورجال الحكومة الذين جاءوا إلى باريس سعياً وراء ملذاتهم أن يعودوا ثانية إلى مقاطعاتهم. بيد أن حاكم باريس العسكري لم يكن من الحزم حيث ينفذ هذا القرار دون تباطؤ أو تراخ، وعلى ذلك فقد بقي الجميع في باريس غير عابئين بقرار اللجنة..

وهكذا قاست باريس خلال أشهر الشتاء الطويلة من الجوع والبرد القارص ما دفع كثيرين من سكانها إلى احتراف اللصوصية وقطع الطريق.

وبعد مرور أسبوع على الوليمة التي أدبها الماريشال دي رامبوليه وصلت إلى باريس أربع زحافات تتهادي فوق الجليد وبين القاذورات التي كانت تملأ الشوارع والطرقات.

وقد شغل أولى الزحافات رجلان يرتديان معطفين سميكين. وكانا لايفتأن يلتفتان خلفهما الفينة بعد الفينة. كأنما يراقبان تقدم الزحافة التي تتبعها عن كثب. والتي كان يشغلها إمرأتان قد تدثرتا بمعطفين سميكين من الفراء الثمين، وأخفتا من ملامحهما حيث كان من المتعذر أن يحكم الرائي عليهما بأنهما إمرأتان لولا القبعتان النشائيتان اللتان كانتا ترتديانها.

كانت المرأتان تجلسان جنباً إلى جنب وهما تتحدثان في انهماك غير عابئتين بالبؤساء الذين انتشروا في الشوارع وراحوا يرمقونهما في حسد وحنق. وكانت إحداهما طويلة القامة تبدو عليها دلائل النبل وتحمل في يدها منديلاً فاخرة قد غطت به معظم وجهها ، وعندما وصلت الزحافات إلى بوابة سان دنيس كان الليل قد بدأ يرخي سدوله. واشتد الزمهرير.

وأشارت كبرى المرأتين إلى الرجلين إشارة خاصة. فأسرع أحدهما يستحث الجياد على الإسراع. ولم تلبث أن إختفت. وعادت المرأة تشير إلى ركاب الزحافتين الأخرين فلم تلبثا أن اختفتا أيضاً.. ووقفت زحافة المرأتين أخيراً في شارع دي منلمونتان. وكان يبدو قفراً من المارة والسابلة. ولا شك أن كان للبرد أثره في فرار الناس والتجائهم إلى دوره طلباً للتدفئة.ولمست المرأة كتف سائق عربتها. ثم قالت:

– كم يلزمك من الوقت كي تحضر المركبة المنشودة يا وبر؟

فسأل السائق في لهجة تغلب عليها اللهجة الألمانية:

– هل تريدينني على أن أحضر المركبة يا سيدتي؟

– أجل.. فإنني سأعود من الشوارع الجانبية حيث لا يمكن أن تجتازها الزحافة نظراً لتراكم القاذورات.

والتفتت إلى رفيقتها. وسألتها:

– كم الساعة الآن يا فتاتي؟

ونظرت المرأة الأخرى إلى ساعتها الصغيرة واستطاعت بعد لأي أن تعرف الوقت نظراً لإشتداد الظلام.

قالت:

– إنها السادسة إلا ربعاً يا سيدتي.

فقالت كبرى المرأتين:

– إذن لتحضر المركبة في الساعة السابعة إلا ربعاً يا وبر.

ووثبت المرأة من العربة تتبعها رفيقتها. وإنطلقتا بخطى سريعة.

أما السائق فقد تنهد وغمغم قائلاً:

– يا إلهي.. هذه جرأة لا حد لها؟

أما المرأتان فقد ضحكتا، وضمتا معطفيهما حول جسميهما بشدة وقالت كبري المرأتين:

– حاولي أن تقرأي اسم الشارع يا أندريه.

– إنه شارع دي بونت أوشو يا سيدتي.

– إذن فقد أخطأنا. لقد أخبروني أن أدخل في الشارع الثاني على اليمين، ولكن يالله. إنني أشم رائحة خبز حار.

فقالت رفيقتها:

– ولم الدهشة وهذا مخبز في نهاية الشارع.

– إذن هيا بنا إليه لنسأل عن شارع سان كلود.

فقالت أندريه:

– كلا. لا تدخلي المخبز يا سيدتي ودعيني أفعل ذلك.

وهمت الفتاة بالتحرك. حين سمعت المرأتان صوتاً مرحاً يقول:

– أتبحثان عن شارع سان كلود يا سيدتي الجميلتين؟

دارت المرأتان على عقبيهما نحو مصدر الصوت.. فرأتا رجلاً يميل بجسمه فوق باب المخبز. وقد بدا عاري الصدر والساقين رغم شدة البرد.. وصاحت صغرى المرأتين وهي تحتمي برفيقتها:

– يا للشيطان! هو ذا رجل عار! ترى هل نحن في باريس حقاً.. أم في إحدى غابات أفريقيا؟

وسأل الخباز دون أن يعبأ بما بدا على المرأة من خوف:

– ألم يكن هذا ما تريدان الاستعلام عنه؟

فقالت كبرى المرأتين، وهي تغالب ضحكة أوشكت أن تفلت منها:

– أجل يا صديقي. إننا نبحث عن شارع سان كلود.

– إذا شئتما رافقتكما إليه فهو ليس ببعيد من هنا.

فصاحت المرأة:

– كلا.. لا داعي لأن تزعج نفسك.. ويكفي أن ترشدنا عن الطريق الموصلة إليه.

فقال الرجل: إنه أول شارع إلى اليمين

فقالت المرأة وهي تجتذب رفيقتها: – شكراً لك..

وانطلقتا.

الفصل الثالث

الزيارة

كان السائر في شارع سان كلود يرى ضوءاً خافتاً ينبعث من نافذة في الطابق الخامس من منزل صغير في نهاية الشارع.وخلف هذه النافذة جلست امرأة صغيرة عليها مسحة من الجمال إلى منضدة قديمة وقد إنهمكت في كتابة بضع رسائل. وعلى مقربة منها، وقفت امرأة أخرى طاعنة في السن وقفة الإحترام وراحت تنظر إليها في فضول.

أما أثاث الغرفة فكان يتكون من عدة مقاعد وثيرة مكسوة بقماش من القطيفة الصفراء وفوقها أغطية بيضاء، وثمة أريكة عتيقة تماثل المقاعد ولكنها أقدم منها.وفوق الجدار كانت صورتان معلقتان، إحداها لهنري الثالث ملك فرنسا وبولندا، وقد نفش في أسفلها إسم (هنري دي فالوا) بخط رديء، والأخرى لامرأة صغيرة لها عينان سوداوان، وأنف مدبب وشفتان رقيقتان، وقد نقش في أسفلها اسم (جين دي فالوا). فترى ما العلاقة بين هنري الثالث وبين تلك المرأة التي تقطن ذلك المنزل الحقير الذي يدل كل ما فيه على فقر مدقع.؟

وكانت الخادم العجوز لا تفتأ تجيل بصرها في حزن بين سيدتها الجالسة إلى المنضدة وبين المدفأة الجرداء. وفجأة. غمغمت أصغر المرأتين قائلة:

– مدام دي ميزري، وصيفة مخدع جلالة الملكة. إنني لا يمكن أن أتوقع الحصول منها على أكثر من ستة لويسات، لأنها أحسنت إلى من قبل.

وتأوهت، ثم إستطردت قائلة:

– مدام باتريك وصيفة جلالتها. لويسان. مسيو دورمسون. متفرج. مسيو دي

كالون. نصيحة. مسيو دي روهان. زيارة. أو على الأقل سنحاول أن نقنعه بذلك.

ثم ابتسمت، وعادت تقول:

– حسناً.. أكبر الظن أن هناك أملاً في الحصول على ثمانية لويسات هذا الأسبوع.

ورفعت رأسها من فوق الأوراق التي أمامها. ثم قالت لخادمتها:

– كلوتيد. أطفئي الشمعدان.

فصدعت الخادمة بالأمر، وأطفأت الشمعدان ثم عادت إلى مكانها.

وقالت الفتاة:

– كلوتيد. إذهبي وابحثي عن بقايا شمعة نضيئها فقد ضقت ذرعاً بقلة الضوء.

فأجابت العجوز:

– لم يعد لدينا بقايا شمع يا سيدتي.

– إذهبي وإبحثي.

– أين؟

– في الغرفة الخارجية.

– إن البرد قارص هناك.

فقالت المرأة الصغيرة:

– إنني أسمع بعضهم يطرق الباب.

فأجابت العجوز الصغيرة.

– إن سيدتي واهمة.

– لقد خيل إلى أن طارقاً يقرع الباب يا كلوتيد.

وعادت إلى أوراقها. ثم استأنفت الكتابة وهي تقول بصوت مرتفع:

– ثمانية لويسات! سأدفع منها ثلاثة للإيجار. وخمسة لمسيو دي لاموت كما وعدته. فإن زواجنا لم يرفعه إلى درجة الثراء بعد. ولكن صبراً..

وإبتسمت. ثم ألقت ببصرها إلى المرآة الموضوعة بين الصورتين.

وإستطردت قائلة:

– حسنًا.. إنني ما زلت في حاجة إلى لويس واحد حتى أستطيع الذهاب إلى باريس والعودة إلى فرساي.

وأمسكت عن الكلام، ثم تحولت إلى خادمتها وقالت:

– إنني أسمع طرقاً على الباب يا كلوتيد!

فأجابت العجوز:

– كلا يا سيدتي. فإن الطارق يقرع باب الطابق الأسفل

وقالت الأخرى في غضب:

– كلا. بل يطرق بابنا.

فلم يسع العجوز إلا أن تنزل على إرادة سيدتها. فتحركت نحو الباب في تململ. على حين أسرعت سيدتها تخفي أوراقها. وتجلس فوق الأريكة العتيقة في حالة تدل على الفقر والمرض معاً. وأما عيناها فكانتا حديدتين كعيني الصقر، تلمعان ببريق اللهفة والانتظار. وبعد لحظة فتح باب الغرفة. فسمعت المرأة الصغيرة صوتاً عذباً يقول:

– هل تقطن هنا الكونتس دي لاموت؟

فأجابت كلوتيد:

– أجل.. الكونتس دي لاموت فالوا

– إنها هي التي تبحث عنها. فهل هي هنا؟

– أجل يا سيدتي. إنها مريضة جداً إلى درجة لا تمكنها من مبارحة الفراش.

وفيما كان هذا الحوار دائراً بين المرأتين. رأت مدعية المرض وجه محدثة خادمتها في المرآة. فأدركت في الحال أنها تنتمي إلى الطبقة الراقية ، ثم رأتها تدور على عقبيها وتتحدث إلى امرأة أخرى كانت تقف خلفها.وبعدئذ تحولت الزائرتان ناحية باب الغرفة تريدان الدخول ، ولم تكن هاتان المرأتان سوى تلكما اللتين مر ذكرهما في الفصل السابق.

سألت الخادمة:

– من تكونا حتى أخبر سيدتي الكونتس بقدومكما؟

فقالت كبرى المرأتين:

– أخبريها إنني إحدى أعضاء جمعية خيرية.

– من باريس؟

– كلا.. من فرساي.

فدلفت كلوتيد إلى غرفة سيدتها تتبعها المرأتان. وتحاملت جين دي فالوا على نفسها. ونهضت لاستقبال زائرتيها في إعياء وتثاقل شأن المريض طحنه المرض وأقعده عن الحركة. وأسرعت كلوتيد تقدم إلى القادمين مقعدين وثيرين ثم غادرت الغرفة على الأثر.

الفصل الرابع

جين دي لاموت فالوا

كان أول ما خطر ببال جين دي لاموت أن تمعن النظر في وجهي زائرتيها حتى تستطيع أن تستوثق من الحكم عليهما.وكانت كبرى الزائرتين تتمتع بجمال نادر، وتلوح على وجهها سيماء النبل وعراقة المحتد.. أما سنها لم تكن تعدو الخامسة والثلاثين ، بيد أن جين دي لاموت لم تستطع دراسة تلك المرأة دراسة دقيقة.. فقد كانت تجلس بعيدة عن ضوء الشمعدان حتى ليتعذر تمييز ملامحها .. وأما رفيقتها فتصغرها بخمس سنوات، ولكنها كانت تضارعها جمالاً.. وسألت جين دي فالوا زائرتيها عن الظروف السعيدة التي وفقتهما إلى زيارتها..

فأشارت كبرى الزائرتين إلى رفيقتها كي تجيب.. فقالت:

– سيدتي.. أكبر الظن إنك متزوجة؟

– لقد كان لي شرف الزواج بالكونت دي لاموت..

– حسناً يا سيدتي الكونتس.. إننا نرأس إحدى الجمعيات الخيرية.. وقد وصلت إلينا عنك معلومات أثارت فضولنا فعولنا على زيارتك للإستزادة من تلك المعلومات.

فأجابت جين:

– انظرا إلى هذه الصورة المعلقة فوق الجدار إنها لهنري الثالث.. وهو أخو جدي. فأنا أنحدر من سلالة فالوا. ولا أخالكما تجهلان تلك الحقيقة..

وكفت عن الكلام إنتظاراً للسؤال الثاني. وهي تنظر إليهما في ذلة..

فسألت كبرى المرأتين في لهجة عذبة ساحرة:

– وهل حقاً ما سمعنا من أن أمك كانت مدبرة منزل يعرف باسم «فونتيل» بالقرب من نهر السين؟

فتخضب جبين جين بحمرة الخجل.. وأجابت:

– إنها الحقيقة ما تقررين ياسيدتي، فقد كانت أمي – ماري جوسل – تتمتع بجمال نادر حتى لقد أسرت فؤاد أبي فتزوجها،رغم أنه ينحدر من سلالة فالوا النبيلة التي كان أفرادها يحكمون فرنسا إلى عهد قريب.

– ولكن كيف أمكن أن تصلي إلى تلك الدرجة من الفاقة؟

– أواه يا سيدتي.. إن المسألة سهل إيضاحها، فبإعتلاء هنري الرابع عرش فرنسا انتقل التاج من بيت «فالوا» إلى بيت «بوربون». بيد أن آخر سلالة عائلة «فالوا» مازالوا أحياء يرزقون!

فهزت السامعتان رأسيهما مؤمنتين، واستطردت جين قائلة:

– ولقد اضطر هؤلاء أن يغيروا لقبهم خشية بطش العائلة المالكة الجديدة، فاختاروا لأنفسهم لقب «سان ريمي» نسبة إلى ضيعة كانوا يملكونها، ولعله من السهل تعقب سلالة «فالوا» عن هذا السبيل.. أما أبي، فمنذ أدرك رسوخ قدم الملكية الجديدة – حتى لقد نسي الجميع كل شيء عن بيت فالوا – ظن أنه لم يعد به ثمة حاجة إلى التنصل من إسمه القديم، فأعاد لنفسه لقبه القديم «فالوا»، وهو الإسم الذي عرف به في إحدى المقاطعات حيث كان يعيش في فقر مدقع، دون أن يخشى ظهور نسبه الأصلي!

وتوقفت جين عن الكلام، وحدجت زائرتيها بنظرة فاحصة، فأدركت أن كلماتها أحدثت الأثر المطلوب في نفسيهما.

وسألت كبرى الزائرتين في رفق:

– لا شك أن لديك ما يثبت صحة أقوالك ؟

فأجابت جين وقد تلاعبت على شفتيها إبتسامة مريرة:

– لقد ترك لي أبي من المستندات والوثائق ما يثبت صحة نسبه، ولكن ما فائدة هذه الوثائق في تقرير حقيقة مجهولة من الجميع ؟

فسألت صغرى المرأتين:

– إذن فقد مات أبوك؟

– أجل يا سيدتي.

– وهل مات في باريس أو في إحدى المقاطعات؟

– بل في باريس يا سيدتي!

– في هذه الغرفة ؟

– كلا.. فقد مات أبي البارون دي فالوا إبن عم الملك هنري الثالث من البؤس والجوع في إحدى المصحات.

فبدرت من شفتي الزائرتين صرخة تدل على الدهشة.. والجزع..

– يبدو إنك عانيت أهوالاً شدائد يا سيدتي، ولعل وفاة أبيك كانت أكبر مصيبة حلت بك!

– لو أنك سمعت قصة حياتي كلها يا سيدتي. لأدركت أن وفاة أبي لا توازي شيئاً بالنسبة إلي ما لاقيته أنا من بؤس وفاقة!

قالت كبرى الزائرتين في دهشة:

– وكيف ذلك يا سيدتي؟ أتعتبرين موت أبيك من الأمور الهينة؟

– أجل يا سيدتي؟ فإن من رحمة الله بأبي أن قبض روحه إليه حتى يخلصه من حياة كلها شقاء ومعرة.. وهل أدل على ذلك من أن يلجأ شخص ينحدر من سلالة

العائلة المالكة الفرنسية إلى التسول في الطرقات طلبا للخبز.

– طلباً للخبز!

– أجل يا سيدتي. إنني أقرر ذلك دون خجل، لأنني أعتقد أنه لم يكن لأبي ضلع فيما عانيناه ولا نزال نعانيه.

– ولكنك لم تذكري لنا شيئاً عن أمك حتى الآن.

– لقد أخبرتكما أن وفاة أبي كانت من رحمة الله بنا.. وهأنذا أقرر أن بقاء أمي على قيد الحياة هو من أكبر النكبات التي أصابتنا.

وتبادلت الزائرتان نظرة دهشة شديدة، وسألت كبراهما:

– هل لك في الإفصاح يا سيدتي؟ فإن إنساناً لا يتوقع أن يسمع من إنسان آخر أنه يشقى بوجود أمه على قيد الحياة!!

فقالت جين:

– من المؤكد يا سيدتي أن مثلكما لم تعانيا من الويلات والنكبات ما عانيت يصعب عليهما أن يحسا شعور شخص حلت به مثل هذه النكبات.

لقد ذكرت لكما أن أبي تنازل وتزوج مدبرة منزله لأنه أحبها، ولكن – أمي ماري جوسل – لم تقدر ما في ذلك من شرف وتضحية. فتعمل على توفير أسباب الحياة الزوجية السعيدة لأبي.. وإنما إندفعت وراء ملذاتها وعبثها حتى اضطرته الى بيع جميع ممتلكاته. ثم أغرته بالرحيل إلى باريس ليطالب بالحقوق التي يخولها له مركزه.وكان أبي سلس القياد ممن يسهل إقناعهم، ولعله كان يأمل في عدالة الملك. فباع جميع ما تبقي من ممتلكاته ورحلنا إلى باريس.. أما أخي فقد إلتحق بالجيش. وأما أختي فقد تركناها أمام منزل أحد الفلاحين بالقرية يوم رحيلنا.واستنفذت هذه الرحلة جميع ما كان معنا من مال. ولم ينجح أبي في تقرير حقه المشروع ولذلك بدأت حياته تتحول إلى جحيم مقيم.فلم نكن نراه إلا غراراً.وكأنما لم تجد أمي من تصب عليه جام غضبها سواي،

فكانت تسو مني سوء العذاب لأقل هفوة أرتكبها.ورأى جيراننا أن يطلعوا أبي ويستصرخوه شفقة منهم بي ورحمة.ولكن ذلك لم يزدها إلا قسوة وعناداً.

ومرض أبي أخيراً. فاضطر إلى البقاء في البيت أولاً وملازمة الفراش أخيراً، وعندئذ أرغمتني أمي على عدم الاقتراب من غرفته مدعية بأن ذلك يزعجه. ثم لقنتني جملة معينة وأرسلتني إلى الشارع أستجدي المارة وأنه ليخجلني أن أردد هذه الجملة أمامكما لما فيها من خسة ودناءة.

فقالت كبرى المرأتين:

– ولكننا نرجو أن تذكري لنا كل شيء.

وقالت جين:

– لقد علمتني أن أستجدي المارة قائلة «إرحموا يتيمة صغيرة تنحدر من سلالة هنري دي فالوا»

فصاحت المرأتان بصوت واحد:

– يا للعار!!

وسألت أندريه:

– وهل كان ذلك مما يسهل عليك هذه المهمة الممقوتة؟

– لقد كان بعض الناس يرأفون بحالي على حين كان الباقون ينهرونني ،وثمة فريق ثالث كان يتوقفني ويحذرني من عاقبة ترديد هذه الكلمات. ولكني لم أكن آبه لمثل هذا الإنذار وأنا أعلم أن العودة إلى المنزل دون نقود معناها الضرب والتعذيب دون شفقة. بيد أنني تبرمت في النهاية بهذه العيشة المريرة، خرجت ذات يوم وقد حزمت أمري على عدم الاستجداء متحدية في ذلك إرادة أمي.وقضيت طول النهار وأنا أجلس على عتبة بيت مغلق. فلما حان المساء عدت إلى المنزل دون أن أحصل على شيء. فما عرفت أمي بذلك ضربتني ضرباً مبرحاً حتى لقد مرضت في اليوم التالي..

وهكذا أظلمت الدنيا في وجه أبي، واشتدت وطأة العلة عليه، فانتقل إلى إحدى المصحات حيث قضى نحبه هناك.

فبدت على وجهي الزائرتين إمارات الحزن والأسى.

سألت كبراهما:

– وماذا حدث لك بعد وفاة أبيك؟

– لقد رأف الله بحالي فأنزل الشفقة بقلب أمي، فأمسكت عن تعذيبي وإيذائي، ولبثنا شهراً بعد وفاة أبي على هذه الحال.. ومن ثم رأينا أمي تختفي فجأة.. كانت قد تعرفت إلى أحد الجنود، فهربت معه دون أن تعبأ بنا، ولعله لا يدهشكما أن أقرر إننا شعرنا بالارتياح لاختفائها! واتصلنا بإحدى الجمعيات الخيرية، فأجرت علينا مساعدة دائمة مكنتنا من التخلص من حياة الإستجداء.

وحدث ذات يوم أن رأيت عربة تسير على مهل في شارع فوبرج سان مايبل، وكان أربعة من الخدم يتبعون العربة، وعندما إقتربت مني رأيت امرأة على جانب كبير من الجمال تجلس بداخلها.. رفعت يدي إليها في توسل أسألها المعونة، فسألتني عما بي، وعندئذ أجبتها باسمي الحقيقي، فبدت عليها الدهشة، وطلبت مني أن أعطيها عنواني، ففعلت.. حتى إذا كان اليوم التالي جاءت لزيارتي. وكانت قد قامت ببعض التحريات أدركت منها صدق قصتي، فلما زارتني أبدت اهتماماً بأخي وبي، وعملت بعد ذلك على إحاطتنا برعايتها وعطفها. وقد ألحقت أخي بالجيش، أما أنا فقد عهدت بي إلى إحدى صانعات الأزياء.

– ألم تكن هذه السيدة مدام دي بولا فنفلير؟

– أجل يا سيدتي..

– أعتقد إنها ماتت؟

– أجل.. وبوفاتها فقدت نصيري الوحيد!

– إن زوجها مازال على قيد الحياة.. وهو ثري..

– يؤسفني أن أقرر أن هذا الزوج كان العامل الأول فيما أصابني من بؤس بعد ذلك. كنت قد نموت في ذلك الوقت واكتملت أنوثتي، فحاول هذا الأحمق أن يغازلني وهو يعتقد أنني سأرضخ لرغبته وفاء مني لما تشملني به زوجته من عطف، ولكني أعرضت عنه، فأذاقني العذاب، وعندئذ رأت زوجته المحسنة أن تعقد لي على جندي شجاع مخلص هو مسيو دي لاموت.بيد أن حياة الجندية لا تمكنه من البقاء إمرأته طويلاً. ولذلك إفترقنا مؤقتاً، وعندئذ شعرت بأنني قد فقدت المعول لي في الحياة، لاسيما بعد أن فقدت النصير الوحيد خلال تلك الفترة.. وهي تلك المحسنة التي شملتني بعطفها وبرها ردحاً من الزمن.. هذه هي قصة حياتي يا سيدتي. قصصتها عليكما في اقتضاب حتى لا يتملككما السأم..

فسألت كبرى الزائرتين:

– وأين زوجك الآن؟

– إنه أحد أفراد حامية يار – سير – أبي.. أعني أنه من رجال الجندرمة. وهو ينتظر مثلي تحسن الحال..

– ولكن.. ألم تتقدمي بقضيتك إلى البلاط؟

– أجل..

– لابد أن اسم فالوا قد أثار العطف عليك؟

– لا أظن ذلك يا سيدتي، فإنني لم أتلق رداً على مظلمتي..

– ألم تقابلي الوزراء أو الملك أو الملكة؟

– كلا.. فقد فشلت جميع محاولاتي.

– بالطبع.. ليس في استطاعتك الآن أن تعودي إلى حياة التسول؟

– كلا يا سيدتي.. فقد عاودني حيائي.. وأنا على استعداد لأن أموت جوعاً.. وقد سبقني إلى ذلك أبي من قبل.

– ألم تنجبي أطفالاً؟

– كلا يا سيدتي.. وأغلب ظني أن زوجي سيلاقي حتفه في خدمة الملك.

– معذرة.. هل يمكنك أن تقدمي لي الوثائق التي تثبت صحة نسبك؟

فنهضت جين واقفة، ثم فتحت أحد أدراج مكتبها، وأخرجت منه بضع أوراق. قدمتها إلى كبرى زائرتيها ، ونهضت كبرى المرأتين واقفة.. ثم تحركت صوب الضوء لتفحص الوثائق، بيد أنها لاحظت أن جين إنتهزت الفرصة لتتأملها جلياً.فارتدت إلى مقعدها كأنما آلم الضوء عينيها .. وقالت:

– ولكن هذه الأوراق صور من الوثائق.

– أجل.. يا سيدتي.. بيد إنني أمتلك الأصل، وأنا على إستعداد لأن أقدمه لك

فقالت المرأة باسمة:

– هذا إذا عرضت لك فرصة هامة على ما أعتقد؟

– لست أرى أفضل من زيارتكما لي يا سيدتي. بيد أن الأوراق على جانب كبير الأهمية بحيث..

فقاطعتها كبرى المرأتين قائلة:

– .. إنها من الأهمية بمكان حيث لا تستطيعين عرضها على أول زائر، بالطبع أنا أقدر شعورك.

فصاحت الكونتس:

– لست أقصد ذلك. وسأطلعكما على الوثاق.

ثم نهضت ثانية إلى مكتبها. وفتحت درجاً سرياً. وأخرجت منه مظروفاً من

القماش قدمته إلى كبرى الزائرتين.

ولما فحصت المرأة الوثائق أعادتها إلى صاحبتها، وهي تقول:

– إنك محقة في قولك فإن الوثائق لا غبار عليها فاحتفظي بها إلى أن يأتي الوقت المناسب لعرضها على أصحاب الشأن.

فسألت جين:

– وماذا تعتقدين فيما سيعود علي من هذه الوثائق يا سيدتي؟

– معاش لك. وترقية لزوجك إذا ثبت أنه أهل لها..

– إن زوجي رجل محترم يا سيدتي. وهو من أولئك الذين لا يقصرون في واجباتهم على الإطلاق.

فقالت كبرى الزائرتين، وهي تجذب القناع فوق وجهها:

– إن في هذا الكفاية يا سيدتي

ثم وضعت يدها في جيبها وأخرجت منه المنديل الذي مر ذكره ورزمة صغيرة وضعتهما على مكتب جين وهي تقول:

– إن أمين صندوق الجمعية الخيرية التي أنتمي إليها انتدبني لأقدم إليك هذه المعونة الضئيلة يا سيدتي، على أني آمل أن تتاح لنا فرصة أخرى لنقدم إليك معونة مناسبة.فألقت مدام دي لاموت نظرة سريعة على الرزمة. فاعتقدت أنها لا تحوي أكثر من مائة فرنك.. وهي نجدة من السماء ولا شك لمن كانت في مثل فاقتها.

واتجهت الزائرتان نحو الباب في خطى سريعة قبل أن تستطيع جين مرافقتهما. فأسرعت كلوتيد تقودهما إلى الباب وهي تحمل أحد الشمعدانين.

أما جين فقد وقفت ذاهلة لا تدري ماذا تصنع، ثم أسرعت ناحية المنضدة لتفتح الرزمة وترى محتوياتها. ولكن قدمها إصطدمت بشيء صغير. فإنحنت إلى الأرض

تبحث عن ذلك الشيء وعندئذ وقع بصرها على صندوق صغير من الذهب الخالص.

وإستطاعت بعد مجهود أن تفتح هذا الصندوق. وعندئذ وقع بصرها على صورة تشبه إلى حد كبير كبرى زائرتيها وقد نقش في أسفلها حرفاً «م. ت»

أسرعت مدام دي لاموت نحو الباب وهي تأمل أن تلحق بالزائرتين لتعيد إليهما الصندوق، ولكنها سمعت كلوتيد وهي تودعهما وتغلق الباب فعادت إلى النافذة لتناديهما ولكنها رأتهما تصعدان إلى مركبة كانت في انتظارها وتنطلق بهما في الحال.

لم تجد مناصاً من إستبقاء الصندوق في حوزتها ريثما تتاح لها فرصة إعادته إلى صاحبته.

وعادت إلى الرزمة وفتحتها، وعندئذ جمدت في مكانها.كانت تحوي مائة لويس أي ألفين وأربعمائة فريك!

غمغمت قائلة: لا شك أن هاتين المرأتين من الأغنياء. لسوف أبحث عنهما وأجدهما ثانية.

الفصل الخامس

المأزق

عندما غادرت المرأتان منزل جين دي لاموت . وجدتا وبر في إنتظارهما بالعربة التي أمرت كبرى المرأتين بإحضارها، وكانت العربة من ذلك النوع الأنيق ذي العجلات المرتفعة، ولها مقعد من الخلف أعد لجلوس السائق.

قال السائق:

– لقد كنت عازماً على إحضار الجواد سيبيو يا سيدتي، لأنه أسلس قياداً ولكنه جرح أمس لسوء الحظ فاضطررت إلى إحضار بلوس العنيد.

فقالت كبرى المرأتين:

– وليكن يا وبر.. إطمئن فإنني لا أهابه..

– إنني أدرك ذلك تماماً يا سيدتي، ولكن الطرق رديئة جداً.. أين نحن ذاهبون الآن؟

– إلى فرساي.

– عن طريق شاطئ النهر يا سيدتي؟

– كلا يا وبر.. فإن البرد قارص والسير إلى جانب النهر يعرض الإنسان لزمهرير مؤلم. أرى أن تخترق الشوارع العادية.

وصعدت المرأتان إلى المركبة.. على حين قفز وبر إلى مقعده الخلفي وفيما كانت المركبة منطلقة بهما.. قالت كبرى المرأتين:

– ما رأيك في الكونتس يا أندريه؟

فأجابت أندريه:

– أعتقد إنها فقيرة وسيئة الحظ يا سيدتي.

– ولكنها بالرغم من ذلك لا تزال تحتفظ بخلق نبيل.. أليس كذلك؟

– أجل.. بلا شك..

– يخيل إليّ أنك تشعرين بالنفور منها؟

– أعترف أنني لاحظت عليها إمارات الدهاء، وأنا لا أميل إلى هذا الطراز من النساء.

– يالك من قاسية، إن من الصعب إرضاءك يا أندريه.. فلكي يحوز إنسان رضاك يجب أن يتمتع بجميع الصفات الطيبة.. الحق أنني أشعر بالعطف عليها.

فقالت أندريه: ولعل ذلك من حسن حظها.

ومضت فترة صمت.. وقد جذبت كبرى المرأتين عنان الجواد في عنف وأوشك الجواد أن يدهم أحد الحمالين، عندما إنحدر بالمركبة في شارع سان أنطوان.. ولولا حذق السائقة لحلت الكارثة، ولكن المرأة لم تشأ الوقوف بعد أن وثقت من أن الحمال لم يصب بسوء فإندفعت بالمركب إلى الأمام في سرعة مخيفة .. بيد أن المرأتين لاحظتا أن الجماهير التي كانت تملأ الشوارع والطرقات كانت تقابل ظهور المركبة بالصياح الدال على الاستياء.

ولما وصلت المركبة إلى ساحة فندق رويال إضطرت المرأة أن تخفف من سرعة المركبة فقد كانت الساحة مزدحمة بالجماهير التي قدمت طمعاً في تناول الحساء الساخن الذي تبرع به دوق أورليان للعامة.

وأخيراً اضطرت المرأة أن توقف المركبة تماماً، فقد تألب عليها الرعاع وهم يصيحون «ليسقط ركاب المركبة.! ليسقط أولئك الذين يسحقون الفقراء.!»

وسألت كبرى المرأتين رفيقتها:

– هل نحن المقصودون بذلك؟

– أجل يا سيدتي..!

– ولماذا؟ هل قتلنا أحد؟

– كلا يا سيدتي.. إنني متأكدة من ذلك..

وفي هذه اللحظة كان نفر كبير من الرعاع قد تجمع حول العربة، حتى تعذر على المرأتين أن يتقدما في طريقهما، فنظرنا إلى بعضهما في ذعر وأطل أحد الرعاع برأسه داخل العربة.. ثم قال: يالله! إنهما امرأتان! لابد أنهما من بنات الأوبرا اللائي يعتقدن أن من حقهن أن يسحقن الفقراء لأنهن يتناولن مرتباً قدره ألف فرنك في الشهر.!

وللمرة الثانية ارتفعت صيحات المتجمعين تشق عنان السماء: «إلى القاضي. إلى القاضي» ، فانكمشت صغرى المرأتين في مكانها وقد تولاها الذعر، وقالت:

- بحق السماء احذري لنفسك يا سيدتي؟

فأجابتها رفيقتها: تشجعي يا أندريه.. تشجعي!

– ولكن لابد أن يعرفوك يا سيدتي..

– إذن أنظري من النافذة الخلفية، وأخبريني هل مازال «وبر» في مقعده؟

– إنه يحاول النزول من المركبة يا سيدتي، ولكن الرعاع يحيطون به.. آه.. هو ذا قد قدم!

ولما أقبل الخادم قالت له كبرى المرأتين بالألمانية:

– إننا سنغادر المركبة يا وبر!

وأفسح السائق لهما طريقاً.. فهبطت المرأتان إلى الأرض، وعندئذ انقض الرعاع على الجواد والعربية محاولين تحطيمهما.. فقالت المرأة بالألمانية:

– ما معنى ذلك يا وبر؟

فأجاب السائق وهو يحاول إفساح الطريق لسيدته:

– لا أدري يا سيدتي!!

فاستطردت المرأة قائلة:

– إنهم ليسوا برجال، بل وحوش، إذ ما الذي يدفعهم إلى مثل تلك الفعلة المنكرة؟

وسمعت المرأة صوتاً عذباً يجيبها من وسط الرعاع بالألمانية الفصحى:

– لقد إنقض الرعاع على مركبتك يا سيدتي لأن مدير البوليس أصدر أمراً بتحريم سير المركبات في الشوارع، لأنها تعرض الأهلين للموت، ومن خالف ذلك عرض نفسه للعقاب.

كان المتكلم شاباً وسيم الطلعة يرتدي ملابس الضباط.

فسألت المرأة:

– إنني لم أسمع عن هذا الأمر يا سيدي بعد.. ولكن ما العمل الآن..

– أتركي لهم المركبة يحطمونها، وانتهزي الفرصة وأهربي وإلا امتدت أيديهم إليك.

– وكيف السبيل إلى ذلك وهم يحيطون بنا يا سيدي؟

– إنتظري يا سيدتي لحظة واحدة.

وتقدم الشاب من الجواد. ولكزه بإصبعه في بطنه. فتراجع الجواد إلى الخلف وهو يصهل. وعندئذ اضطر الرعاع إلى التقهقر.

قال الضابط:

– أسرعا يا سيدتي أسرعا قبل أن يتألب العامة عليكما ثانية.

وإقتادهما الشاب وراح يخترق بهما الجموع الزاخرة. وبعد بضع دقائق كانوا قد إبتعدوا عن جموع العامة في طريقهم إلى أحد مواقف المركبات.

الفصل السادس

الطريق إلى فرساي

كان الضابط الشاب يدرك أن المرأتين لم تنجوا من الخطر تماماً، ولذلك أسرع يوقظ حوذيا كان نائماً داخل إحدى المركبات.فلما أفاق الحوذي من نومه، إلتفت الضابط الى المرأتين وسأل:

– إلى أين تريدان الذهاب يا سيدتي؟

فقالت كبرى المرأتين بالألمانية: إلى فرساي.

فسأل الحوذي: وكم ستدفعون؟

– لويسا واحداً.

– حسناً. أعطني اللويس قبل الرحيل؟

فوضعت كبرى المرأتين يدها في جيبها تبحث عن كيس نقودها، ولكنها لم تلبث أن إلتفتت إلى رفيقتها وقد إمتقع وجهها، وقالت:

– لقد فقدت نقودي يا أندريه.. فهل لك في إعطاء الحوذي ما يطلب؟

ومدت أندريه يدها في جيبها، ولكن لم تلبث هي الأخرى أن إلتفتت إلى رفيقتها وقد بدا الذعر في عينيها.. وقالت:

– وأنا أيضاً فقدت كيس نقودي يا سيدتي.

كان الضابط يرقبهما في دهشة. أما الحوذي فقد شعر بالارتياح؛ لأنه احتاط للأمر. وكادت كبرى المرأتين أن تخلع سلسلتها لتقدمها للحوذي كرهينة حين أسرع الضابط الشاب، ونقد الحوذي أجره.

ولما أخذت المرأتان مكانهما داخل العربة، هم الضابط بالإنصراف بعد أن أحنى قامته لهما إحتراماً، ولكن أندريه أسرعت تقول:

– معذرة يا سيدي، ولكن هل تسمح بأن ترافقنا في رحلتنا فإننا نخشى أن يتوقف الحوذي في الطريق؟

أجاب الضابط وهو يحني قامته إحتراما:

– لقد احتطت للأمر يا سيدتي. وأخذت رقم الحوذي. فإذا حدث منه ما يوجب معاقبته فأرجو أن تبلغاني الأمر.

فقالت أندريه بالفرنسية:

– نبلغك؟ ولكننا لا نعرف حتى إسمك يا سيدي!

فقال الضابط:

– إذن فأنتما تتكلمان الفرنسية. ومع ذلك فقد خدعتماني طيلة الوقت..

فأجابت كبرى المرأتين:

– معذرة يا سيدي. الواقع إننا فرنسيتان ولكننا غريبتان عن باريس. إننا في مركز دقيق وها نحن نسألك المعونة فهل أنت على استعداد لأن تقدمها لنا؟

فقفز الضابط إلى المركبة وجلس قبالة المرأتين وهو يقول:

– سيدتي. إنني تحت تصرفكما.

– شكرا لك يا سيدي.

وإنطلقت المركبة على الفور في طريقها إلى فرساي.وساد الصمت بينهم. وانصرف الضابط إلى التفكير في المرأتين الغريبتين كان واثقاً مما يبدو عليهما أنهما تنتميان إلى الطبقة الراقية.وفجأة قالت كبراهما لرفيقتها بالإنجليزية:

– يا الله! يخيل إلي أن العربية لا تتحرك أبداً، لا بد أن رفيقنا قد تملكه السأم يا

أندريه!

فابتسمت أندريه، وأجابت:

– هذا لا شك فيه يا سيدتي

– ألا تعتقدين أنه شاب ظريف؟

– بكل تأكيد يا سيدتي.

– أضيفي إلى ذلك أنه يرتدي بذلة الضباط البحريين، وهؤلاء يختارون من بين أبناء الأسر الكريمة على ما أعلم.

–كم هو جميل!

وهنا لم يتمالك الضابط من مقاطعتهما. فقال بالإنجليزية:

– معذرة يا سيدتي فانا أعرف الإنجليزية جيداً.

تخضبت وجنتا المرأتين بحمرة الخجل.. وأسرعت كبراهما تقول ضاحكة:

– معذرة يا سيدي. ولكننا لا نذكرك بسوء، على أني أعدك بألا نتحدث إلا بالفرنسية بقية الرحلة.

وساد الصمت بينهم مرة أخرى ، ولكن لم تلبث أندريه أن قالت:

– يالله يا سيدتي.. لقد تأخرنا كثيراً.. ترى ماذا سيقولون الآن؟

وأخيراً وقفت المركبة.. وصاح الحوذي:

–لقد وصلنا إلى فرساي يا سيدي

فقال الضابط: وأين تريدان الذهاب يا سيدتي؟

فقالت أندريه: إلى ساحة القصر الملكي.

ولما وصلت المركبة إلى ساحة القصر. فتح الضابط الباب للمرأتين فهبطتا من

ثم تحولت إليه كبرى المرأتين.. وقالت:

– إنك رجل نبيل يا سيدي.. ونحن نشكرك على ما قدمت إلينا من معونة.. وأرجو أن تذكر لنا إسمك حتى نرد إليك ما أقرضتنا.

فقاطعها الضابط.. وقد أحمر وجهه:

– إنك تهينني يا سيدتي

– إذن فلنشكرك على الأقل. ولكن.. من أنت يا سيدي؟

– إنني الكونت دي شاربي يا سيدتي.. من ضباط البحرية

– وأين تقيم يا سيدي؟

– في فندق الأمراء..

فقالت المرأة ضارعة: –إننا نكرر لك الشكر.. ولكني أتوسل إليك ألا تتبعنا يا سيدي

– محال يا سيدتي.. فليس في استطاعتكما السير في هذا الظلام

– إننا قريبتان من الفندق ونعرف الطريق إليه جيداً.. وكل ما نطلبه إليك ألا تتبعنا.

أسقط في يد الشاب. فأغلق باب المركبة وأمر الحوذي بالعودة إلى باريس بعد أن استلقى فوق المقعد الذي كانت تشغله المرأتان من قبل.

الفصل السابع

لوران

لبثت المرأتان واقفتين في مكانهما حتى غابت المركبة عن أنظارهما. ودقت ساعة كنيسة (ساي لوي) وقتئذ، فصاحتا في ذعر:

– يالله.. إن الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً!

وقالت أندريه: لقد أغلقوا كل الأبواب!

فقالت رفيقتها: لا تجزعي يا أندريه، ودعينا نحاول الدخول من الباب الجانبي؟

ولكنهما سرعان ما إكتشفتا أن الباب الجانبي مغلق أيضاً

قالت كبرى المرأتين: لنناد لوران لعله يفتح لنا؟

بيد أنهما سمعا صوتاً خشناً، يجيب على ندائهما بقوله:

– لا يوجد لوران هنا.

فقالت أندريه: إذن فلتفتح لنا الباب أنت؟

– هذا محال، فقد صدرت إلى الأوامر المشددة بعدم فتح الباب لكائن من كان.

فقالت كبرى المرأتين:

– سأدفع لك عشرين لويسا وأعدك بالترقية؟

فأجاب الحارس:

– عبثاً تحاولين إغرائي، فقد صدرت الأوامر من جلالة الملك نفسه بغلق جميع الأبواب وعدم السماح لأي شخص بالدخول بعد الساعة الحادية عشرة.

شهقت كبرى المرأتين في يأس.. وهتفت:

– لقد هلكنا.. إذن فقد استطاع أعدائي تدبير هذه المكيدة للقضاء على!

وعادت المرأتان الى الساحة، وتهالكتا هنالك فوق مقعد حجري وقد بلغ منهما اليأس والذعر كل مبلغ!

وإنهما لكذلك إذ بشخص يرتدي معطفاً من الفرو السميك يظهر فجأة، وراح يغني في جذل.

صاحت أندريه: شكراً لله.. شكراً لله.. لقد أنقذتنا العناية الإلهية!

وكان القادم قد اقترب منهما. حتى لقد سمع كبرى المرأتين وهي تقول لرفيقها في إبتهاج:

– يالله. إنه الكونت دارتوا.

فصاح الشاب وهو يرفع قبعته في إحترام:

– الملكة!

– صه.. هل لك أن تعاوني أنا ومدموازيل أندريه دي تافريي على دخول القصر؟ فقد رفض الحارس أن يفتح الباب قائلاً إن جلالة الملك أصدر أوامره المشددة بذلك.

صفر الكونت بشفتيه، وقال:

– إذن فلأحاول أنا، وعندما يفتح الباب تسللا في هدوء إلى الداخل.

وللمرة الثانية حاول الكونت أن يغري الحارس بفتح الباب. بالتهديد تارة وباللين تارة أخرى. ولكن الحارس رفض في شدة وإصرار.وعندئذ لم يجد الكونت بداً من إحداث ضوضاء ترغم الحارس على مناداة رئيسه أملاً منه في حمل ضابط الحرس على فتح الباب.ولما جاء الضابط.. حاول الكونت عبثاً حمله على فتح الباب

قال الضابط:

– يؤسفني أن أقرر أن جلالة الملاك أمر بألا تفتح الأبواب لأحد حتى ولو كانت جلالة الملكة نفسها!

غمغمت الملكة: لقد هلكت!

فسأل الكونت: هل يعرفون إنك بالخارج؟

– هذا مالا علم لي به

– من المحتمل أن أكون أنا المقصود بهذا الأمر، فإن جلالة الملك يعرف عني إنني أظل بالخارج إلى ساعة متأخرة من الليل. ولابد أن الكونتس دارتوا قد شكت إليه بعض ما بلغها عن سلوكي ومن ثم أصدر جلالته هذا الأمر.

فقالت الملكة:

–لا أظن ذلك يا سيدي.. فأنا أعتقد أن هذا الأمر موجه ضدي؟

– محال يا مولاتي: فإن جلالته يحترمك كل الإحترام.

– ومع ذلك فقد تعمد أن يستبقيني بالخارج الليلة. كي يفضحني غداً.. لكنني أعلم أن لي عدواً مقرباً من الملك.

– هذا محتمل.

وكف عن الكلام فجأة. ثم عاد يقول:

_ لقد أدركت كل شيء فقد كنا نتناول طعام العشاء مع الكونت هاجا الليلة. وبعد أن فرغنا منه إنفرد الملك بالكونت وراحا يتباحثان في الشئون الجغرافية.وفجأة إقترب الكونت دي بروفنس من الملك. وأسر إليه شيئاً.فاستأذن الملك من ضيفه وقصدإ الى مخدعك. ولكن مدام دي ميزري إستطاعت بلباقة أن ترده عنه بحجة أنك متوعكة.

فقالت الملكة: لابد أن الكونت بروفنس قد أخبر زوجي بخروجي من القصر وإستثاره ضدي.

واستطرد الكونت قائلاً:

– لم تعد ثمة فائدة من البقاء. فهيا بنا إلى منزلي وهو قريب من هنا.

وبعد لحظات قلائل وقف الجميع أمام منزل صغير، ومد الكونت يده فدفع باب الحديقة. ثم قاد زائرتيه إلى الداخل وذهب بهما إلى غرفة جلوس أنيقة قد فرشت بأثمن الرياش.

وقال: يجب أن تقضيا ليلتكما في هذه الغرفة، ولما كانت أبواب القلعة تفتح في الساعة السادسة فأرى أن تغادرا المكان قبل ذلك الموعد بربع ساعة حتى يمكنكما أن تتسللا إلى القصر خفية ثم تقصدا إلى مخدعيكما قبل أن يتنبه لغيابكما أحد من أهل القصر.

– وكيف يمكننا الخروج من هنا؟

– كما دخلنا. وفي إستطاعتك أن تدقي الجرس مرة واحدة فلا يجرؤ الخدم على الظهور وعندئذ يمكنكما الإنصراف في أمان.

– والآن طابت ليلتكما.

ثم أحنى قامته إحتراماً. وغادر الغرفة.

الفصل الثامن

مخدع الملكة

وفي الصباح توجه الملك لويس السادس عشر إلى مخدع الملكة وهو بادي الإضطراب. وفتحت له الباب إحدى الوصيفات.

بادرها قائلاً في حدة:

– أريد مقابلة الملكة.

– إن جلالتها نائمة يا مولاي

وأصر الملك يريد الدخول ولكن المرأة ظلت واقفة في مكانها دون أن تتحرك، فاستشاط الملك غضباً وصاح: تنحي عن طريقي ، فأذعنت المرأة، ودخل الملك جناح الملكة، ولما وصل إلى مخدعها إلتقي بمدام دي ميزري، وكانت تقرأ كتاباً.

ونهضت المرأة واقفة. وقالت في صوت خافت:

– مولاي.. إن الساعة الآن السادسة والنصف. وجلالتها لا تطلبني قبل الساعة السابعة

– وهل أنت واثقة أن جلالتها نائمة في مخدعها؟

– إنني أستطيع أن أؤكد أن جلالتها في فراشها يا مولاي

لم ينتظر الملك أكثر من ذلك فترك المرأة وقصد الى المخدع.. ثم دخل.. كانت الستائر مسدلة. والغرفة مظلمة إلا من ضوء خافت ينبعث من مصباح صغير ، فسمع الملك صوتاً يقول:

– ما هذا يا مدام دي ميزري.. لقد أزعجتني..

جمد الملك في مكانه. وقال:

– إنها ليست مدام دي ميزري القادمة..

فقالت ماري أنطوانيت وهي تستوي جالسة في فراشها:

– أهذا أنت يا مولاي؟!

– طاب صباحك يا سيدتي.

فقالت الملكة:

– أية ريح طيبة أرسلتك يا مولاي..

ونادت وصيفتها وأمرتها بفتح النوافذ.. أما الملك فقد تهالك فوق أحد المقاعد.. وقال:

– لماذا رفضت إستقبال الزائرين أمس؟

فقالت الملكة:

– أتعني مسيو دي بروفنس يا مولاي؟

– أجل لقد أراد أن يحظى بمقابلتك فأخبروه أنك بالخارج.

فقطبت الملكة حاجبيها ، نادت وصيفتها وسألتها إن كانت حقاً أخبرت الكونت دي بروفنس إنها بالخارج. ولما أجابتها الوصيفة بالنفي. سألها الملك عن السبب في أنها رفضت أن تقدمه إلى سيدتها فأجابت الوصيفة بأنها فعلت ذلك بناء على أمر مولاتها..

وكانت ماري أنطوانيت قد بدأت تفض رسائل الصباح، ولكنها لم تكد تفتح أول رسالة حتى وقع بصرها على هذه الكلمات:

«لقد عدت أمس من باريس ودخلت إلى القصر في الساعة الثامنة وقد رآك لوران..»

وغادرت مدام دي ميزري المخدع. وعندئذ التفتت الملكة إلى زوجها.. وقالت:

– مولاي.. أليس لي الحق في رفض مقابلة دي بروفنس؟

– أجل.. أجل.. ولكن.

– حسناً.. إنني أضيق ذرعاً بحديثه.. وأكره مقابلته.. كنت أتوقع زيارته بالأمس، فآويت إلى مخدعي في الساعة الثامنة كي أتحاشى مقابلته.. يالله. يخيل إلى أنك منزعج يا مولاي.؟

فقال الملك: كنت أعتقد أنك ذهبت إلى باريس أمس!

– ومتى كان ذلك؟

– في الوقت الذي تدعين إنك آويت فيه إلى تخدعك

فنادت الملكة وصيفتها، وسألتها عن الوقت الذي عادت فيه.

فأجابت الوصيفة:

– حوالي الساعة الثامنة مساء يا مولاتي.

فقال الملك: إنني لا أصدق ذلك.. لابد أنك أخطأت يا مدام دي ميزري!

فدعت الوصيفة مدام دورال، فلما أقبلت المرأة وسئلت عن الوقت الذي عادت فيه جلالة الملكة أمس أجابت:

– حوالي الساعة الثامنة يا مولاتي!

فقالت الوصيفة:

– إن جلالة الملك يعتقد إننا مخطئتان!

فأطلت مدام دورال من النافذة ونادت لوران، فلما أقبل سألته الملكة عن الوقت الذي فتح لها فيه الباب مساء أمس،

فأجاب:

– حوالي الساعة الثامنة مساء يا مولاي..

ولما غادر الجميع الغرفة، أطرق الملك برأسه إلى الأرض وقد بدا عليه الخجل.. ثم مد يده وتناول يد زوجته في لطف ورفعها إلى شفتيه وقبلها في إحترام.

وكان موقف اعتذار من الملك سردت بعده الملكة ما اتفق لها في رحلة الأمس، وكيف أنها زارت (جين دي لاموت فالوا) المرأة التي تنحدر من السلالة الملكية، والتي صارت إلى حالة من الجوع والفاقة مؤلمة، وختمت حديثها بمطالبة الملك بإجراء معاش دائم للمرأة التعسة، وترقية زوجها.

فهز الملك رأسه نفياً، وأجاب:

– من العبث أن تطالبيني بشيء كهذا فقد أوشكت على الإفلاس.

ولكن إطمئني فسوف أساعدها ما أمكن المساعدة.

قالت الملكة: يبدو أنك كنت ناقماً علي يا مولاي عندما قدمت لرؤياي؟

أجاب:

– كلا.. والدليل على ذلك إنني أحمل لك هدية.

فلمعت عينا الملكة، وإنفرجت أسارير وجهها، وأسرع لويس السادس عشر يبحث في جيوبه. ثم أخرج صندوقاً من الجلد الثمين المحلي بالذهب.

صاحت الملكة: مجوهرات!!

ووضع الملك الصندوق فوق الفراش. وهو يقول:

– إفتحي الصندوق وأنظري ما فيه.

ومدت الملكة يدها. وفتحت الصندوق، ولم تلبث أن صاحت في سرور:

– عقد من اللآلئ؟!

قال الملك:

– هل أنت راضية عني الآن؟

– إنني عاجزة عن شكرك يا مولاي. فأنت أبداً تحبوني بعطفك أنظر إلى الصف الأمامي.. إن كل حبة من حباته في حجم البندقة.. الواقع أنه دقيق الصنع.

ثم نهض لويس واقفاً وهو يحمل العقد في يده. وتهيأ لوضعه حول عنق زوجته ولكنها ردته قائلة:

– كلا يا مولاي. من الأفضل ألا ترتدي ملكة فرنسا عقداً يساوي الألوف من الجنيهات، بينما يتضور شعبها جوعاً.

– هل أنت جادة فيما تقولين؟

– أجل يا مولاي.. فأنا لا أريد أن أرهق جلالتكم بمطالبي. ولكن لي أمنية أرجو ألا تخيبها.

– وما هي؟

– أن أذهب إلى باريس مرة أخرى لمقابلة مسيو دي مسمر، بقصر فندوم.

فصاح الملك:

– يا للشيطان.. ما دمت قد رفضت قبول العقد. أرى أن أسمح لك بالذهاب.. ولكن بشرط أن يرافقك أحد أفراد الأسرة المالكة.

– إذن فسآخذ معي مدام دي لامبال.

– حسناً.. ليكن ذلك.

– شكراً لك يا مولاي.

وقال الملك:

– ما دمت لا ترغبين في الحصول على العقد. فسآمر بإنشاء سفينة أدعوها عقد الملكة. وسأجعلك عرابتها.

قال هذا. وإحتضن زوجته ثم قبلها.وغادر الغرفة وهو يشعر بغبطة شديدة.

الفصل التاسع

اللقاء

وما إن غادر الملك خدع زوجته، حتى قفزت ماري أنطوانيت من فراشها، وذهبت إلى النافذة فأطلت منها.كان الصباح جميلاً يبشر بإقتراب الربيع. وبانقضاء فترة البرد القارس التي ضرت بفرنسا. والتفتت الملكة إلى وصيفتها مدام دي ميزري، وقالت: يخيل أن الربيع قد بدأ يتنفس، ولما كنت أريد القيام برحلة إلى البحيرات السويسرية، فإنني أرى أن أنتهز الفرصة بالإسراع قبل أن تذوب الثلوج ، ثم أمرتها بإستدعاء أندريه دي تافرني، فلما أقبلت الفتاة قابلتها الملكة بإبتسامة لطيفة.. وقالت:

– لقد كان الملك لطيفاً معي يا أندريه.

فسألت الفتاة:

– وهل عرف جلالته بما حدث أمس.؟

– إن ملكة فرنسا لا تكذب مادامت لم تفعل ما تؤاخذ عليه يا أندريه!

وأمسكت لحظة.. ثم استطردت:

– إن جلالته رفض أن يساعد مدام (دي لاموت) قائلاً إنه لا يميل إليها.

ونظرت إلى صديقتها نظرة معناها «إنه يشاطرك الرأي»

وهزت الملكة كتفيها، ثم سألت:

– هل وصل أخوك فيليب؟

– أجل يا مولاتي.. لقد وصل أمس.

– وكيف حاله؟ مسكين فيليب.. لقد إنقضت أربع عشرة سنة على مقابلتنا الأولى، بيد أنني لم أره منذ تسعة أو عشرة أعوام.. فكيف حاله الآن..

فأجابت الفتاة:

– على خير حال.. وإذا شاءت مولاتي دعوته ليعبر لها عن عظيم التقدير والولاء.

– كم أود أن أراه في الحال.

فغادرت الفتاة الغرفة لتدعوه وانصرفت الملكة إلى التطلع من النافذة ولكنها لم تلبث أن سمعت صوت الكونت دارتوا وهو يقول ضاحكاً:

– طاب صباحك يا مولاتي. كيف قضيت ليلة الأمس؟

– على أسوأ حال أيها الأمير

– وصباح اليوم؟

– على خير حال.

– هذا هو المهم.. لقد توقعت أن يكون كل شيء على ما يرام فقد قابلت جلالة الملك اليوم، ولقيته منشرح الصدر.

فتبسمت الملكة ضاحكة. وشاطرها الأمير الضحك.

وفجأة فتح الباب ودلفت منه أندريه يتبعها شاب في الثانية والثلاثين من عمره. أسمر البشرة. أسود العينين. أنيق الهندام.

قالت أندريه:

– يسرني أن أقدم لك أخي يا مولاتي

أحنى فيليب قامته في إحترام. فنظرت إليه الملكة نظرة ساحرة جعلت الدم

يغيض من وجنتيه

قالت: – إنني أشكرك على قدومك لزيارتي أولاً يا مسيو تافرني.

– بل هو أنا الذي يجب عليه شكر جلالتك لتعطفك وتنازلك برؤيتي يا مولاتي.

– لقد مضت أعوام طويلة على لقائنا الأخير يا سيدي. واحسرتاه! لقد كانت أجمل ما مر بي من أيام.

فقال الشاب. وقد إندفع الدم إلى وجنتيه حاراً:

– مولاتي.. إنه لشرف عظيم.

فقاطعته الملكة مستطردة:

– وكنت وقتئذ مغرماً بأمريكا يا مسيو تافرني، فسافرت ولبثت هناك طيلة تلك المدة.

فأجاب الشاب:

– مولاتي.. عندما غادر مسيو دي لافاييت العالم الجديد كان بحاجة إلى أحد الضباط ليعهد إليه بحماية الرعايا الفرنسيين هناك، ولم يجد غيري جديراً بهذه المهمة. وقد كان..

– يخيل إلي أن العالم الجديد يرسل إلينا أبطالاً صناديد!

افإبتسم الشاب.. وتحولت الملكة إلى الكونت دارتوا. وقالت:

–أليس له منظر الأبطال حقاً يا كونت؟

فأحنى فيليب قامته للكونت.. الذي انحنى له بدوره. وقال:

– يسرني أن أصادق بطلاً مثلك يا مسيو فيليب.

وقالت الملكة:

– إنني أريدك أن تأخذ مسيو تافرني تحت رعايتك يا كونت.

فأحنى الكونت قامته. وقال:

– لي الشرف العظيم يا مولاتي.

وتحولت الملكة إلى فيليب وقالت:

– لا أخالك تجهل ما يدفعني إلى الاهتمام بك.. ذلك لأنك أديت واجبك للوطن على خير وجه، ولكنك مجهول في باريس.

وهنا استأذن (دارتوا) من الملكة.. وغادر الغرفة بعد أن حيا الجميع. ونادت الملكة وصيفتها وطلبت إليها إصدار الأمر إلى (وبر) لإعداد الزحافات حيث قررت الذهاب إلى البحيرات السويسرية.وبعد لحظات غادرت الملكة مخدعها تتبعها أندريه وأخوها.

قالت الملكة تخاطب الشاب:

– سر على يميني.. ومنذ اللحظة.. كن أتبع إلي من ظلي.. فلا تفارقني.

وهبط الجميع الدرج.. وكانت طبول الحرس الملكي نقرع في تلك اللحظة تحية للملكة الحسناء.. فشعر فيليب بالحماسة تدب في جسده لأول مرة وهو الذي قضى السنوات الطوال فيما يشبه الخمول.

الفصل العاشر

البحيرة السويسرية

كانت جمهرة كبيرة من طلاب اللهو واللعب يتزحلقون فوق الثلوج عند البحيرة السويسرية.وفيما كان الجميع منهمكين في لهوهم إذ أقبلت ماري أنطوانيت تتهادى في مشيتها وقد أتشحت بمعطف من الفراء السميك إتقاء البرد.وسرعان ما سرى بين الحاضرين خبر قدومها فتحولت إليها الأنظار.. وإرتفعت لها الأصوات بالهتاف.. وأحاطوا بها وكل منهم يبغي إلقاء نظرة على تلك المرأة الساحرة.

بيد أن شخصاً واحداً لم يشاطر الحاضرين إعجابهم بالملكة. فلم يلبث أن انسحب من الميدان مع أتباعه.ولاحظ الكونت دارتوا ذلك. فإنتهز فرصة إنفراد الملكة، وإقترب منها. ثم قال:

– لقد هرب أخي بروفنس عندما رآك

– لعله كان يخشى لومي؟

–كلا.. لقد أراد أن يخفي عنك خبر عودة القائد دي سوفرن الليلة.

– ولكن. هل تعتقد أن وزير البحرية يجهل عودة القائد أيضاً حتى لا يطلعني على أمرها في الوقت الملائم؟

وكأنما ضاقت الملكة ذرعاً بحديث الكونت فصرفته في رفق، بعد أن علمت منه بأمر الحفلة التي سيقيمها الملك لمسيو سوفرن في ذلك المساء، وتواعدا على اللقاء فيها، ودعت الملكة فيليب ليقود لها زحافتها، وقام الشاب بحركات تدل على البراعة والجرأة.

فأعجبت به ولكنها شعرت بالخوف يدب في قلبها. عندما رأته يدور بالزحافة في دورات سريعة خطيرة.

فقالت: أرجوك يا مسيو تافرني أن تقف وإلا قتلتني.

الفصل الحادي عشر

إغراء!

وفي حركة سريعة تدل على البراعة. أوقف فيليب الزحافة وهبطت منها الملكة، وهي ترتجف.كانت تترنح من فرط ما نالها من ذعر. فأسرعت تستند بيدها على ذراع الشاب. غير أنها لاحظت أن الواقفين بدأوا يتهامسون ويتغامزون فجذبت يدها، وطلبت مقعداً جلست عليه. وهي تقول:

– شكرا لك يا مسيو تافرني..

وهمست: يا الله. كم هو بغيض أن يدور الجواسيس بالمرء أينما ذهب وأطرق الشاب برأسه إلى الأرض.

والتف الجميع بالملكة وهم يرمقونها في نظرات تدل على الإعجاب ، وبعد دقائق قالت الملكة:

– أخشى أن يصيبني البرد لو أني جلست دون حركه بودي أن أقوم بدورة أخرى.

ونهضت واقفة.. وإرتقت الزحافة. ووقف فيليب وهو يتوقع أن تدعوه.. ولكن الزحافة تحركت.. وهو لا يزال في مكانه ينتظر دعوتها. وأحس فيليب بيد توضع على كتفه، فدار على عقبيه.. فإذا به وجها لوجه أمام أبيه.

لم يكن الشاب قد رأى أباه منذ عشر سنوات.. كذلك لم يره منذ عودته.. فكان بينهما عناق طويل حار.. أفرغ الأب فيه كل حنانه وعطفه على ولده. ثم قال:

– والآن إذهب والحق بالملكة فهي تنتظرك.

– كلا.. شكراً لك يا أبتاه.. فما أظنها حاجة إلي.

– كلا.؟ أمجنون أنت!؟ أنظر.. لقد تلفتت خلفها ثلاث مرات.. وها هي تتلفت ثانية!

– لابد أنك تهزأ بي يا أبتاه.

فقبض تافرني العجوز على ذراع إبنه بقوة. وقال:

– أصغ إلى يا بني.. إن أمريكا غير فرنسا؛ فليس في أمريكا ملك ولا ملكة. أما في فرنسا فللملكة عشاق تقربهم منها، وترفعهم إلى أسمى المراكز.. وأن أحداً لا يجهل علاقة الملكة بمسيو دي كولوني ومسيو دي لوزون ومسيو دي فدريول.

فصاح الشاب:

– صه يا أبتاه.!

وصرف العجوز بأسنانه غضباً.. وغاله جمود الشاب.. هتف:

– لا شك أنك مجنون يا بني

سأل الشاب في لهفة:

– هل أنت واثق أن للملكة عشاقاً يا أبتاه؟

– كل الوثوق، وإذا شئت أن تتأكد من صدق قولي، فسل رجال البلاط يخبروك بما غاب عنك.أنظر.. أن الملكة ما زالت تتلفت خلفها. فلا شك أنها تبحث عنك.. هيا أسرع!

– صه يا أبت. وإلا أصابني الجنون.

– ما هذا يا بني.؟ وهل الحب جريمة في اعتقادك؟ أنه على الأقل يدل على أن لصاحبه قلباً حساساً يخفق بين ضلوعه.. ألا تستطيع أن تقرأ المعاني التي تنطق بها عينا

تلك المرأة ؟ إنها تحب. أو أنها على على وشك الحب. ولكن ترى من تحب؟ إنها تحب فيلسوفاً راهباً. وغرا أمريكيا إنك لا تحبها.. فدعها إذن تنتظر وتتلفت خلفها .. واحتقرها إذا شئت..

ودار الأب على عقبيه.. ومضى في سبيله. وهو مرتاح إلى الأثر الذي تركه في نفس إبنه.

أما فيليب فقد جمد في مكانه وشعر بقلبه ينبض بشدة وبالدم يجري في عروقه حاراً ، وظل واقفاً في مكانه زهاء النصف ساعة. حتى أتمت الملكة جولتها وعادت بالتالي..

قالت:

– لا بد أنك استرحت الآن يا مسيو فيليب، هيا رافقني فليس أبرع منك على قيادة الملكات!!

وأسرع الشاب وقفز إلى الزحافة وجلست ماري أنطوانيت في المقعد الأمامي. وألقت برأسها إلى الوراء فلمست أصابعه.

الفصل الثاني عشر

مسيو دي سوفرن

ظل موعد قدوم مسيو دي سوفرن سراً لا يعرفه أحد غير الملك لويس السادس عشر.. والكونت دارتوا.

وأعلن الملك أنه سيقيم حفلة «للعب الورق» في المساء. ولما كانت السابعة دخل إلى قاعة اللعب مع عشرة من أمراء وأميرات البيت الملك.

واقترب الكونت دارتوا من الملكة وقال هامساً:

– أنظري حولك يا مولاتي

فتلفتت الملكة حولها.. وإستطرد الكونت:

– ألا تلاحظين شيئاً غير عادي؟

فأجابت ماري أنطوانيت في سخرية:

– إنني لا أرى أخاك بروفاس.

وقال دارتوا:

– لقد هزأنا به، إذ أرسلناه لاستقبال مسيو دي سوفرن في فونتنيلو. كما أرسلنا رسولاً آخر لاستقباله في «فيلوجويف» ولكن مسيو دي سوفرن لن يمر بباريس ومعنى ذلك أنه لن يلتقي ببروفنس فما رأيك في هذه الحيلة يا مولاتي.. لقد استطعت أن أخلي الجو منه حتى لا يعمل على إزعاجك؟

ضحكت الملكة بصوت عال، حتى لقد التفت الملك ناحيتها، ولكنه لم يتمالك

نفسه من الابتسام حين أدرك سبب ضحكها.

وبدأ الجميع يلعبون الورق، وتنازل الملك فكان يقامر بمبالغ قليلة كي يمكن الحاضرين من مشاطرته اللعب.

وكان فيليب تافرنى حاضراً مع أخته، وصدى الكلمات التي سمعها من أبيه مازال يتردد في أذنيه.

راح يتساءل: ترى هل صدق أبوه في كلماته. وأنه لا يصلح لعيشة البلاط ؟ وهل يعقل أن تكون تلك الملكة الفاتنة عابثة مستهترة.. وإنها بتقريبه إليها، إنما تأمل أن تضيفه إلى قائمة عشاقها. غير عابئة بما يناله من تعذيب عندما تصرفه عنها. كما سبق لها أن صرفت الآخرين.

ودقت الساعة الثانية في تلك اللحظة. وسمع الحاضرون ضوضاء وجلبة صادرة من الخارج. وأصواتاً تدل على وصول القائد الكبير.

فنهض الملك واقفاً ودلف إلى قاعة الاستقبالات الكبيرة تتقدمه الملكة ، ثم غادر وزير البحرية الغرفة وعاد بعد لحظة يرافقه رجل قصير القامة يرتدي سترة زرقاء موشاة بالذهب وصديرية حمراء وسرو الأمن لون السترة.

كان القائد دى سوفرن من أقدر القواد الفرنسيين، فقد حارب في سبع مواقع بحرية هامة ضد الإنجليز وإنتصر فيها جميعاً.. كما أنه استولى على ترينكومالي وجوندلير. وأمن الملاحة في المحيط. وأعطى حيدر على درساً قاسياً رفع من هيبة فرنسا في أعين الدول. وكان يتمتع بكل صفات السياسة العظماء إلى جانب مقدرته البحرية، حتى لقد بدأ الإنجليز يهابونه ويخشون بطشه.ولما وضعت الحرب أوزارها، وكان قد كسب آخر معركة بعد أن خاطر بحياته كما يفعل أقل الملاحين شأناً.. عاد إلى وطنه مرفوع الرأس تكلل هامته أكاليل الغار.

واستقبل الحرس مسيو سوفرن عند دخوله فرساي بالتحية العسكرية كما رحب به الملك واستقبله استقبالاً حاراً.. فركع القائد الكبير عند قدمي مولاه.. فأسرع

لويس بوقفه ثم عانقه في حرارة وقدمه إلى زوجته ماري أنطوانيت.

فقالت الملكة:

– لقد كان قلبي ينبض بالإعجاب والتقدير لكل قنبلة تطلقها مدافعك في سبيل نصرة فرنسا يا سيدي القائد.

وتأبط الملك ذراع القائد الكبير كي يذهب به إلى غرفة جانبية ليتحدثا على انفراد.

وفجأة وقف القائد ونظر إلى الملك وقال:

– مولاي.. لي رجاء..

فقاطعه الملك:

– تكلم.. تكلم يا عزيزي سوفرن. هل تعتقد إنني أرفض لك طلباً؟

فاستطرد مسيو سوفون:

– لقد إرتكب أحد ضباطي هفوة كبيرة ضد النظام. حتى لقد خيل إلى أنه لا يوجد قاضٍ واحد في فرنسا يصلح للحكم على هفوته هذه غير جلالتكم.

فقال لويس: كم كنت أود أن يكون أول ما تطلب ثواباً وليس عقاباً.

– كان الضابط المذكور فوق ظهر البارجة لاسيفير في آخر معركة ورأى قائد السفينة أن يسلمها للأعداء. بعد إذ يئس من الحصول على النصر، وأمر رجاله أن ينزلوا العلم. ففعلوا. ثم أمر بالكف عن إطلاق النار، ولما رأى العدو ذلك أنزل أحد قواربه إلى اليم كي يجري عملية التسليم. بيد أن هذا الضابط لم يرق في نظره عمل قائده. فأعاد العلم مكانه. وأمر بإطلاق المدافع ثانية. وهكذا كانت فعلته سبباً في المحافظة على البارجة من الوقوع في أيدي الأعداء.

فصاح الملك والملكة في صوت واحد

– إنه عمل يستحق الإعجاب والتقدير بغير شك!

– أجل يا مولاي. ولكنه عمل خطير مخالف للنظام. فقد أعطى القائد أمره. فكان على الضابط أن يطيع.

على العموم. أنا أطلب إلى جلالتكم الصفح عن هذا الضابط الشاب وبخاصة لأنه إبن أخي.

فصاح الملك: ابن أخيك! ولكنك لم تذكره لي من قبل؟

– كلا يا مولاي.. ولكنني ذكرت كل شيء عنه في تقاريري التي رفعتها إلى الوزراء، ورجوتهم ألا يذكروا شيئاً عنه لجلالتك حتى تتاح لي فرصة طلب العفو عنه.

فقال لويس: لقد منحته العفو. كما إنني أعد كل من يقدم على مثل تلك الفعلة النبيلة بحمايتي وعطفي.ولكن.. أين هذا الضابط الباسل يا مسيو سوفرن؟

فصاح القائد الكبير:

– هو ذا يا مولاي.. تقدم يا مسيو دي شارني

ذعرت الملكة عندما سمعت بهذا الإسم وتبادلت وأندريه نظرة سريعة.

وتقدم الضابط الشاب من الملك. ثم جثا عند قدميه وقبل يده. ونهض واقفاً، وتراجع إلى الوراء دون أن يلقي نظرة واحدة على الملكة.

وفي هذه اللحظة التفت الملك إلى ماري انطوانيت وقال:

– لقد وعدتك ببناء باخرة. وهأنذا أقرن القول بالعمل. غير أني أفكر في تغيير الإسم الذي إتفقنا عليه.

فقالت الملكة: إذن. فلنطلق عليها إسم «لاسوفرن»

فصاح الجميع: ليحيا الملك.. لتحيا الملكة!

وأضاف الملك: ولتحيا لاسوفرن.

الفصل الثالث عشر

مسيو دي شارني

كان مسيو دي سوفرن قد طلب إلى إبن أخيه أن ينتظر عودته. ولبى الشاب رجاء عمه فبقي مع الحاشية..أما ماري أنطوانيت فقد إلتفتت إلى أندريه وقالت في صوت خافت

– أليس هو ذلك الشاب الذي رافقنا إلى فرساي؟

– أجل يا مولاتي. إنه هو بعينه

وفتح الباب في تلك اللحظة ودخل الكردينال دي روهان القاعة.

وما إن وقع بصر الملكة عليه حتى تجهم وجهها وأدارت رأسها الجميل إلى الناحية الأخرى، ولكن الكردينال لم يعبأ بما بدا على الملكة من جفوة. وتقدم نحوها. ثم جثا أمامها كما يفعل أحد أفراد الشعب ، فحدجته الملكة بنظرة قاسية. وشكرته في كلمات قلائل. ثم أعرضت عنه وراحت تتحدث إلى مدام لامبال.

كان الكردينال دي روهان شاباً في مقتبل العمر. جميل الطلعة. جذاب التقاطيع.. ولكنه كان مكروهاً من النساء بصفة عامة رغم جماله وأناقته ووجاهته ..كان محبوباً من الملك لغزارة علمه. ولكنه كان مكروهاً من الملكة كالوباء. وترجع كراهيتها له إلى أنه كتب مرة – وهو سفير لفرنسا في النمسا – رسالة للويس الخامس عشر كلها سخرية وقدحاً في ماريا تريزا ، أم ماري أنطوانيت كما كتب عدة رسائل يعارض فيها بشدة زواج ماري من لويس السادس عشر، وقرأ الملك لويس الخامس عشر هذه الرسائل على الملأ في وليمة كانت قد أديتها له مدام دوباري في منزلها.. وعرفت ماري أنطوانيت بما كان من الكردينال دي روهان فحقدت عليه. حتى لقد

أصبح مركزه في البلاط دقيقاً وحرجاً. ولكنه لم يكن يأبه لذلك. ولم يمنعه حرج مركزه من مقابلة أصدقائه الكثيرين من رجال البلاط.

ولما ابتعد الكردينال.. التفتت الملكة إلى جارتها مدام دي لامبال. وقالت:

– ألا تعتقدين أن عمل الضابط دي شارني عظيم يستحق الإعجاب؟

– أجل.. يا مولاتي..

– إذن تابعي في طلبه لنسمع منه قصته.

وأقبل دي شارني بعد لحظات وما إن وقع بصره عليها. حتى توردت وجنتاه ولكنه سرعان ما تمالك هدوءه.. وإستعاد رباطة جأشه.

وبادرته الملكة قائلة:

– قص علينا قصتك أيها الشاب الباسل.. إننا جميعهاً في لهفة لسماعها؟

فأجاب الشاب:

– مولاتي.. إنني لم أفعل شيئاً أستحق الإعجاب من أجله.. فقد كان قائد البارجة من بواسل الضباط، ولكنه فقد هدوءه في تلك الفترة نظراً لدقة الموقف. فلما رفعت العلم ثانية استعاد هذا الضابط الباسل شجاعته وقاد المعركة بحماسة ومهارة يستدعيان الإعجاب حتى كسب النصر فقالت الملكة:

–حسناً. كما تشاء ياصديقي. إنك شاب شهم يا مسيو دي شارني ، وقد سمعت عن شهامتك في إحدى المناسبات.

فأحمر وجه الشاب.. وأطرق برأسه إلى الأرض.

واستطردت الملكة قائلة:

– لقد بلغني من إحدى صديقاتي أنها خرجت ذات ليلة في نزهة إلى باريس برفقة إحدى صديقاتها، وحدث أن أحاط بهما العامة وحطموا عربتهما، فخف مسيو دي

شاربي إلى نجدتهما، ورافقهما إلى المكان الذي يقصدان، ثم تركهما دون أن يسألهما حتى عن إسميهما.

فإرتفعت صيحات الإعجاب والتقدير.. واسترسلت الملكة قائلة:

– لست أشك في أن جلالة الملاك سيكافئ مسيو سوفرن..

ولذلك فقد رأيت أنا أيضاً أن أكافئ إبن أخيه.

ومدت الملكة يدها لشاب فقبلها في احترام.. وكان فيليب يراقبهما والغيرة تنهش قلبه.

وسمع الجميع صوت (دارتوا) وهو يقول:

– آه.! هو ذا بروفنس! حقاً لقد تأخرت كثيراً يا أخي وفوت على نفسك التمتع بمنظر لن ينساه من رآه.. فأين كنت وأنت المشهور بدقتك في المحافظة على المواعيد؟

فعض مسيو دي بروفنس شفته قهراً .. وأطرق برأسه إلى الأرض دون أن يجيب.

الفصل الرابع عشر

الرسالة

عندما فرغت مدام دي لاموت من تقدير قيمة الثروة التي هبطت عليها من السماء. سمعت طرقاً على الباب فنادت خادمتها وأمرتها أن تنظر من الطارق.

ولما غادرت الخادمة الغرفة، أسرعت جين تخفي ثروتها الجديدة في أحد أدراج مكتبها وهي تكاد تطير من الفرح.

وعادت كلوتيد تحمل لسيدتها رسالة. فتلقفتها جين في لهفة.. وسألت:

– من الذي أحضر هذه الرسالة؟

– إنه خادم يرتدي ملابس الحجاب يا سيدتي.

وفضت جين الخطاب في لهفة. ثم قرأت:

«سيدتي.. سيأتي الشخص الذي كتبت إليه لمقابلتك في منزلك غداً»

وتساءلت: ترى أيكون الكاتب رجلاً. أم امرأة؟

بيد أنها عادت فتذكرت الشعار المطبوع في أعلى الرسالة

فغمغمت:

«آه.. إنه الكردينال دس روهان، ولكن يا الله! إن إستقبال مثل هذا الرجل العظيم يقتضي تعديلاً مناسباً في أثاث الدار»

وأمرت خادمتها أن توقظها في ساعة مبكرة من الصباح. ثم آوت إلى مخدعها وهي تقلب في رأسها خطط المستقبل السعيد.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى قصدت جين إلى حانوت مسيو فنجرت، حيث يباع الأثاث أو يستأجر تبعاً لمقدرة الطالب المالية.. كانت قد عولت على تأثيث منزل فاخر يتكون من غرفة أنيقة للنوم وأخرى للمائدة وثالثة للاستقبال، بيد أنها كانت تدرك أن شراء مثل هذا الأثاث الفاخر يستلزم وجود مال وفير لم تكن تملكه.. فآثرت أن تستأجره مؤقتاً، ريثما يتم لها الحصول على المال الذي يمكنها من شرائه نهائياً.

وخطر لها أن تقل هذا الأثاث إلى الطابق الثالث من المنزل الذي تقطنه وبذلك يتوفر لها طابقان. تستقبل أمثال الكردينال في أفخرهما وأمثال تلك المحسنة التي زارتها أمس في الطابق المتواضع.

وبعد أن طاف بها صاحب الحانوت في الغرف الملحقة وعرض عليها ما عنده من أثاث.. اختارت جين ما حلا لها. ودفعت للمسيو الأجر الذي إتفقا عليه.. ثم عادت إلى الدار.

واستأجرت الطابق الثالث. وكان الأثاث قد وصل في تلك الفترة، وبدأ الرجال يضعونه في الأماكن التي اختارتها لها ربة الدار.

ولما فرغت جين من إعداد الشقة. كان الليل قد بدأ يرخي سدوله فأمرت كلوتيد أن توقد ناراً في المدفأة.

وجلست قبالة المدفأة وهي تقرأ كتاباً.. وتصغي في إنتباه.. فلما كانت الحادية عشرة ولم يأت الكردينال. شعرت الكونتس بغصة حادة فآوت إلى مخدعها وهي أشد ما تكون حنقاً.

ولم يزر النوم جفنيها في تلك الليلة، إذ كانت تشعر بغضب جائح.

ولم تيأس جين من قدوم الكردينال. فاستعدت لإستقباله في مساء اليوم التالي أيضاً.

ولم يطل انتظارها إذ لم تلبث أن سمعت صوت مركبة تقف ببابها عند الساعة السابعة ثم جاءت كلوتيد لتعلن قدوم رجل.

وبعد برهة دلف إلى الغرفة رجل يرتدي ملابس حريرية. ويمسك في يده عصا أنيقة.

وتقدمت جين نحوه مرحبة. فقال:

– إنني أدعى الكردينال دي روهان يا سيدتي. وقد جئت لمقابلتك بناء على الدعوة التي وجهتها إلي.

فركعت الكونتس على ركبتها إحتراماً. ثم قدمت إلى الكردينال مقعداً وثيراً وجلست هي قبالته.

وبدأ الكاردينال حديثه بقوله: إذن فحقيقي يا آنسة..

فأسرعت جين تقاطعه قائلة: معذرة فإنني سيدة وزوجي يدعى دي لاموت يا سيدي

– أه.. أجل.. أجل ومن رجال الجندرمة أيضاً..

ثم أمسك عن الكلام وهو يرقب الكونتس في إهتمام وعاد يقول:

–إذن فأنت من عائلة فالوا؟

– أجل يا مولاي..

– إسم عظيم والمعتقد أن أصحابه اختفوا من عالم الوجود.

– كلا.. إنه لم يختف بعد فما زلت أحمله كما أن لي أخاً لا زال يحمله أيضاً وهو البارون دي فالوا.

– وهل البارون ذو شخصية معروفة؟

– وماذا يضيرنا من ذلك ما دام يحمل اسم فالوا؟

– سيدتي.. هل لك أن توضحي لي كيفية تسلسل عائلة فالوا. فإن الأمر يهمني.

فأعادت الكونتس على مسامع الكردينال ما سبق لها أن أوضحته لماري أنطوانيت – ولا شك أن القاريء قد أدرك أنها هي التي زارتها مع أندريه دي فارني وتركت لها المائة لويس – وكان الكاردينال يصغي إليها دون أن يرفع عينيه عن وجهها.. والواقع أنه لم يصدق قصة جين. بيد أنه لم يأبه لذلك بقدر ما أعجب بجمال المرأة. ورثى لفقرها..

ولما فرغت من قصتها. سأل:

– ولكنني أظن أن الرواية التي بلغتني عن فقرك كان مبالغاً فيها فهاأنذا أراك تقطنين شقة أنيقة فاخرة.

فأجابت جين: إن هذه الشقة تليق بامرأة متوسطة الحال وليست بأميرة يا مولاي

فقال الكردينال في لهجة صارمة: الأميرة التي هي أنت!

فقالت في كبرياء:

– إنني أنحدر من سلالة فالوا. كما تنحدر أنت من سلالة روهان يا سيدي..

فأسرع الكردينال يقول:

– معذرة يا سيدتي.. فما أردت إساءتك

وتلفت حوله. ثم قال:

– يبدو لي إنك لم تصلي إلى درجة الفاقة بعد. فما زال عندك متاع أنيق.. ومن يدري لعل عندك أيضاً بعضاً من مجوهرات العائلة.

وأشار بيده إلى الصندوق الذي وجدته الكونتس في غرفتها عقب انصراف ماري أنطوانيت من زيارتها.. وكانت جين تعبث به في يدها.

واستطرد:

– فأنت تملكين مثل هذا الصندوق النادر

وكف عن الكلام بغتة.. ثم قال:

– هل تسمحين لى بإلقاء نظرة على هذه التحفة النادرة يا سيدتي؟

فقدمت جين الصندوق للكردينال وراح يفحصه بإمعان.. ثم فتحه ونظر في داخله ولم تلبث أن أفلتت من شفتيه صيحة تدل على الدهشة.

سألت جين: هل تعرف صاحبة الصورة يا سيدي؟

– إنها صورة ماريا تريزا إمبراطورة النمسا

– حقا؟! هل أنت واثق من ذلك يا سيدي؟

ولكنه لم يجيبها بل سأل: وكيف وصل إليك هذا الصندوق؟

– لقد سقط من سيدة جاءت لزيارتي أول أمس.

وظل الكردينال يفحص الصندوق.. عدة دقائق

وإستطردت جين قائلة:

– لقد جاءتني صاحبة الصندوق وبرفقتها سيدة أخرى

فبدت الريبة على وجه الكردينال. وسأل:

– وما اسم تلك السيدة؟ أرجو المعذرة عن تطفلي

– عفواً يا مولاي.. ولكني لو كنت أعرف إسمها لأعدته إليها يومئذ..

– إذن فأنت تجهلين شخصية تلك الزائرة؟

– كل ما أعلمه عنها أنها رئيسة إحدى الجمعيات الخيرية.. في فرساي.

– رئيسة إحدى الجمعيات الخيرية في فرساي؟!

– سيدي.. إنني أقبل الإعانات التي تصلني من سيدات لأن ذلك لا يجرح

شعوري. وقد برت بي هذه السيدة عندما سمعت بمأساتي ونقدتني مائة لويس.

فقال الكردينال في دهشة: مائة لويس!

وسكت.. وقد بدت عليه دلائل التفكير العميق. ثم عاد فقال:

– الواقع أن شأن هذه المحسنة الكبيرة التي تأبى ألا أن تكتم إسمها يثير الفضول. فهل يمكنك أن تصفي لي تلك المرأة؟

– ليت ذلك كان من السهولة كما تعتقد يا مولاي..

– وكيف ذلك. ألم تأت إلى منزلك؟

– أجل.. ولكنها كانت تتعمد إخفاء شخصيتها حتى إنني لم أستطع أن أتبين من ملامحها غير عينيها الزرقاوين وفمها الدقيق رغم غلظة شفتيها.

– طويلة أم قصيرة؟

– متوسطة الطول..

– ويداها..

– جميلتان..

– وعنقها

– طويل نحيف، فهل تعرفها يا سيدي؟

فمط شفتيه وهز رأسه نفياً.

فقالت جين وقد ارتابت في الأمر بدورها:

– ولكنك عرفت صاحبة الصورة. فلابد أنك تعرف صاحبة الصندوق أيضاً.

فقال الكردينال مراوغاً:

– من الجائز إنها إحدى النساء الألمانيات اللائي ينتمين إلى الجمعيات الخيرية..

سمعت بقصتك فأرادت مساعدتك.

كان من الواضح أن الكاردينال يشك في الأمر. والواقع أنه كان يعجب كيف أمكن أن يقع هذا الصندوق الذي طالما رآه في حوزة الملكة ماري أنطوانيت في يد جين دي لاموت.

وراح يتساءل: ترى هل زارت الملكة هذه الكونتس؟ وهل حقاً لا تعرف الكونتس اسم زائرتها؟ وإذا كان الجواب نفياً فلماذا تحاول جين التغرير به؟

وأدركت جين أن الكردينال قد ارتاب في أمرها. فاستولى عليها القلق ولم تدر ماذا تفعل؟

وأخيراً سأل الكردينال:

– ألا تعرفين إسم السيدة التي كانت ترافق تلك الزائرة؟

– لقد سمعتها مرة تدعوها أندريه.

كانت تلك الجملة فصل الخطاب. فتبدد شك الكردينال وأيقن أن الملكة وأندريه إنما جاءتا لزيارة تلك المرأة يوم غادرا القصر في طريقهما إلى باريس كما أيقن أيضاً أن جين لم تحاول خديعته والتغرير به.

سأل:

– ألم تحاولي الإتصال بجلالة الملك لعرض مظلمتك عليه؟

أجابت:

– لقد حاولت ذلك مراراً دون جدوى.. فلجأت إلى بقية الأمراء ولكنهم لم يعيروني إلتفاتاً.. فما يئست من الرجال إتصلت بالأميرات. وجاءني رداً من مدام إليزابيث تقول إنها على استعداد لمقابلتي. فأرسلت إليها زوجي بادئ الأمر. ولكنها رفضت مقابلته كما رفضت مقابلتي بعدئذ.

فبدأ التفكير على وجه الكردينال.. وكأنما طاف برأسه خاطر مفاجيء.. فصاح:

– يا الله.. لماذا لا تحاولين الاتصال بجلالة الملكة؟

– لقد حاولت مرتين ولكنني أخفقت

– هل كتبت إليها؟

– كلا.. إذ ما الفائدة من ذلك بعد إذ أخفقت في مقابلتها مرتين

– إذن من قابلت عند ذهابك إلى فرساي؟

– قالت الدكتور لويس – وهو الطبيب الذي تولى علاج أبي في المصحة في المرة الأولى – وقابلت مسيو دي تافرني في المرة الثانية

فقال الكردينال في هدوء:

– وماذا قال لك مسيو دي تافرني.؟

– لقد صرفني قائلاً أنه من الحماقة أن أقدم إثبات نسبي إلى العائلة المالكة، لأن ذلك يغضب الملك والأشراف لا يحبون الإنتساب للفقراء

فقال الكردينال:

– ياله من قاس.. حسناً.. اعتمدي علي. فسآخذك إلى فرساى وأفتح لك الأبواب المغلقة.. ومن الآن فصاعداً.. اعتبري نفسك تحت حمايتي.

فصاحت:

– أواه يا سيدي.. كم أنت طيب القلب.. وشفوق!

ومد الكردينال يده، وقبض على يد المرأة، ثم ضغطها في رفق ورفعها إلى شفتيه وقبلها.

وحاولت المرأة أن تجذب يدها من يده، ولكنه منعها قائلاً:

– لا أخالك تعتقدين إنني تجاوزت حدود الأدب يا سيدتي.؟

فقالت:

– إنه لشرف وأي شرف، أن أكون موضع رعاية رجل عظيم مثلك يا مولاي.

ونهض الكردينال واقفاً، ومد يديه يحاول إحتضان الكونتس، ولكنها منعته في لطف وهي تقول:

– لا تنسى يا سيدي إنني متزوجة من جندي بسيط يدعى دي لاموت فلنكن أصدقاء فقط يا مولاي.

– يا الله.! معذرة على ما بدا مني من نسيان.. والآن.. أرى أنه ليس من اللائق أن تقيمي في هذا المسكن البسيط فلتأتي إلى منزلي..

– منزلك!؟

– كلا بل منزلك من الآن فصاعدا.

وتنهد.. ثم أضاف:

– يالك من فاتنة يا كونتس.! غداً أرسل إليك عنوان المنزل..

ورفع يدها إلى شفتيه وقبلها قبلة حارة طويلة..

ثم أحنى لها قامته.. وغادر الغرفة وهو يغمغم:

– حقاً ما أسعدني.. لقد أصبت عصفورين بحجر واحد.

الفصل الخامس عشر

المفاجأة!

بعد يومين من زيارة الكردينال دي روهان لجين دي لاموت. غادرت الكونتس دارها وقد تأنقت في هندامها حتى بدت كأنها من أفراد الطبقة الأرستقراطية جاذبية وجمالاً..واستقلت مركبة خاصة إنطلقت بها إلى منزل مسيو مسمر..

ومسيو مسمر هذا هو الرجل الذي طلبت ماري أنطوانيت إلى لويس السادس عشر أن يسمح لها بزيارته فأذن لها على شرط أن ترافقها إحدى أميرات البيت المالك.

والرجل منوم مغناطيسي ذاعت شهرته بين الفرنسيين بمقدرته الفائقة على التنبؤ وشفاء الأمراض المستعصية

وكانت الدار تعج بالوافدين في تلك الليلة فشقت الكونتس طريقها وسط الزائرين في خطى متزنة.. وقد وضعت قناعاً سميكاً فوق وجهها..

كانت جين قد أدركت أن دافعاً خفياً حمل الكردينال على تغيير سلوكه نحوها عندما وقع بصره على الصندوق والصورة التي بداخله فعولت على استكناه ذلك السر. ولما أعيتها الحيلة لم تجد بداً من الإلتجاء إلى المنوم المغناطيسي المشهور لعله يهديها إلى صاحبة الصندوق الأصلية..

وقاد أحد الخدم جين دي لاموت الي قاعة متسعة قد أغلقت نوافذها بإحكام وينبعث ضوء خافت من ثريا كبيرة معلقة في السقف. ومن تحتها حوض كبير مملوء بمزيج من الماء والفسفور قد شدت إلى غطائه حلقة حديدية كبيرة تتصل بسلسلة طويلة.

وكان المرضى جالسين فوق مقاعد قد صفت أمام جدران الغرفة الأربعة، بينما كان أحد الخدم يطوف بهم ليوثق أقدامهم بتلك السلسلة الطويلة. حتى إذا ما مرت الكهرباء من الحوض إلى السلسلة أحسوا بها جميعاً..

وقدم الخادم إلى كل من الجالسين قضيباً صغيراً من الحديد يتصل بالحوض مباشرة. كي يضعه المريض فوق العضو المصاب ، فإذا ما تمت هذه الإجراءات الأولية.. تصاعدت في أرجاء الغرفة نغمات موسيقية عذبة من مصدر مجهول.

وكان أول ما استرعى إنتباه جين عند دخولها إلى تلك الغرفة. امرأة صغيرة على جانب عظيم من الجمال، قد وضعت القضيب الحديدي فوق قلبها. وهي تحرك يدها في حركات سريعة دلالة على أنها تحس مفعول الكهرباء في جسدها

ظلت جين ترمق هذه المرأة الصغيرة بنظرة فاحصة.. ثم لم تلبث أن علت وجهها علامات الدهشة الشديدة.. عرفت فيها تلك المرأة التي زارتها منذ أيام قلائل ، وفيما كانت تتهيأ للتقدم نحوها وهي تهنىء نفسها على تلك المصادفة السعيدة. رأت المرأة الصغيرة تغلق عينها وهي تضرب الهواء بيديها في حركات ضعيفة.

وفجأة رأي الجالسون رجلاً واقفاً في وسط القاعة.. ولم يكن أحد رآه وهو يدخل ، وحرك الرجل يده بشكل معين ففتحت الأبواب ودخل عشرون خادماً هم أشبه بالمردة منهم إلى بني الإنسان.

وانقض كل واحد منهم على مريض فرفعه بين يديه كأنه دمية صغيرة ودلف به إلى غرفة جانبية

وفيما كان الخدم يقومون بعملهم. سمعت جين رجلاً كان يقف بجانب تلك المرأة الصغيرة، وهو يقول في حماس: إنها هي!

وهمت جين بأن تسأله عن إسمها حين وقع بصرها على إمرأتين دلفتا الى القاعة في تلك اللحظة يتبعهما أحد الخدم.

وما أن وقع بصر جين على إحدى المرأتين حتى تولتها الدهشة الشديدة. وتقدمت خطوة إلى الأمام. ثم عادت فارتدت إلى الخلف حين صرخت تلك المرأة الصغيرة صرخة داويه رن صداها في أنحاء القاعة وحول إليها الأنظار.

وسمعت جين ذلك الرجل المتحمس وهو يقول:

«أنظروا أيها السادة. إنها الملكة.!!»

فصاح كثيرون في دهشة: الملكة! الملكة هنا! وعلى هذه الحال! هذا مستحيل!

فقال الرجل: أنظروا إليها! ألا تعرفون الملكة؟!

فأجاب كثيرون: بالطبع نعرفها.. الواقع أن التشابه عجيب؟!

وقالت جين للرجل المتحمس. وكان بديناً قصير القامة:

– أتقول إنها الملكة؟

– لا شك في ذلك يا سيدتي..

– ولكن أين هي؟

– إنها تلك المرأة الصغيرة النائمة فوق الوسائد البنفسجية.

وولى الرجل الكونتس ظهره، ثم مضى في سبيله كي يذيع النبأ على بقية الحاضرين. وتحركت جين نحو الباب مرة أخرى وفجأة وجدت نفسها وجها لوجه أمام المرأتين اللتين مر ذكرهما. على أنها لم تكد تلقي نظرة واحدة على وجه كبراهما حتى بدرت من شفتيها صيحة تدل على الدهشة الشديدة:

فسألت المرأة: ماذا حدث يا سيدتي؟

فرفعت جين القناع عن وجهها، وسألت:

– هل عرفتني الآن يا مولاتي

فبدت الدهشة على وجه المرأة. وقالت:

– كلا يا سيدتي.

– أما أنا فقد عرفتك، وسأقدم لك الدليل على صدق قولي.

وأخرجت الصندوق الذهبي من جيبها وقالت:

– لقد سقط هذا الصندوق منك في منزلي

– ولنفرض أن ذلك صحيح فماذا يضيرك من ذلك؟

– يضيرني أن جلالتك تعرضين نفسك لخطر عظيم بالمجيء إلى تلك الدار

– هل لك أن تفصحي يا سيدتي؟

فمدت جين يدها بالقناع إلى ماري أنطوانيت وقالت:

– يجب أن تضعي ذلك القناع فوق وجهك يا مولاتي

بيد أن الملكة تجاهلت اليد الممدودة إليها بالقناع. فقالت جين:

– أتوسل إليك يا مولاتي أن تصغي إلى.. فإن الوقت أضيق من أن يتسع لمجادلات لا طائل تحتها.

وحينئذ أخذت الملكة القناع ووضعته فوق وجهها..

هتفت جين: والآن.. أضرع إليك أن تغادري ذلك المكان في الحال

– ولماذا؟

– هل رآك أحد عند قدومك يا مولاتي؟

– لا أظن ذلك

– شكرا لله..

وتحركت الملكة صوب الباب وهي تقول:

– إنني لا أفهم ماذا تريدين ؟!

– مولاتي أرجو أن تصدقي خادمة مخلصة حين تقرر أن جلالتك معرضة لخطر داهم بالبقاء هنا..

– أي خطر؟!

– لو سمحت لي جلالة الملكة بخلوة قصيرة لأطلعتها على كل شيء

إزدادت دهشة الملكة. ولكنها لم تر بداً من السماح لها بما تطلب.. قالت:

– إذن تعالي إلى القصر غداً ومعك هذا الصندوق، وسأصدر تعليماتي للوران كي يسمح لك بالدخول حال قدومك.

وبينما كان الحوار المتقدم ذكره دائراً بين الملكة وجين دي لاموت. كان ذلك الرجل المتحمس يتحدث الى آخر رث الثياب.

قال: هاك قصة طريفة فأنشرها في صحيفتك.

إنها تدور حول الخطر الذي ينجم عن حكم ملك من الملوك – تقوده امرأة معرضة لنوبات عصبية عنيفة – لشعب من الشعوب.

فضحك الصحافي ملء شدقيه.. وأجاب:

– وهل نسيت الباستيل؟

– وما شأني بالباستيل يا رجل؟ في استطاعتك أن تغير الأشخاص والأسماء، فتتخذ من الأقدمين أبطالاً لقصك .

– هذه فكرة رائعة حقاً يا سيدي..

وقبض الصحافي على يد الرجل المجهول وهزها في حرارة.. فقال الآخر:

– إذن فأذهب ودبجها بيراعك، ولكن خبرني كم توزع صحيفتك؟

– ألفان..

– ألفان فقط؟! هذا عدد ضئيل.. ولكن أظن أنه يمكنك أن تطبع ستة آلاف..

وهاك خمسين لويسا..

– إنك تغمرني بعطفك يا سيدي، ولكن من أنت يامن تعمل على رفعة شأن الأدب والأدباء؟

– سوف تعرف ذلك عندما أذهب إليك في طلب ألف نسخة، ولكن لا تنسى أن تجعل لدن مكان النشر..

وصمت لحظة ثم قال:

– لست أشك في أن قصة كهذه ستقابل من الفرنسيين قبولاً حسناً..

فهتف الصحافي: بغير شك.. بغير شك..

ولما انصرف الصحافي، إلتفت الرجل المجهول نحو المرأة الصغيرة وكانت قد استردت شعورها في تلك اللحظة، وجلست جلسة شخص قد بلغ منه الإعياء مبلغه. قال في نفسه:

«حقاً.. إن التشابه عجيب!»

ثم نهضت المرأة واقفة في تراخ، وبدأت تصلح من شأنها، ثم سارت نحو الباب في تثاقل..وكم كانت دهشتها عظيمة عندما رأت الكثيرين يحيونها في احترام لم تعهده من قبل.وعندما عادت الفتاة إلى منزلها استقبلتها امرأة عجوز بقولها:

– في الغرفة شخص ينتظرك يا إبنتي..

– أي شخص تعنين يا أماه؟ هل جاء..

– كلا.. إنه شخص آخر يريد التحدث إليك

فأسرعت الفتاة تفتح باب غرفة الجلوس، فرأت رجلاً غريباً يجلس فوق الأريكة.!

كان هو بعينه ذلك الرجل المجهول المتحمس .. وعندما رأى الفتاة بادرها بقوله:

– ألست أنت مدموازيل أوليفا؟

– أجل يا سيدي.

– شخصية ظريفة ولكنها عصبية. وتعتقد كثيراً في طريقة الدكتور مسمر

– إنني عائدة من منزله في التو واللحظة يا سيدي

– أعرف ذلك. فقد رأيتك في منزله وأدركت على الفور أنك المرأة التي أبحث عنها.

– سيدي!!

– إطمئني يا فتاة فليس للعواطف شأن فيما جئت لأجله.. إنني جئت أعرض عليك صفقة.. وصفقة معينة.

فلمعت عينا الفتاة وقالت: أية صفقة يا سيدي؟

– ماذا تفعلين طوال يومك؟

عجبت الفتاة لمسلك ذلك الرجل الشاذ. وزاد عجبها تلك الأسئلة الملتوية التي كان يلقيها عليها. بيد أنها أجابت قائلة:

– إنني لا أفعل شيئاً تقريباً

– هذا بديع

وصمت لحظة ثم استطرد: هل تحبين السير على الأقدام؟

– إنها أحب رياضة إلي.

– وتحبين مشاهدة الحفلات وحياة البذخ والثراء.. أليس كذلك؟

– نعم. نعم.

– وإذا فرض وقدمت إليك خمسة وعشرين لويسا كل شهر فهل ترفضينها؟

فرمقته الفتاة بنظرة شك ولكنه أسرع إلى طمأنتها بقوله:

– لا تتسرعي.. قلت لك لا شأن لي بالعواطف والمغازلات. فلنرفع القيمة إذن إلى خمسين لويسا. فما رأيك؟

– ولكن ما هو العمل الذي تطلبه مني نظير هذا الأجر؟

– أن تستقبليني دائماً في منزلك.. وتسيري معي في الشوارع كلما أردت ذلك. وتأتي إلي أيان أرسل في طلبك.

– ولكن لي صديق يا سيدي..

– إصرفيه

– ليس بيوسير ممن يمكن إبعادهم بهذه السهولة!

– دعي الأمر لي.. فسأعرف كيف أقنعه..

– ولكني أحبه يا سيدي

– إذن حاولي أن تبعديه عنك مؤقتاً

– سأحاول ذلك..

– إذن اتفقنا.. هاك أجر أول شهر..

وقدم إليها المبلغ. فبدأ عليها التردد. وعندئذ دسه في جيبها بنفسه.

ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع الإثنان طرقاً عنيفاً على الباب الخارجي فهتفت الفتاة.. وهي تعدو صوب النافذة:

– يا إلهي! إنه هو!! هيا أسرع بالرحيل يا سيدي وإلا قتلك

ولكن الزائر لم يتحرك من مكانه. كأنما الأمر لا يعنيه.. قال:

– لا تخافي شيئاً.. فانا أريد أن أرى الشاب

وصاحت الفتاة تطلب إلى أمها ان تفتح الباب لبيوسير.. أسرعت أوليفا لمقابلة

القادم، وكان يلعن ويصخب:

قالت في هدوء: تعال يا بيوسير

فصاح القادم وهو يدفعها عنه: دعيني!! ولكن! آه.! من هذا!

وتطاير الشرر من عينيه وهو يتقدم نحو الرجل المجهول.. وانتفخت أوداجه غضباً..

ثم زأر قائلاً:

– من أنت يا هذا؟ وماذا تفعل هنا؟

– إنني من أنا.. وقد جئت أتحدث إلى الفتاة في شأن يهمها.

وقالت أوليفا: وهذا هو كل شيء.

فزمجر بيوسير ونظر إليها نظرة هائلة

فقال الزائر: لا تكن قاسياً مع الفتاة لأنها لم تفعل ما تستحق معه غلظتك.

غمغمت أوليفا: لابد أنه خسر في المقامرة

فصاح بيوسير وهو يتميز غيظاً:

– هل تتفضل بالخروج من هنا بأسرع ما يمكن.

– ولكن..

– يا للشيطان! إذا لم تغادر الغرفة على الفور. دفنت حمامي في صدرك.

وقرن الفتى القول بالفعل فأستل سيفه من غمده، بيد أن الغريب لم يأبه لثورته. وإنما أخرج سيفاً قصيراً من تحت ردائه، ورفعه في وجه غريمه.

صرخت أوليفا، وإلتفت الرجل إليها، وقال:

– إذا لم تكفي عن الصراخ. ناديت رجال الجندرمة وأمرتهم بإقتيادك إلى سان لازار.

فكفت الفتاة عن الصياح. والتحم الغريمان في المبارزة. بيد أن الرجل لم يشأ الوقوف وإنما آثر النزال وهو جالس في مكانه.. وما هي إلا ثوان. حتى أطار الغريب حسام غريمه من يده، ونفذ من النافذة وسقط في الطريق.

وقال الرجل:

– كم يكون من سوء حظك لو سقط الحسام فوق رأس أحد المارة.. فهشمها.. هيا أسرع والتقطه قبل أن يقبضوا عليك.

خرج الشاب يعدو، وهو لا يكاد يصدق بالنجاة. ثم التفتت الفتاة إلى الرجل ورجته أن يصعد إلى الطابق الثالث.

ريثما يعود بيوسير. وعندئذ ينصرف.

فلم يمانع الرجل وانصرف. بعد أن إتفق معها على أن يعود إليها بعد إنصراف الفتي ليصحبها إلى الأوبرا!

وعندما عاد بيوسير من الخارج ألفى الغرفة خالية.دهش وخطر له أن الرجل مختبئ في مكان ما خوفاً من غضبه وبطشه فجال ببصره في الغرفة وهم بالبحث عنه، ولكن أوليفا اعترضت سبيله وقد كشرت عن أنيابها، ومن ثم إلتحما في معركة حامية. خرجت منها الفتاة منتصرة بعد أن حطمت آنية من الزهور فوق رأسه.

وكان التعب قد أنهك قوى الشاب بعد هذا المجهود فآثر أن يقنع من المعركة بالهزيمة ولكنه لم يقنع بالصمت.. فأسرعت الفتاة وكممت فمه، ونثرت الذهب الوهاج أمام عينيه. فكان له فصل الخطاب وأعلن الشاب الهدنة.

وسال لعاب الفتى وركع على ركبتيه يسألها الصفح.. وقال في صوت كله ضراعة:

– معذرة يا حبيبتي.. أرجو الصفح

وشمخت الفتاة بأنفها واطمأنت إلى أنه بات طوع أمرها. قالت:

– حسناً.. آمل أن يكون لك من هذا الدرس عبرة في المستقبل والآن أسرع

وابتع لنا ثوبين أحدهما أبيض والآخر أسود فإننا ذاهبان إلى الأوبرا.

فتهللت أسارير الفتى، وغادر الغرفة وهو يصفر بشفتيه.أما أوليفا فقد أسرعت إلى منضدة صغيرة. وكتبت الرسالة التالية:

«لقد أعلنا الهدنة. وعزمنا على الذهاب إلى الأوبرا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وسأرتدي ملابس بيضاء وشريطاً من الحرير الأزرق على ذراعي الأيمن»

وطوت الرسالة ثم أسرعت إلى النافذة. وقذفت بها إلى خادم ذلك الرجل المجهول. وكان في الإنتظار..

وتلقي الخادم الرسالة وانطلق بها إلى سيده.

الفصل السادس عشر

منزل الكردينال

ظلت مدام دى لاموت ترقب عربة الملك بعد أن تحركت من أمام باب منزل الدكتور مسمر حتى غابت عن أنظارها.. وعندئذ عادت إلى منزلها وقد عولت على الذهاب إلى الأوبرا.. بيد أنها لم تكد تصل إلى باب دارها حتى وجدت رسولاً من قبل الكردينال في إنتظارها.

وكان الرسول يحمل إليها الرسالة التالية:

«سيدتي الكونتس.. آمل ألا تكوني قد نسيت أن بيننا اتفاقاً معيناً، ويسرني أن أستقبلك الآن في المكان الذي سيقودك إليه تابعي»

لم تجد جين مفراً من تلبية الدعوة، فاستقلت المركبة التي كانت في انتظارها وذهبت إلى منزل الكردينال..

كان منزل الكردينال دي روهان من تلك المنازل الفخمة التي شيدت في عصر لويس الخامس عشر، تحيط به أشجار ضخمة تحجبه عن الأنظار وقد توفرت فيه كل وسائل الترف والرفاهية.وقاد تابع الكردينال مدام دي لاموت إلى قاعة المائدة مباشرة.. وهناك وجدت الكردينال في إنتظارها

ونهض الكردينال واقفاً. وقد تلاعبت على شفتيه إبتسامة خفيفة.. قال:

– هذا أنت يا سيدتي الكونتس؟ شكراً لك على تلبية دعوتي وتقدم نحوها ومد يده ليتناول يدها. ولكنها تراجعت إلى الخلف وهي تقول:

– معذرة يا سيدي!

فسأل: ماذا حدث؟

فقالت في كبرياء:

– لا أخالك تستقبل من أكبر منك منزلة في منزلك يا سيدي

– سيدتي!

فاستطردت. وهي تتلفت حولها في احتقار:

– ولهذا فأنت تستدعي الناس إلى منزلك دون الذهاب إليهم؟

– ولكن يا سيدتي..

– كنت آمل أن تذكر نسبي على الأقل. فلا تعمل على جرح شعوري.

– هوني عليك يا سيدتي.. فقد ظننتك أرجح عقلاً من ذلك

– سيدي.. مهما يكن من أمر فإنني أعتبر فعلتك هذه إساءة لي لا تغتفر

فقال الكردينال:

– إنك تتسرعين في الحكم يا سيدتي، فأرجو أن تصغي إلي أولاً

– حسناً، إنني مصغية إليك..

– لنبدأ أولاً بتناول الطعام؟

– شكراً لك، فلست بحاجة إلى طعامك

– ما هذا يا سيدتي؟ أترفضين تناول الطعام معي، وأنا ضيفك ؟

دهشت جين..

– وأنت ضيفي! ماذا تعني يا سيدي ؟

– أصغ إلى يا كونتس.. عندما ذهبت لزيارتك رأيتك تتذمرين من السكنى في منزل لا يليق بمكانتك، فخطر لي أن أهيئ لك العيشة الهانئة التي تتناسب مع مركزك.

واللقب الرفيع الذي تحملينه، وعولت على أن أقدم لك هذه الدار الصغيرة بما فيها هدية صغيرة فأرجو أن تتقبليها.

ركض قلب (جان) بين ضلوعها، وقالت وقد أصطبغ محياها بحمرة الخجل:

– هذا فضل كبير يا مولاي، ولا أعلم كيف أشكرك، إنني أسأت فهمك في مبدأ الأمر، ولكن يجب أن تلتمس لس العذر..

وأطرقت برأسها فقال الكردينال:

– والآن دعينا نتناول الطعام..

وحرصت (جين) على ألا ترفع القناع عن وجهها عندما بدأ الخدم يهيئون المائدة.. وملأ الكاردينال كأساً من النبيذ القبرصي المعتق. ثم قدمه إلى المرأة قائلاً:

– هيا اشربي نخب إتفاقنا يا كونتس، وآمل ألا تعامليني بخشونة بعد الآن؛ وأن تستقبليني في منزلك كلما عن لي ذلك..

فقالت:

– وهل يسعني إلا أن أنزل على رغبتك يا سيدي، فأنا لا أنسى أن المنزل منزلك على كل حال

فضحك الكردينال وقال:

– إنك مخطئة يا سيدتي الكونتس..

وسكت لحظة كأنما تذكر شيئاً فجأة، ثم هتف:

– آه.. هل عرفت شيئاً جديداً عن السيدتين اللتين جاءتا لزيارتك؟

فقالت جين مراوغة:

– هل تعني المرأة صاحبة الصورة ؟

– نعم.

– سيدي.. إنك تعرفهما أكثر ما أعرفهما أنا..

– إنك واهمة يا سيدتي

وقالت جين:

– كلا لست بواهمة،لأنه مادامت الصورة صورة ماريا تريزا فالمعقول أن ابنتها هي صاحبتها؟

فصاح الكردينال في دهشة:

– أتعنين الملكة ماري أنطوانيت؟ وهل تعتقدين حقاً أن الملكة هي السيدة التي جاءت لزيارتك؟

– ألم ترتب، في ذلك منذ الوهلة الأولى؟

– يا إلهي! كلا.. إذ كيف يمكن أن يخطر ذلك ببالي؟

إن في استطاعة أي إنسان لا يمت إلى ماريا تريزا بسبب أن يحمل صورتها معه. فأنا مثلاً أحمل صندوقاً صغيراً به صورتها. هاك هو..

وقدم إليها صندوقاً. وبداخله صورة ماريا تريزا. فلم يسع الفتاة غير الصمت

واستطرد دي روهان:

– إذن فأنت تعتقدين أن الملكة ماري أنطوانيت قد زارتك في منزلك؟

– الملكة ومعها سيدة أخرى صغيرة السن بارعة الجمال

– إذن مادامت الملكة قد زارتك. فما لا شك فيه إنك عثرت على نصير قوي. يلبث أن يضعك في الموضع اللائق بك.

– هذا ما أعتقد يا سيدي..

فسكت الكردينال لحظة. وقد بدا عليه التفكير. ثم إستطرد:

– لم يبق أمامك إذن غير اقتحام فرساى ؟

فابتسمت الكونتس. وقالت:

– هذا أمر سهل.

– يا لله! وهل تعتقدين ذلك حقاً؟ كلا يا سيدتي فالأمر أصعب ما تتوهمين.

– إذا كانت هناك ثمة عقبات فإني أستطيع أن أعتمد على نيافتكم في تذليلها ، وعلى العموم. فإن لي مطلق الحرية في دخول فرساي وقتما أشاء. فلدي ما يخولني هذا الحق

– ماذا تعنين ياسيدتي؟

– هذا من أسراري الخاصة. أحتفظ به مؤقتا.

فحدج الكردينال المرأة بنظرة تدل على الدهشة والعجب، ثم ضحك وقال:

– إذن سوف نرى.

ونهض الكردينال واقفاً. ثم تقدم نحو الكونتس، وهم بأن يتناولها بين ذراعيه ولكنها دفعته عنها بلطف. وقالت:

– أرجو أن تذكر يا مولاي إنني متزوجة ولست من الساقطات .

فتراجع الكردينال وهو يقول:

– مادام الأمر كذلك. فسأقنع اليوم بصداقتك وغداً قد تتغير الأمور.

وتنهد. فقالت:

– هذا محتمل. فإنني أستطيع أن أفكر في الأمر متى تغير الحال غداً وأصبحت في المركز اللائق بي. والآن لندع ذلك جانباً. فإنني أريدك على أن ترافقني مساء اليوم إلى الأوبرا

فبدا الذعر على وجه الكردينال. وهتف:

– أرافقك إلى الأوبرا ؟! هذا مستحيل. فمركزي لا يسمح لي بالذهاب إلى الأوبرا لحضور حفلة تنكرية.

فقالت الفتاة في تهكم:

– إن مركزك الديني لا يحول دون ذهابك. فلا أخالك تجهل أن الكردينال دي ريشيليو كان من هواة الرقص..

أسقط في يد الكردينال فأطرق برأسه إلى الأرض. ولما رفع رأسه كانت تتلاعب على شفتيه ابتسامة عريضة، وقال:

– إذن فسأذهب من أجلك.. بل وسأفعل المستحيل إذا شئت.

الفصل السابع عشر

حفلة الأوبرا

كانت الحفلة في أشد مراحلها عندما دخل الكردينال دي روهان ومدام دي لاموت إلى الأوبرا واختلطا بالمتفرجين في هدوء..

وكان شخصان يقفان في معزل عن المشاهدين تحت مقصورة الملكة أحدهما يتشح برداء أبيض مسبغ والثاني برداء آخر أسود. وهما يتكلمان في حماس ..

قال ذو الرداء الأسود:

– أؤكد لك إنك تنتظرين شخصاً معيناً يا أوليفا.. فأنت لا تكفين عن النظر إلى الباب كلما جاء قادم جديد..

– وهل يدهشك ذلك وهو ما قدمت لأجله؟

وفجأة. برز من بين المشاهدين شخص يتشح برداء أزرق. واقترب هذا الشخص من أوليفا ورفيقها..

وقال القادم يخاطب بيوسير:

– تعال يا سيدي واترك الفتاة وحدها حتى تتمتع بمباهج هذه الحفلة السارة ...

وجذبه من يده في عنف. فلما أصبحا على مبعدة من أوليفا قال ذو الرداء الأزرق:

– أرجو أن تدعني وأوليفا على إنفراد بعض الوقت يا بيوسير

– على إنفراد!

– أجل.. وماذا في ذلك؟

– كلا..

– إذن لماذا لم تأخذك هذه الحاسة في شارع دوفين؟

وقد بلغت هذه العبارة مسامع أوليفا فضحكت.. واستطرد ذو الرداء الأزرق:

– ألم تكن على وشك الفتك بهذه الفتاة. لولا سحر الأصفر الرنان فزمجر الفتى واتقدت عيناه..

قال الرجل:

– خل عنك يا صديقي. فماذا يضيريك من ذلك ما دمت تكسب كثيراً ولا تخسر شيئاً؟

– أكسب كثيراً.! لست أفهم ما تعني يا سيدي..

– ألست أحد أعضاء إحدى الأكاديميات في شارع بورت أوفير في الطابق الثاني من منزل معلوم يا مسيو بيوسير؟

فهمس بيوسير وقد إستولى عليه الذعر: صه يا هذا

فأخرج ذو الرداء الأزرق ساعة مرصعة بالألماس من جيبه. ونظر إليها ثم عاد يقول:

– ألا تعلم أن أعضاء هذه الأكاديمية الإثني عشر سيتناقشون في مشروع يعود عليهم بربح قدره مليونان من الفرنكات بعد ربع ساعة؟

– لابد أنك من رجال البوليس يا سيدي!

– لا تكن أحمق. فلو أني كنت من رجال البوليس لألقيت القبض عليك منذ زمن طويل بل أنا على العكس أريد مصلحتك.. أريد أن أمكنك من الحصول على مائة ألف فرنك على الأقل، وأنت تعلم أن من شروط هذه الجمعية أن حق العضو

في الربح يسقط بغيابه.

فبدأ التفكير على وجه بيوسير.. ثم قال:

– حسناً يا سيدي.. إلى اللقاء

وما هي إلا لحظة حتى كان قد اختفى ، وتأبط ذو الرداء الأزرق ذراع أوليفا.. وراح يجتذب معها أطراف الحديث. قال:

– لست أشك في أن أحسن ما يروقك من الحديث هو ما كان عن تاريخك يا مدموازيل نيكول.

فأفلتت من شفتي الفتاة صيحة دهشة.. ولكنها سرعان ما استردت هدوءها. قالت مراوغة:

– يا له من إسم جميل.. ولكن من تقصد بهذا الإسم يا سيدي؟

– ومن أقصد سواك.. أنا أعرف إنك تطلقين على نفسك إسم أوليفا في الوقت الحاضر. ولكني أريد أن أتحدث إليك الآن بصفتك نيكول.

هل نسيت الوقت الذي كنت تعرفين فيه بهذا الإسم؟ لا أظن ذلك يا بنيتي العزيزة، فإن الإسم الذي يطلق على الإنسان في حداثته لهو أجمل الأسماء وقعاً على السمع. ولو إضطرته ظروفه إلى تغييره في بعض الأحيان.. مسكينه أوليفا.. فقد كانت سعيدة عندما كانت تعرف باسم نيكول..

– ولماذا قلت مسكينة أوليفا. أفلا تظنني سعيدة الآن؟

– من الصعب أن يصبح الإنسان سعيداً مع رجل مثل بيوسير.

فتأوهت الفتاة من قلب حزين.

– ومع ذلك فأنت تحبينه.. تحبين رجلًا سكيرًا مقامرًا أفاقًا يتعقبه البوليس.. فماذا لا تهجرينه؟

– ليت ذلك بوسعي يا سيدي، فإنك لا تعلم حقيقة موقفي بالدقة.

– ولكن لم لا تحاولين؟

فضحكت الفتاة وهزت رأسها نفيًا. واستطرد الرجل:

– إذن فلنتحدث قليلاً عن ماضيك.. أعني مذ عرف قلبك الحب لأول مرة.. حب جيلبرت..

إنتفضت أوليفا عند سماع ذلك الإسم.. وصاحت:

– يا إلهي! هل تعرف جيلبرت يا سيدى؟

– لقد كان شابًا ظريفًا. وطالما تطلع إلى حب من هن أعلا منه طبقة..

– نعم.. هذا صحيح.. ولقد انقضت عشر سنوات منذ فراري من وجهه.. وكان ذلك بسبب ما علمت من حبه للمدموازيل دي..

– خفضي من صوتك من فضلك.

– كان يحبها إلى حد الجنون. وكنت أنا كذلك أحبه حبًا قويًا جارفًا. وقد انتهى إلى هذا الحب إلى السقوط في الهوة التي أتخبط فيها إلى الآن.

وأمسكت لحظة ثم استطردت:

– ولكن خبرني لماذا هرب جيلبرت من تريانون؟

– هذا ما لا علم لي به.. وكل ما أستطيع أن أقوله لك أن جيلبرت مات.

فهتفت الفتاة في ذعر:

– مات.. أحقًا تقول؟

– هذا هو الواقع.. ولكن لماذا هربت مع بيوسير وقتئذ؟

– ذلك لأنني أردت مغادرة تريانون بعد أن إحتقرني جيلبرت..

فقال ذو الرداء الأزرق:

–أما بقية تاريخك.. فأنا على بينة منه تمامًا.. فأنا أعرف مثلًا إنك سافرت مع بيوسير بعدئذ إلى البرتغال، حيث لبثتما عامين. وبعدئذ هجرته وسافرت إلى الآنديز مع قائد إحدى البوارج الحربية الذي أخفاك في قمرته.، وهو الذي تركك في شندرناجور عندما عاد إلى أوروبا. كما أعرف، إنك إتصلت بأحد الأمراء الهنود فسجنك في قصره.. وكان ينفق عليك ببذخ، ولكنك ضقت ذرعًا بهذه الحياة المقيدة فهربت من النافذة بعد أن أثقلت جيوبك بالمجوهرات التي أهداك إياها ذلك الأمير.ولما عدت إلى فرنسا تقابلت مصادفة مع بيوسير الذي أقنعك بأنه يحبك حتى استطاع أن يستولي على جواهرك ويبددها، ثم تركك خاوية الوفاض.

فأخفت أوليفا عينيها بيديها، ثم صاحت:

– يالله.! من أنت يا سيدي حتى تعرف كل هذا.؟

– دعينا من ذلك الآن.. ولنطرق باب أي حديث آخر، فإنني أود أن يرانا الجميع منهمكين في الحديث..

تأبطي ذراعي.. وهيا بنا نتمشى..

وما هي إلا برهة حتى كانا يمران بجماعة من علية القوم، قد وقفوا على شبه دائرة، يتوسطها رجل أنيق الهندام.. كان يتحدث إلى ثلاثة آخرين في عجلة.. بينما أصغى إليه الباقون في إحترام..

سألت أوليفا:

– من يكون هذا الشاب الذي يتشح بهذا الرداء الرمادي الفضفاض.؟

– إنه الكونت (دارتوا).. ولكن أرجوك أن تلزمي جانب الصمت الآن..

وفيما كانت (أوليفا) ورفيقها يسيران الهوينا بالقرب من تلك الجماعة إذ اقترب منهما شخصان آخران.. ووقفا معزل عن الباقين.

وقال أحد القادمين لصاحبه في صوت خافت.. ولكنه بلغ مسامع رفيق أوليفا:

– إستندي إلى هذا العامود يا كونتس..

وذعر صديق أوليفا عندما سمع ذلك الصوت..وفي هذه اللحظة اقترب شخص يتشح برداء أصفر من ذي الرداء الأزرق وقال:

– إنه هو..

– حسن جدًا..

وإلتفت ذو الرداء الأزرق إلى رفيقته أوليفا.. وقال:

– دعينا الآن نروح عن أنفسنا قليلًا.

– ليت ذاك بعد إذ أثرت الحزن في نفسي بحديثك عن الماضي.

فقال الرجل المجهول:

– إصغي إليَ.. عليك أن تنفذي ما سأقوله لك الآن بدقة.

– نعم..

– هل ترين ذلك الألماني الذي يتشح بالرداء الأسود. إنه أحد أصدقائي. وبالرغم من إنني طلبت إليه مرافقتي إلى الحفلة ورفضه معتذرًا بأنه مريض. فقد جاء ومعه إحدى السيدات.

– ومن هي السيدة التي ترافقه؟

– لست أعرف من تكون. بيد إننا سنذهب إليها الآن. وسأدعي إنك ألمانية الأصل، ولذلك يجب أن تلزم الصمت المطلق وإلا كشفوا الحقيقة.

والآن أشيري إلى ناحيته بمروحتك.

– حسن جدًا. إهمسي إليَ.

فأطاعت أوليفا تلك الأوامر العجيبة. وهي في دهشة من الأمر. فسر ذلك رفيقها كل السرور. وكان ذو الرداء الأسود موليًا ظهره نحو أوليفا وصاحبها. بيد أن رفيقته لاحظت الإشارة والحديث الذي دار بين الاثنين.

قالت: كن حذرًا يا سيدي.. فإن هنالك من يرقبنا.

– لا تخشى شيئًا يا كونتس. فليس في استطاعة أحد أن يعرفنا.

– صه! فإن الجواسيس يقتربون.

فقال الكردينال في قلق:

– جواسيس! إذن غيري من نبرات صوتك ما استطعت.

والواقع إن أوليفا ورفيقها إقتربا من الكردينال والكونتس في تلك اللحظة.

وقال رفيق أوليفا للكردينال: سيدي..

فقال الكردينال في صوت حاول جهده أن يجعله مغايرًا لصوته الطبيعي:

– ماذا تريد؟

– إن السيدة التي ترافقني أرادتني على أن ألقي عليك بضعة أسئلة.

فقال الكردينال: سل ما تريد..

وقالت مدام دي لاموت: هل هي أسئلة خاصة؟

فقال الغريب: أجل يا سيدتي..

والتفت إلى أوليفا. وأسر إليها شيئًا. فهزت رأسها دلالة على الموافقة وبدأ الرجل الغريب حديثه مع الكردينال قائلًا بالألمانية:

– سيدي.. ليت شعري هل الصلة التي تربطك بالسيدة التي ترافقك صلة الحب والعاطفة.

ارتجف الكاردينال. وقال:

– إنك مخطئ يا سيدي. فإني لست الشخص الذي تعتقد.

– لا تحاول الإنكار يا سيدي الكردينال. فلو أني لا أعرفك شخصيًا إلا أن رفيقتي تعرفك جيدًا.

ثم همس في أذن أوليفا:

– هزي رأسك دلالة على الموافقة. كلما ضغطت ذراعك.

وهزت الفتاة رأسها علامة الموافقة.

قال الكردينال:

– إنك تدهشني يا سيدي! فمن تكون هذه السيدة؟

– يالله كنت أعتقد إنك عرفتها يا سيدي كما عرفتك هي منذ النظرة الأولى.. حقًا إن الغيرة..

فصاح الكاردينال:

– هل تغار على السيدة؟

– هذا واضح يا سيدي، وإلا لما حدثها قلبها بما حدثتك به.. كما أن الجميع يدركون ذلك.

ضاقت مدام دي لاموت ذرعًا بحديث الرجلين لجهلها اللغة التي يتكلمان بها.

هتفت في ضجر:

– عم تتحدثان؟

– لا شيء. لا شيء..

وقال الكردينال لأوليفا محاولًا معرفة شخصيتها:

– هل تتكرم سيدتي برفع صوتها حتى أعرف من تكون؟

لم تدرك أوليفا كلمة واحدة من حديث الكردينال. فهمست في أذن رفيقها المجهول. بينما وقف الكردينال يرقبها في شيء من الذعر والقلق.

وقال دي ردهان لأوليفا:

– لو تكرمت سيدتي برفع صوتها لانتهى كل شيء.

وللمرة الثانية همست أوليفا في إذن رفيقها كأنما تصدر إليه أمرًا معينًا.

فتحول الغرب إلى الكردينال. وقال:

– هذه هي الكلمات التي أمرتني رفيقتي أن أبلغها إلى نيافتك: «إن من لا يحن إلى أليفه كل لحظة.. فليس هو بالمحب المخلص في حبه مهما كان إدعاؤه الحب قويًا».

جمد الكردينال في مكانه. وبدت على وجهه سيماء الدهشة.. وآيات والعجب.

وغمغم بالفرنسية: هذا مستحيل!

وسمعت مدام دي لاموت هذه الكلمات.. فسألت وهي في حيرة من هذه الألغاز:

– وما هو هذا المستحيل؟

– لا شيء يا سيدتي! لا شيء!

فقالت وهي تجذب ذراعها من ذراع الكردينال في غضب:

– سيدي.. لقد أهنتني!

لم يأبه الكاردينال للكونتس.. وإنما تحول إلى رفيقة الرجل المجهول وقال:

– يا سيدتي.. إن الكلمات التي نطق بها رفيقك بالألمانية نقلًا عن لسانك، هي نفس الكلمات التي قرأتها مكتوبة بالألمانية في منزل أكبر ظني إنك تعرفينه.

فضغط ذو الرداء الأزرق ذراع أوليفا فأومأت برأسها علامة الموافقة..

واستطرد الكردينال:

– أليس هذا المنزل هو المسمى شكيونبرن؟

وللمرة الثانية هزت أوليفا رأسها دلالة الموافقة

– وهي مكتوبة على منضدة مصنوعة من خشب الورد؟

فهزت أوليفا رأسها أيضًا..

وشعر الكردينال بقواه تخور.. واستند إلى العامود خشية السقوط على حين وقفت مدام دي لاموت ترقب الجميع في دهشة.

ولمس الكردينال ذراع الرجل المجهول. وقال:

– أما خاتمة هذه الكلمات التي ذكرتها عن لسان السيدة فإنني أذكرها جيدًا.. إذ تقول: «أما ذلك الذي يرى المحبوب في كل شيء حوله.. في الزهور.. وفي الهواء.. وفي كل عنصر من عناصر الطبيعة فهو السعيد حقًا».

وفجأة. سمع الجميع صوتًا يقول:

– يالله! إنهم يتحدثون بالألمانية.. دعنا نصغي إليهم.. هل تتكلم الألمانية يا ماريشال؟

فإلتفت الكردينال ورفاقه ناحية مصدر الصوت فرأوا نفرًا قليلًا يقترب منهم. وفيما كان الجميع ينظرون إلى القادمين. إذ صاح ذو الرداء الأزرق يحدث القادمين:

– حذار أيها السادة..

فأجاب صوت عرف الجميع فيه صوت الكونت دارتوا:

– يا الله.. إن الجماهير تدفعنا من الخلف..

وإمتدت يد خفية إلى قناع أوليفا فأزاحته فجأة..

وأسرعت الفتاة تعيد القناع فوق وجهها. وقد بدرت منها صيحة تدل على الفزع.

وبالرغم من إسراع الفتاة في رد القناع إلى مكانه. إلا أن الحاضرين جميعًا إستطاعوا تمييز ملامحها. فأفلتت من شفاههم صيحات تذل على الدهشة.. وكاد يغمى على الكردينال حين تبين وجه أوليفا..

وكان الضغط قد إشتد فتفرقت جماعة الكونت.. وأسرع الرجل المجهول يقترب من الكردينال وهمس:

– يا لسوء الحظ.. لقد بات شرف هذه السيدة تحت رحمتك يا سيدي.

فغمغم الكردينال: يالله.

وقال الغريب لأوليفا: هلمي بنا..

أما مدام دي لاموت فقالت لنفسها:

– لقد أدركت الآن ماذا كان الكردينال يقصد بكلمة «مستحيل» إنه اعتقد إن هذه المرأة هي الملكة.. ولكن يالله.؟ أي أثر أحدثه ذلك في نفسه؟!

قال الكردينال للكونتس في صوت خافت وهو يشعر بحاجته الشديدة إلى الانصراف للاختلاء بنفسه:

– ما رأيك في هذه الحفلة؟ إنني لا أراها شائقة بحيث تغرينا على البقاء..

وشقا طريقهما وسط المتفرجين حتى استطاعا الوصول إلى الباب..

وفيما كان الكاردينال والكونتس في المركبة. سألت جين:

– إلى أين ستأخذني المركبة يا صاحب النيافة؟

– إلى منزلك الجديد في فوبرج يا كونتس.

فأطرقت الكونتس برأسها ولزمت الصمت. فلما وقفت المركبة أخيرًا نزلت جين.

وكاد الكردينال يتبعها ولكنها أوقفته بإشارة من يدها وقالت:

– إن الوقت متأخر جدًا يا صاحب النيافة.

فقال:

– إذن إلى اللقاء.

وأمر السائق بالمسير.

***

ودخلت جين منزلها الجديد بمفردها. فوجدت ستة من الخدم في انتظارها في الردهة.

سألت: وأين الخادمات؟

فتقدم أحد الخدم خطوة. وقال في إحترام:

– إن إمرأتين تنتظران سيدتي في غرفتها.

– إذهب وادعهما!!

وعاد الخادم بعد لحظات مع المرأتين، سألتهما جين:

– أين تنامان؟

فقالت إحدى المرأتين:

– ليس لنا مكان معلوم حتى الآن يا سيدتي.

– وأين مفاتيح الدار؟

– ها هي يا سيدتي.

– حسنًا ستنامان الليلة بالخارج!!

فنظرت المرأتان إلى بعضهما في دهشة وحيرة:

فسألت الكونتس:

– ألا تعرفان مكانًا تلجأن إليه؟

– كلا.. ولكن الوقت متأخرًا يا سيدتي..

فقالت جين:

– إن الرجال سيرافقونكما أيضًا..

فبدا السرور على وجه الخدم جميعًا.. وسأل أحدهم:

–ومتى نعود غدًا يا سيدتي؟

– عند الظهر!!

ومدت يدها فأخرجت من جيبها حفنة من الذهب قدمتها إلى رئيسهم وأمرته بتوزيعها عل زملائه..وانصرف الخدم وهم يعجبون من تلك المرأة التي تصرفهم في الليلة الأولى من قدومها إلى الدار..

أما جين فقد طافت بغرف المنزل وهي تتأمل رياشه الثمين وأثاثه الفاخر الأنيق.

وآوت إلى مخدعها وقد ارتسمت على شفتيها إبتسامة سعيدة.

الفصل الثامن عشر

أكاديمية بيوسير

قصد بيوسير إلى شارع بونت أوفير عملًا بنصيحة الرجل المجهول.وكان صدره يغلي من الحقد على زملائه لأنهم أخفوا عنه أمر الاجتماع، حتى لقد عول على الثأر منهم.. ولما وصل إلى المنزل المنشود راح يرتقي الدرج في تناقل حتى وصل إلى مركز الأكاديمية في الطابق الثاني.

وكانت الردهة مزدحمة بالكثيرين وهم يقامرون في حماسة ويجرعون كؤوس الخمر مترعة. ولم يكد بيوسير يدخل الردهة حتى قابلته بعض النسوة بابتسامة تدل على السخرية. ولكنه لم يأبه لهن وتقدم في هدوء ناحية مائدة اللعب.

وقابله أحد زملائه ضاحكًا.. وقال في دعابة:

– ما وراءك يا عصام؟

وقال آخر:

– لقد خاننا بيوسير.. إذ يبدو أنه قامر في مكان آخر وخسر.

فزمجر بيوسير وصاح:

– لست أنا الخائن. وإنما أنتم الخونة.. فقد اتضح لي مع الأسف إنني كنت مخدوعًا.. إنكم دبرتم إحدى الخطط بدوني.

فأسرع بعضهم يحتج على تلك الإهانة. فقاطعهم بيوسير قائلًا:

– إنني أعرف كل شيء. والويل للأصدقاء المزيفين.

ومد يده كأنما ليجذب حسامه. بيد أنه أدرك أنه ترك الحسام في المنزل. فسحب

يده ثانية. ولكن رفاقه سمعوا رنين الذهب الذي يحمله في جيبه.

هتف أحدهم:

– يالله! إن مسيو بيوسير لم يخسر وإنما كسب.. هيا يا صديقي ودعنا نلعب؟

– شكرًا لك ، فإنني أفضل إستبقاء ما معي.

وقالت إحدى النساء في لطف:

– لنلعب بلويس واحد فقط.

– إنني لا ألعب من أجل لويس واحد حقير. فسنلعب الليلة بالملايين أيها الإخوان.

كان الهياج باديًا على بيوسير.. وفجأة أحس بيد توضع على كتفه. فأسرع يدور على عقبيه فألقى نفسه أمام شخص ضخم الجثة أسمر الوجه.

وأحنى القادم قامته لبيوسير. فهدف الأخير: البرتغالي!!

وصاحت النساء وهن يتجمهرن حول القادم: البرتغالي!!

كان القادم يتمتع بعطف الجميع ومحبتهم، لما كان يبذله في سبيلهم واهتمامه بشأنهم ، ولما وقع بصر بيوسير على القادم لزم الصمت..

وجذب البرتغالي أحد المقاعد وأخذ مكانه بين اللاعبين، فسرعان ما خسر عشرين لويسًا دون أن تنظر عليه دلائل التذمر أو الغضب.

***

ولما فرغوا من اللعب، بدأوا ينصرفون، فرادى.. فرادى.. بيد أن بعضهم كان يعود من باب آخر ويدخل إلى قاعة فسيحة تنتصفها مائدة مستطيلة. وماهي إلا دقائق قليلة حتى كان إثنا عشر رجلًا يجلسون حول تلك المائدة.

وصاح بيوسير: هل لكم في الايضاح.؟

فقال البرتغالي بالفرنسية الفصحى:

– خفض من صوتك أيها الأحمق..

ونهض إلى النوافذ والباب فأغلقها، ثم عاد إلى مكانه رفاقه واستطرد:

– إن عندي أنباء هامة أزفها إليكم أيها الأخوان..

فحاول بيوسير أن يتكلم، ولأن البرتغالي أوقفه بإشارة من يده وأردف:

– إنني جئت أعرض عليكم مشروعًا مدهشًا..

فصاح الجميع:

– وما هو هذا المشروع.؟

فقال بيوسير:

– إنه مشروع يتعلق بمليوني فرنك.

هتف الجميع: مليوني فرنك!

وقال البرتغالي:

– إنك تبالغ يا صديقي.

وقال أحدهم:

– إننا لا نعرف عما تتكلمان.

فجرع البرتغالي قدحًا من النبيذ.. ثم قال:

– إن العقد لا تقل قيمته عن مليون وخمسمائة ألف فرنك.

فصاح بيوسير: إذن فالأمر يتعلق بعقد؟

– نعم..

ثم تحول إلى بقية رفاقه وقال:

– إن الوقت ضيق. فسيصل السفير البرتغالي في مدى ثمانية أيام.

فقال أحد الأعضاء:

– ونحن مازلنا أجهل من دابة.. ما العلاقة بين العقد والمليون ونصف فرنك.. والسفير. فهل لك أن تفصح؟

فقال البرتغالي:

– إصغوا إليَ.. لقد عرض السيدان بوهمر وبوساناج عقدًا بهذه القيمة على جلالة الملكة. ولكنها اعتذرت من شرائه. وبذلك وجد التاجران نفسيهما في مأزق حرج. فإن أحدًا لا يستطيع أن يبتاع عقدًا هذه القيمة الباهظة.. بيد إنني عثرت من سيشتري العقد.. أعني إن ملكة البرتغال قررت شراءه.

فقال بيوسير:

– لازلنا نجهل الغرض من كل هذا يا سيد عمانوئيل.. فأرجوك الإيضاح..

فجرع عمانوئيل كأسًا أخرى من النبيذ.. واسترسل قائلًا:

– حسنًا.. أصغوا إليَ.. إن السفارة خالية الآن ولن يصل السفير الجديد –الدون دي سوزا– قبل مضي أسبوع.

نظر الجميع بعضهم إلى بعض في حيرة.. ولكن بيوسير قال:

– وأيهما الذي سيصل قبل هذا الموعد أهو الدون دي سوزا الحقيقي أم المزيف.

فهتف عمانوئيل:

– مرحى.. مرحى.. ما أذكاك يا فتى.. إن الدون دي سوزا المزيف هو الذي سيتقدم لشراء العقد لحساب جلالة ملكة البرتغال..

فقال أحدهم معترضًا:

– ولكن هل نسيت أن أصحاب العقد لن يسمحوا للدون دي سوزا المزعوم

بأخذ العقد دون أن يدفع إليهم التأمين المناسب..

– مهلًا يا صديقي فقد فكرت في كل شيء.. إن منزل السفير خال. لا يشغله في الوقت الحاضر غير مستشار السفارة وهو رجل فرنسي يتكلم البرتغالية بصعوبة ولذا فهو يرحب بالبرتغاليين الذين يتحدثون إليه بالفرنسية..وعلى هذا الأساس وضعت الخطة إذ سنقدم أنفسنا إلى هذا المستشار باعتبارنا رجال المفوضية الجدد.

فسأل بيوسير:

– وأنى لنا بالوثائق والمستندات التي تمكننا من إثبات صحة إدعائنا؟

فأجاب عمانوئيل: ستكون معنا هذه الوثائق.

قال بيوسير:

– لا يستطيع إنسان أن ينكر أن الدون عمانوئيل رجل مدهش!

واستطرد عمانوئيل:

– وعندما يتأكد المستشار من إننا رجال المفوضية الجدد. سنحتل السفارة.

فقال بيوسير: هذه خطوة جريئة.. وخطرة.

– ولكنها ضرورية وسهلة.. وسنعمل على إقناع المستشار بكل الطرق فإذا بدر منه ما يدل على الريبة طردناه من السفارة. فإن من حق السفير أن يغير مستشاره..

– هذا صحيح.. يا لك من نابغة.

– فإذا ما أصبحنا سادة السفارة هان كل شيء..

وقال بيوسير:

– ولكن أغاب عنك إن أول واجبات السفراء الجدد هو مقابلة الملك؟ فكيف السبيل إلى تذليل هذه العقبة ؟

– في استطاعتنا أن نتجنب هذا الخطر بالبقاء في السفارة دون مقابلة الملك.

– في هذه الحالة لن يصدق مسيو بوهمر إننا رجال السفارة الجدد.

– ونحن لسنا بحاجة إلى تصديقه لأننا سنذكر له فقط إننا إنما جئنا خصيصًا لشراء العقد. وسنطلعه على الأمر الصادر إلينا بهذا الصدد.. وهو الأمر الذي سنطلع عليه مستشار السفارة أولًا.. على إنه يلزمنا الحذر من مقابلة الوزراء وإلا اكتشف أمرنا.

سأل بيوسير:

– وكيف السبيل إلى دفع ثمن العقد ونحن لا نملك من الوثائق ما يخولنا التصرف في المبلغ الذي ستعرضه ملكة البرتغال ثمنًا للعقد.

فقال عمانوئيل:

– إنك تضع العراقيل في سبيل نجاح المشروع. دون البحث عن مخرج من هذه المآزق.

– إنني أتحدث عن العراقيل، لأنني أريد المشروع أن ينجح.. ولكن صبرًا. لقد خطرت لي فكرة، ألا توجد خزانة في كل سفارة؟

– أجل.. ولكن يحتمل أن تكون خاوية.

– حسنًا.. إذا كانت خزانة السفارة البرتغالية خاوية فيمكننا أن نعطي توكيلًا منا لوكيل مسيو بوهمر في لشبونه كي يصرف المبلغ.

فهتف عمانوئيل: هذا هو أوفق حل للمشكلة.

واستطرد بيوسير:

– فلنتكلم الآن في التفاصيل. سيقوم الدون عمانوئيل بدور السفير.

فصاح الجميع: نعم.. نعم..

وقال عمانوئيل:

– وسيكون مسيو بيوسير سكرتيري الخاص.

فسأل بيوسير في قلق: – ولماذا؟

– ذلك لأن الدون دي سوزا لا يتكم الفرنسية. ومادمت سأمثل دوره فيتعين عليَ أن أبحث عن سكرتير يتكلم اللغتين البرتغالية والفرنسية.ولا تنس أيضًا أن ممثلي الأدوار الرئيسية في المؤامرة سيحصلون على نصيب أكبر.

– حسنًا.. إذن فقد اتفقنا وسأقوم بدور السكرتير المترجم..

وقال عمانوئيل:

– وسنقسم المبلغ إلى إثنى عشر قسمًا. ولما كنت أنا مدبر الخطة وممثل الدور الرئيسي فيها فسآخذ قسمًا ونصف. كما سيأخذ مسيو بيوسير نصيبًا مساويًا. وكذلك سيأخذ من يتمكن من بيع العقد. أما بقية المبلغ فسيوزع على الباقين بالتساوي.

ثم بدأوا يتناقشون فيما يجب عمله.. فقرروا استئجار مركبة فاخرة تتناسب مع مقام السفير.. كما إستقر الرأي على أن يصل السفير إلى دار السفارة أولًا.. وفي المساء يصل بقية رجال السفارة..

وأخيرًا فض الإجتماع بعد أن أحصى الشركاء ما لديهم من مال.. وقسموه إلى ثلاثة أقسام.. إستولى عمانوئيل على قسم وبيوسير على قسم آخر. أما القسم الثالث فقد وضع في خزانة العصابة للطوارئ..

***

وأسرع بيوسير بالذهاب إلى شارع (دوفين) وهو يرجو أن تكون أوليفا قد حصلت على شيء من النقود.

***

وفي مساء اليوم التالي مرت إحدى المركبات من شارع (بارير دنفر) وقد تراكمت

عليها طبقة من التراب والطين. وكانت جيادها الأربعة تنهب الأرض نهبًا، حتى إذا وصلت إلى دار السفارة البرتغالية في شارع (دي لاجوسين) جذب الحوذي عنان الجياد وأوقف المركبة.

وتقدم رجل كان واقفًا عند باب السفارة من العربة، وبدأ يتحدث إلى راكبها بالبرتغالية الركيكة..

فقال راكب العربة بالبرتغالية الفصحى:

– من تكون يا هذا ؟

– إنني مستشار السفارة يا سيدي.

– حسنًا.. ولكن يالله.! إنك ضعيف في لغتنا القومية يا أيها المستشار العزيز..

وفتح المستشار باب العربة، فهبط السفير من الداخل وهو يتوكأ على ذراع سكرتيره وخادمه الخاص..

وقال المستشار:

– أرجو المعذرة يا سيدي، فإن الرسول الذي جاء يحمل إلينا نبأ وصولكم لم يصل إلا في الساعة الثانية، وكنت وقتئذ متغيبًا عن دار السفارة. ولما عدت ووجدت نبأ قدومكم لم أجد في الوقت متسعًا لإعداد ما يلزم لاستقبالكم.وإنه ليسرني كل السرور أن أرحب بسفيرنا العظيم..

فأجاب الدون عمانوئيل:

– إصغ إليَ.. يجب ألا تذيع على الملأ نبأ قدومنا ريثما تصلنا أوامر جديدة من لشبونة. والآن. أرجو أن تقودني إلى غرفتي فإنني متعب وأريد الراحة.. وسيعطيك سكرتيري جميع التعليمات اللازمة.

فأحنى المستشار قامته لبيوسير إحترامًا. فإنحنى له الأفاق بدوره.

وقال بالفرنسية:

– دعنا نتحدث بالفرنسية يا سيدي.. فذلك أنسب لنا عن الاثنان.

وغمغم المستشار:

– حسنًا تفعل يا سيدي. فإني لست ملمًا باللغة البرتغالية تمامًا.. وهو أمر آمل ألا يضايق الدون دي سوزا.

أجاب بيوسير: كلا.. إن ذلك لا يضايقه على الإطلاق مادمت تتكلم الفرنسية.

فصاح المستشار: الفرنسية! إنني من مواليد فرنسا يا سيدي.

– حسنًا.. أليس إسمك (دوكرنو)؟

– نعم.. ويسرني إنك تعرف إسمي.

وفي هذه اللحظة دق السفير الجرس فأسرع المستشار والسكرتير لتلبيته. ووجدا الدون دي سوزا مرتديًا بيجامة فاخرة. بينما كانت الحقائب مفتوحة. وقد ظهرت محتوياتها للناظرين.

قال السفير: أدخلا..

وسأل دوكرنو بيوسير في صوت خافت:

– هل يتضايق السفير إذا أجبته بالفرنسية؟

– كلا.. كلا.. أنا واثق من ذلك.

وعلى ذلك فقد أعرب مسيو دوكرنو عن غبطته الشديدة بقدوم السفير الجديد باللغة الفرنسية.

قال السفير: يسرني إنك تتكلم الفرنسية يا مسيو دوكرنو.

ثم قال بعد لحظة:

– هل يمكنني أن أتناول طعام العشاء.؟

– بكل تأكيد يا مولاي.. وسأرسل في طلبه، وإذا شئتم قدمت إليكم بضع زجاجات من الخمر المعتق..

فقال بيوسير ضاحكً:

– إن مستشارنا يحتفظ بمخزن يحوي خمرًا معتقًا..

وقال السفير:

– حسنًا.. يمكنك أن تحضر ما تشاء يا مسيو دوكرنو..

وأسرع المستشار بمغادرة الغرفة.. ولما أصبح الدون عمانوئيل وسكرتيره بيوسير وخادمه الخاص –وكانوا يطلقون عليه لقب الكابتن– على انفراد، سأل عمانوئيل:

– أينام المستشار هنا؟

– كلا.. لا أظن ذلك. بيد أنه يوجد إلى جانب المستشار بضعة خدم آخرين وجب أن تتخلص منهم غدًا ليحل رفاقنا محلهم..

فقال عمانوئيل: حسنًا.. ولكن ماذا عندك بشأن الخزانة ؟

أجاب بيوسير:

– دع الأمر لي.. وسأتكلم مع المستشار بخصوصه..

– صه.. ها هو قد قدم..

ودخل دوكرنو الغرفة في تلك اللحظة.. يتبعه أحد خدم المطعم وقد حمل صينية تحوي ما لذ وطاب وخمر معتق.ودعا عمانوئيل مسيو دو كرنو لمشاطرته العشاء.. ولما بدأوا في تناول الطعام سأله السفير:

– متى وصلت آخر رسالة.؟

– بمجرد رحيل سلفكم يا مولاي.

– وهل كل شيء على ما يرام في السفارة؟

– نعم يا يبدي..

– وليست هناك عقبات مالية أو ديون؟

– كلا يا سيدي.

– إن الواجب يقضي علينا أن ندفع لكل ذي حق حقه.

– كل شيء على ما يرام يا مولاي.. فقد وصل مبلغ مائة ألف فرنك إلى دار السفارة قبل رحيل السفير السابق بيوم واحد.

صاح بيوسير: مائة ألف فرنك؟

– نعم..

فقال بيوسير: إذن فالخزانة عامرة..

– بمائة ألف وثلثمائة وثمانين فرنكًا يا سيدي.

وقال عمانوئيل في احتقار:

– هذا مبلغ ضئيل.. وإنه لمن دواعي السرور إن جلالتها قد وضعت مبالغ أخرى تحت تصرفي.

والتفت السفير المزيف إلى سكرتيره وقال:

– ألم أقل لك إننا سنحتاج إلى بعض المال في باريس؟

فأجاب بيوسير في إحترام:

– إن سعادتكم تتخذون الحيطة دائمًا.

***

وكان مسيو دوكرنو مغتبطًا لأن العناية الإلهية أرسلت إليه سفيرًا يفضل اللغة

الفرنسية على البرتغالية.وعندما فرغ الدون عمانوئيل من تناول الطعام أعرب عن رغبته في الذهاب إلى مخدعه مباشرة.

فلما كان اليوم التالي. بدت في دار السفارة حركة تدل على استئناف العمل فيها. ففتحت جميع المكاتب أبوابها استعدادًا لإستقبال الزائرين.وانتشر في الحي نبأ وصول قوم عظماء من البرتغال أثناء الليلة الماضية.

ولم يضيع المتآمرون لحظة واحدة في إنجاز مؤامرتهم خشية أن يصل السفير الحقيقي. فتحل الطامة الكبري.

***

ولما كان الظهر. ارتدى الدون عمانوئيل ملابسه. ثم استقل عربته وذهب إلى محل بوهمر يصحبه سكرتيره بيوسير.وطرق خادمهما الباب. وما هي إلا ثوان حتى فتحة لهم أحد الخدم.

أسرع بيوسير يقول:

– إن مولاي السفير يريد التحدث إلى مسيو بوهمر.

وهبط السفير من المركبة بعد بضع ثوان. فاستقبله مسيو بوهمر في احترام.

قال بيوسير يخاطب بوهمر:

– إن مولاي لا يتكلم الفرنسية. فوجب إذن أن نتحدث إليه بواسطتي.. هذا إلا إذا كنت تعرف البرتغالية.

ولما كان مسيو بوهمر لا يعرف البرتغالية. فقد بدأ بيوسير عمله كمترجم بينهما، قال:

– إن جناب السفير –الكونت دي سوزا– مفوض من قبل جلالة ملكة البرتغال لشراء عقد ثمين.

فبدت في عيني بوهمر نظرة تدل على الريبة. وسأل:

– عقد ثمين؟

– نعم.. وقد سمعت جلالة ملكة البرتغال عن العقد الذي رفضت جلالة ملكة فرنسا شراءه، فبعثت سفيرها في باريس للحصول عليه.

فأجاب بوهمر:

– معذرة يا سيدي.. فإن لي شريكًا يجب أن أطلعه على الأمر، حتى إذا سمح بعرض العقد عرضته في حضرته.

– حسنًا يا سيدي.. إذهب وناد شريكك.

وتحول عمانوئيل إلى سكرتيره وخاطبه بالبرتغالية. فالتفت بيوسير إلى بوهمر وقال:

– يقول مولاي إن أسرع فليس لديه متسع من الوقت للانتظار.

فأحنى بوهر قامته احترامًا. ودق الجرس. فلم تمض بضع ثوان حتى كان ميو بوساناج في الغرفة.

وأوضح بوهمر لشريكه سبب زيارة السفير. فغادر مسيو بوساناج الغرفة ثم عاد بعد لحظات وهو يحمل في يده حقيبة المجوهرات.. بينما كان يخفي يده الثانية داخل معطفه.. بيد أن بيوسير استطاع أن يدرك إنه يخفي مسدسًا في جيبه.

وتقدم مسيو بوساناج من السفير. وناوله الحقيبة.. فما فتحها عمانوئيل وألقى عليها نظرة سريعة لم يلبث أن قذف بها إلى الأرض وهو يصيح في غضب:

– خبر هذين السيدين إنها غير مؤدبين.. فقد طلبت منهما إطلاعي على عقد معين. فجاءاني بعقد مزيف.. خبرهم أنني سأرفع أمرهما إلى الوزراء ليلقوا بهما في غياهب الباستيل لأنهما حاولا خداع سفير إحدى الدول الأجنبية.

قال هذا ونهض واقفًا في كبرياء وعظمة..

أما بيوسير فقد إلتفت إلى التاجرين.. وقال:

– طلب إليَ مولاي أن أخبركما إنه يأسف لأن مسيو بوهمر ومسيو بوساناج – جواهرجي جلالة الملكة– لا يعرفان كيف يفرقان بين أفراد الشعب وسفراء الدول الأجنبية..

فأسرع التاجران يعتذران. ولكن عمانوئيل غادر المكان دون أن يأبه لهما..وهرول بيوسير خلف السفير المزيف.. وراح ينهره لتصرفه الذي سيفقدهم الصفقة.

فقال عمانوئيل:

– إطمئن.. فلن يلبث المغفلان أن يأتيا إلينا بعد ساعة.

***

وكان دوكرنو يتناول طعام الغداء في مكتبه عندما عاد السفير ورفيقاه من الخارج..

وطلب السكرتير من المستشار أن يسارع بمقابلة السفير.. وأضاف:

– ولسوف تجد أن الدون دي سوزا ليس من الرجال العاديين.. فهو يريد أن يحتل مركزًا ممتازًا من المجتمع الباريسي. ولما كانت دار السفارة لا تصلح لإقامة رجل مثله. فأكبر الظن أنه سيحتاج إلى إستئجار منزل خاص في المدينة..

فأجاب دوكرنو:

– ولكن ذلك يعرقل سير الأعمال السياسية.. إذ سنضطر دوامًا إلى الانتقال من السفارة إلى منزله لنعرض عليه الأوراق ونوقعها منه.

– لاتجزع فإنه سيضع إحدى المركبات تحت تصرفك لهذه الغاية.

– ماذا تقول؟ يضع مركبة تحت تصرفي؟

– نعم، وهل في ذلك غرابة.. إن مستشاري جميع السفارات يتمتعون بهذا

الامتياز.. ولكن دعنا من ذلك الآن فإن مولاي يريد أن يعرف مكان الخزانة.

– إنها في الطابق الثاني بجوار غرفته.

–ولماذا؟ أتوضع الخزانة بعيدة عن غرفة المستشار؟

– نعم يا سيدي. فإن وضعها بالطابق الثاني وبجوار غرفته آمن كثيرًا من وضعها في الطابق الأرضي.

– هل يمكن أن أراها الآن؟ فإن لدي من الأعمال الهامة ما قد لا يمكنني من قضاء وقت طويل معك.

– كما تشاء يا سيدي.

ولما صعدا إلى الطابق الثاني. قصدا إلى غرفة الخزانة على الفور.. وهناك قام بيوسير بجرد المال الموجود بالخزانة. وكان دوكرنو قد أعطى مفتاح الخزانة لبيوسير فغافله السكرتير وأخذ بصمة المفتاح فوق قطعة من الشمع.

ثم أعاد المفتاح إلى دوكرنو.. وقال:

– احتفظ به معك يا مسيو دوكرنو.

وعاد الاثنان إلى غرفة السفير. فوجداه منهمكًا في قراءة ورقة مكتوبة بالجفرة

وسأل السفير:

– هل تعرف الجفرة المستعملة حديثًا في المخاطبات الرسمية يا مسيو دوكرنو؟

– كلا يا مولاي.

– بودي أن تتعلمها لتوفر عليَ متاعب جمة.

ثم تحول إلى بيوسير وسأل:

– هل أحصيت المال الموجود في الخزانة؟

– نعم يا مولاي. ووجدته على ما يرام.

– حسنًا. أرجو أن تجلس يا مسيو دوكرنو فإنني أريد الحصول منك بعض المعلومات. هل تعرف جوهريًا أمينًا في باريس؟

– إن مسيو بوهمر ومسيو بوساناج هما أشهر جواهرية باريس يا سيدي.. هذا فضلًا عن أنهما جواهرية ملك فرنسا.

– إنني لا أريد أن أتعامل معهما. فقد عدت الآن من حانوتهما بعد أن عولت على أن لا أقصدها مرة أخرى مهما كان الأمر.

– وهل فعلًا شيئًا أغضب مولاي؟

– أجل يا مسيو دوكرنو.. لقد أساءا إلى كل الإساءة، وبذلك أضاعا من أيديهما صفقة تقدر بمليوني فرنك.. لقد أرسلتني جلالة ملكة البرتغال لأعرض عليهما شراء عقد من الماس.

– هل تعني ذلك العقد المشهور الذي أمر جلالة الملك الراحل بصنعه خصيصًا لمدام دوباري!

– أجل.. ولكنني –مع الأسف– لن أشتريه.

– هل تسمحون لي بالتدخل في الأمر بصفة سياسية.؟

– هل تعرفهما؟

– إن صلتي ببوساناج صلة القرابة يا سيدي..

وفتح باب الغرفة في تلك اللحظة ودخل أحد الخدم ليعلن قدوم مسيو بوهمر ومسيو بوساناج.. فنهض الدون عمانوئيل واقفًا وقد تجهمت أسارير وجهه..

وصاح في غضب: أطردوهما.

وهم الخادم بالانصراف لتنفيذ الأمر. بيد أن السفير أوقفه بإشارة من يده، ثم

تحول إلى السكرتير وقال:

- إصرفهما أنت!

فقال دوكرنو: هل تسمح لي بمقابلة الرجلين يا سيدي؟

وغادر السكرتير الغرفة بصحبة دوكرنو، فوجدا بوهمر وشريكه في غرفة إنتظار السفارة وقد بدا عليهما القلق..ولم يكد بوساناج يرى قريبه.. حتى أسرع يعانقه.!

فقال دوكرنو: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لقد جئت لأسألك صنيعًا !

- وما هو هذا الصنيع؟

لقد جاءنا شخص لشراء العقد المشهور، وقال إنه سفير البرتغال الجديد، ولما كنا نعرف أن السفير الجديد لم يصل إلى باريس بعد فقد داخلتنا الريبة و..

فقاطعه بيوسير قائلًا:

- معذرة يا سيدي! لقد أمرني مولاي السفير بأن أطلب إليكما الإنصراف على الفور من دار السفارة..

فقال بوساناج: لقد جئنا نعتذر عما بدر منا..

فصاح بيوسير في حنق:

- لا فائدة من ذلك الآن.

وحاول بوساناج الكلام. ولكن قريبه المستشار دفعه نحو الباب وهو يقول:

- لقد أضعت من يدك صفقة رابحة يا عزيزي الأحمق.

فالتفت بوساناج إلى شريكه بوهمر وقال:

- ألم أخبرك بأن ريبتك هذه ستفسد علينا كل شيء؟

ضحك دوكرن. وقال:

– الحق إنكما أسأتما التصرف. على إني أنصحكما بأن تكتبا إلى السفير رسالة تعتذران فيها عما بدر منكما وتطلبان مقابلته.

***

وفي المساء تسلم الدون عمانوئيل الرسالة التالية:

– «سيدي إن شخصًا ينتظر ببابكم ليقدم إليكم اعتذاراته الجمة عما بدر منه.. وهو على استعداد لأن يضع بين يديكم العقد الذي تحدثتم معه عنه بمجرد صدور أمركم بذلك وإقبلوا.."

«بوهمر وبوساناج»

فهتف عمانوئيل بعد أن فرغ من قراءة الرسالة:

– لقد نجحت الصفقة.

فقال بيوسير:

– مهلًا يا صديقي.. تذكر إننا يجب أن ندفع الثمن.

فبدا التفكير على وجه عمانوئيل. وقال:

– أخشى أن يبدر من المستشار ما يدل على معرفتي الفرنسية. فيرتاب التاجران في الأمر.

– لا تخش شيئًا من هذا القبيل. فسأرسله في مهمة سياسية. أو إن شئت ففي استطاعتي أن أطلب إليه إلا يصرح بشيء من هذا القبيل.

– حسنًا. لنستقبل الرجل الآن.

وما هي إلا بضع لحظات حتى كان بوهمر يحني قامته احترامًا لدون عمانوئيل ويعتذر إليه عما بدر منهما في اليوم السابق.

وقدم التاجر العقد للسفير كي يفحصه ، وتأوه، وقال لنفسه: ما أشق أن يعقد

الإنسان صفقة؟

وتأوه بيوسير وقال لنفسه: وما أشق أن ينجح الإنسان في سرقة؟

***

وتنازل السفير بفحص العقد فحصًا دقيقًا. وكان بوهمر لا يفتأ يعدد للسفير – عن طريق سكرتيره بالطبع– مزايا العقد وندورة حياته الثمينة.

وأخيرًا قال بيوسير نقلًا عن سيده:

– إن مولاي مرتاح إلى العقد. بيد أنه يقول إن عشراً من حباته ليست تامة النقاء.

فصاح بوهمر: يا لله!

واستطرد بيوسير قائلًا:

– إن مولاي من أكبر الخبراء بالماس. فإن أشراف البرتغال يلعبون بالماس في البرازيل كما تلعب الأطفال بحبات الزجاج.

فقال بوهمر:

– مهما يكن من أمر. فلا توجد في أوروبا كلها مجموعة نفيسة من الماس مثل هذه المجموعة.

واستطرد بيوسير:

– حسنًا يا مسيو بوهمر.. لقد سمعت جلالة ملكة البرتغال عن شهرة هذا العقد وفوضت للدون دي سوزا حق شرائه فهل لك أن تخبرنا عن الثمن؟

– مليون وستمائة ألف فرنك.

فأعاد بيوسير ذكر الرقم على مسامع سيده، فقال عمانوئيل:

– إن قيمته لا تزيد على مليون ونصف من الفرنكات. ولكنكم ترفعون السعر

مائة ألف فرنك لغير ما سبب معقول.

فأطرق بوهمر برأسه إلى الأرض.. وقال:

– ليس في استطاعتي أن أبت في الأمر وحدي.

– أتحدث مع شريكي في الأمر.. ولكن هل أعرف من ذلك أن سعادة السفير يعرض مليونًا ونصف مليون من الفرنكات ثمنًا للعقد..

– نعم.. ولكنه يريد أن يتلقى الرد في أقرب فرصة..

–حسنًا يا سيدي.

– وعلى فكرة. يريد مولاي أن يعرف –في حالة موافقة شريكك بالطبع– الطريقة التي تناسبك في الحصول على الثمن..

فضحك الجواهري. وقال:

– لا أعتقد أن هناك أوفق من الدفع نقدًا..

فسأل بيوسير في برود: ماذا تعني بالدفع نقدًا؟

– لست أعنى أن يدفع المبلغ كله نقدًا. فهذا مستحيل بالطبع لأن إنسانًا لا يمكن أن يملك مليونًا ونصف مليون من الفرنكات نقدًا. ولكنني أعني أن يدفع سعادته جزءًا من المبلغ بمجرد الاستلام..

– هذا معقول..

والتفت إليَ عمانوئيل وسأله:

–كم تستطيع أن تدفع يا مولاي؟

فأجاب عمانوئيل: مائة ألف فرنك.

وسأل بوهمر: ومتى يدفع الباقي؟

– سنرسل إلى لشبونه في طلب بقية المبلغ وبمجرد وصوله يدفع فقال بوهمر: إن لنا وكيلًا في لشبونة وفي إستطاعتنا أن نكتب إليه.

فصاح بيوسير:

–نعم. نعم. أكتب إليه وسله إن كان الدون دي سوزا قادرًا على دفع باق الثمن أم لا. وإذا كانت جلالة الملكة تملك مبلغ مليون وأربعمائة ألف فرنك أم لا تملك..

– ولكننا لا نستطيع أن نترك العقد يغادر باريس دون الحصول على رد جلالة ملك فرنسا النهائي.

فقال عمانوئيل: هذا معقول ولا شك.

– يسرني إنك وافقتي على ذلك يا سيدي.. وسأذهب الآن لسؤال شريكي. كما سأكتب إلى وكيلنا في لشبونه.. وبعدئذ نسافر إليها ليتم تسليم العقد هناك.

فأمن بيوسير على قول التاجر. وعندئذ غقادر بوهمر الغرفة على الأثر. فلما أصبح الشريكان على حدة. إلتفت عمانوئيل إلى بيوسير وقال في غضب:

– كيف توافق على أن نرحل إلى البرتغال لتسليم العقد هناك؟ أمجنون أنت.

فأجاب بيوسير:

– يبدو إنك تعتبر نفسك السفير الحقيقي.. ولكن ثق إن بوهمر لا يمكن أن يتصرف في العقد دون أن يحصل على الضمان الكافي الذي يؤمنه على العقد.

– إذن فأنت تريدنا الرحيل إلى البرتغال؟

– نعم..

– ولكنني لا أريد العودة إلى وطني.

– إذن فثق أن بوهمر لن يسلم العقد مقابل الحصول على أوراق لا قيمة لها.

– معنى هذا إننا خسرنا الصفقة.

– كلا..

وتحول السكرتير إلى الخادم.. وقال:

– تعال يا كابتن.. إنك تعرف عم نتكلم فهل تعتقد إنني أخطأت في تصرفاتي؟

– كلا.. إنك محق في كل ما فعلت.

– هل لك في إيضاح السبب؟

– ذلك لأن مسيو بوهمر لن يتركنا دون رقابة إذا وافق على التسليم هنا.. أما إذا وافقناه على أن يكون التسليم في لشبونه فلن يكون هناك ما يدعوه إلى الريبة وعندئذ يرحل إلى البرتغال دون اتخاذ أية حيطة أو حذر. وبذلك يمكن التخلص منه بسهولة. أليس هذا ما تعني؟

– تمامًا..

فقال السفير المزيف لسكرتيره: هل لك في الإيضاح؟

– إن المسألة في غاية البساطة فبعد مسيرة خمسين فرسخًا من هنا يهاجم الكابتن المركبة التي ستسافر فيها ويهددنا بإطلاق النار إن لم نعطه ما معنا.. ثم ينقض على مسيو بوهمر فيشبعه ضربًا ولكما حتى يغمى عليه.. وبعدئذ يمكننا الفرار ومعنا الغنيمة.

فقال عمانوئيل:

– هذه طريقة سهلة للتخلص منه ولا شك. بيد إنني أرى أنه من المستحسن أن نترك مسيو برهمر يصل إلى حدود البرتغال ثم ندعوه إلى نزهة فوق شاطئ إحدى البحيرات على الحدود. ونلقي به إلى البحيرة فيموت غرقًا.

فقال بيوسير:

– سواء أكانت هذه الطريقة أم تلك. فقد قررنا التخلص من مسيو بوهمر في الطريق. فلنترك الأمور تسير في أعنتها في الوقت الحاضر.

الفصل التاسع عشر

منزل الصحافي

بعد يومين من اتفاق بوهمر مع الدون عمانوئيل وأعوانه، كان مسيو ريتو الصحافي جالسًا في غرفته في ذلك المنزل الضيق بشارع مونتركيل.. ودخلت خادمته (الدجون) تحمل إليه نسخة من صحيفته الأسبوعية التي كان موعد صدورها في ذلك اليوم..

وبادر الصحافي خادمته قائلًا:

– هل قرأت هذا العدد الممتاز يا الدجون ؟

– كلا.. ولكنني سمعتهم يقولون في المطبعة أن مصيرك ولا محالة إلى الباستيل!

فقهقه ريتو ضاحكًا.. وقال:

– أتذكرين العدد الذي أصدرته ضد مسيو دي بروجلي، لقد وزعت منه كمية كبيرة، فكم بالحري يكون التوزيع إذا كانت الحملة موجهة ضد الملكة؟

وقرع الباب في تلك اللحظة، فهرولت المرأة من الغرفة، ثم عادت بعد لحظات، وقالت في لهفة:

– لقد حضر رسول من قبل الكونت دي كاليوسترو لأخذ ألف نسخة له!

فقفز ريتو واقفًا على قدميه وقد بدا عليه الفرح.

***

ولما انصرف الرسول بالنسخ، عاد ريتو إلى غرفته وبدأ يطالع القصة وقد بدت على وجهه دلائل الإعجاب..

وللمرة الثانية مع الاثنان طرقًا على الباب، فغادرت (الدجون) الغرفة ثم عادت بعد قليل يتبعها رجل طويل القامة.

ومن خلفه يتبعه رجل صغير السن كان قد تسلل إلى الداخل دون أن تراه الدجون.

***

وصاحت (الدجون) تنادي سيدها:

– تعال يا سيدي فقد جاء رجل ليدفع ثمن الألف نسخة..

ولما جاء ريتو أخرج القادم محفظته من جيبه ونقد الصحافي ستمائة فرنك.. وانصرف.

وفجأة. برز الشاب من مخبئه، وهتف:

– حسنًا يا سيدي.. لسوف يدفع مسيو دي كاليوسترو ثمن فعلته غاليًا.

ورمق القادم ريتو بنظرة يتجلى فيها الحقد. ثم وضع يده اليسرى فوق قبضة حسامه بينما كان يلوح بعصا غليظة في يده اليمنى.

سأل ريتو وهو يرتجف: ماذا تريد يا سيدي؟

– هل أنت كاتب هذا المقال يا مسيو ريتو؟

– كلا. وإنما أنا ناشره.

– إن الجرم واحد في الحالتين.

امتقع وجه الصحافي. واستطرد الشاب:

– والآن اصغ إليَ.. لقد وصلتك الآن قيمة ألف نسخة. أما أنا فسأعطيك ثمن الباقي ضربًا بالعصا.

وتقدم إلى الأمام وقد رفع عصاه ولكن مسيو ريتو كان قد ألف أمثال على هذه

المآزق فلم يلبث أن قفز إلى باب جانبي وأغلقه خلفه..كان الباب يؤدي إلى دهليز ينتهي إلى باب آخر يؤدي إلى حديقة.

ووجد ريتو الباب مغلقًا. فحاول فتحه وحينئذ ألفى نفسه وجهًا لوجه أمام شاب آخر كان يرغي ويزبد.

حاول الصحافي التقهقر ولكنه أدرك أنه وقع بين نارين. فصاح يخاطب القادم:

– دعني أمر يا سيدي.

فصاح الشاب: كلا.

ثم تحول إلى شاب آخر يقترب من الصحافي بسرعة، وقال:

– لا تخش شيئًا يا مسيو دي شارني. فلن أسمح له بالمرور.

وصاح شارني: هذا أنت يا مسيو تافرني؟!

***

كان الشابان قد إطلعا على المقال الذي نشره الصحافي في جريدته ضد الملكة.. وكانا مدفوعين إلى ذلك بعامل واحد. بيد إنهما لم يكونا يتوقعان أن يلتقيا في مثل هذه الظروف.

***

ذعر رينو ذعرًا شديدًا.. وسأل: أتريدان قتلي.

فقال شارني:

– كلا.. إننا لن نقتلك. ولنبدأ أولًا بسؤالك في أشياء معينة. وبعدئذ نقرر ما ستنزل بك من عقاب.هل تعترف بأنك ناشر هذه القصة البذيئة ضد جلالة الملكة؟

– سيدي.. ليست القصة موجهة لجلالة الملكة إطلاقًا.

– لست أشك في أنك إستعملت إسم إنتيوتنا للدلالة على اسم أنطوانيت..

كلا. لا تحاول الإنكار. وإلا أحرقتك حيًا.خبرني هل أنت المؤلف الوحيد لهذه القصة؟

– لست إلا ناقلًا يا سيدي.

– إذن فلك شريك. وهناك أيضًا الكونت دي كاليوسترو الذي ابتاع الألف نسخة ولكننا سننظر في أمره فيما بعد.

وخشى ريتو أن يتطور الأمر. ويفتضح أمر الكونت دي كاليوستر وبذلك يفقد نصيراً قويًا فأسرع يقول:

– إنني لم أتهمه بشيء يا سيدي!!

فرفع شارني عصاه إلى أعلا.. فصاح ريتو:

– لو كان معي حسام؟

– سيعيرك مسيو فيليب حسامه ولا شك..

ولكن فيليب رفض ذلك في إباء. وعندئذ طلب إليه شارني أن يعيره السيف حتى يستطيع أن يعطي سيفه هو إلى الصحافي.

وبدأ الرجلان مبارزتهما. وانقضت فترة كبيرة دون أن يصيب أحدهما صاحبه.. حتى نال منهما الأعياء فافترقا.

وحاول فيليب أن يأخذ نصيبه من مبارزة ريتو بيد أن الصحافي تضرع إليه أن يدعه وشأنه ولكن الشابين رفضا إلا أن يحرقا جميع النسخ الباقية لديه حتى يضعا حداً لهذه المهزلة. فلم يجد الصحافي بداً من الإذعان إبقاء على حياته، وقاد الشابين إلى داخل المنزل.

وانصرفا الشابان بعد أن قاما بمهمتهما، فلما بلغا شارع سانت أوغسطين ولما لم يكن أحدهما يرغب في مرافقة الآخر، فقد آثرا أن يفترقا بعد أن أحنى كل منهما قامته لصاحبه.

ولعله من المضحك أن نذكر أن الشابين عادا فالتقيا في شارع نيف سان جيل. والواقع أن كليهما كانت تطوف برأسه فكرة واحدة, هي القصاص من الكونت كاليوستر و.

ولم يكن هناك شك في أن كلا الشابين أدرك ما يجول بخاطر رفيقه فعرض فيليب على صاحبه أن يترك له أمر مناقشة الكونت الحساب.. ولكن شارني رفض.. واحتدم بينهما النقاش فزمجر فيليب غاضباً.. وقال:

– إذن لم يبق مفر من أن نصفي موقفنا أولًا. وبعدئذ يعود المنتصر منا إلى الكونت.. هيا بنا إلى غابة بولونيا.

وسارا الشابان معاً حتى وصلا إلى الفندق الملكي حيث كانت مركبة مسيو دي شارني في الإنتظار.وقبل أن يأخذ الشابان مكانهما في المركبة كتب شارني رسالة صغيرة أعطاها لأحد خدم الفندق وأمره بإيصالها إلى منزله.وما هي إلا دقائق حتى هبط الإثنان من المركبة في غاب بولونيا.. وأمر دي شارني الحوذي بالإنتظار. ثم استأنف، ورفيقه السير على الأقدام.

***

وبعد أن سار الشاب قليلًا توقف فيليب في بقعة خالية من الأشجار.. وقال:

– أعتقد أن هذا أنسب مكان لما جئنا من أجله؟

فأجاب شارني في هدوء:

– نعم يا سيدي. ولكن هل تستطيع أن تقول ما الذي دعاك إلى طلب المبارزة ولما لم يكن هناك من سبب ظاهر لذلك؟

لم يجب فيليب.. وإنما أخرج حسامه من غمده. وتهيأ للنزال.

فاستطرد شارني قائلًا:

–لا تحاول عبثاً تجاهل ما أرمي إليه فأنا أدرك أن غيرتك مني هي التي دفعتك إلى

طلب المبارزة..

وإالتقى الحسامان. ولم تمض بضع لحظات حتى أدرك فيليب أن غريمه دونه بكثير في المهارة.. فآثر الإلتجاء إلى الدفاع لغرض في نفسه وتنبه دي شارني إلى ذلك. فسأل:

– ماذا تعني بالالتجاء إلى خطة الدفاع؟ أتريدني على أن يكل ساعدي إنني لا أرى أنني دونك مهارة في إستعمال الحمام. فهيا اقتلني وضع حداً للأمر.

فقال فيليب:

– الحق أنني أخطأت حين توصلت إلى هذه المبارزة بأوهى الأسباب..

– ليست هذه هي مسألة المسائل كما يقولون.. إن حسامك في يدك فاستعمله فيما هو أكثر من الدفاع.

– سيدي، لي الشرف أن أخبرك مرة أخرى أنني أخطأت ولذلك فأنا أعتذر.

فصاح شارني في حنق:

– إنك تريد أن تقتل مسيو دي كاليوسترو لترضي الملكة.. ولعل هذا هو نفس السبب الذي يدفعك إلى الإبقاء على حياتي.

فلم يطق فيليب أكثر من ذلك، فانثنى إلى الأمام وطعن خصمه طعنة قوية في صدره. وإنبثق الدم بغزارة.. فصاح شارني:

– كلا.. دافع عن نفسك يا سيدي.. لابد لي أن أثأر.

والتحما مرة أخرى بيد أنه كان من الواضح أن النتيجة لن تتغير فسرعان ما أطاح فيليب بحسام غريمه ثم إلتقطه وكسره.

وفي اللحظة التالية سقط الشاب مغمى عليه، فأسرع غريمه بنقله إلى مركبته.

***

ولم يضيع فيليب دقيقة واحدة بعد المبارزة.. فاستقل مركبة وأمر الحوذي بالذهاب إلى قصر الكونت دي كاليوسترو في شارع سان جيل..وكانت هناك عربة فاخرة تقف في ساحة القصر، فلما سأل فيليب عن الكونت أنبأه أحد الخدم أنه على وشك الخروج، وعندئذ قال فيليب للخادم:

– إذهب وقل لسيدك أن الشيفاليه فيليب دي تافرني يريد مقابلته..

وإنطلق الخادم إلى الدار يتبعه فيليب عن كثب.وحين عاد الخادم ليدعو فيليب إلى الدخول سمع صوتًا رقيقًا يقول:

– تفضل بالدخول يا سيدي..

ولعل القاريء قد أدرك من سياق الحوادث أن الكونت دي كاليوسترو هو نفسه مسيو مسمر المنوم المغناطيسي الشهير، وهو نفسه الذي أغرى الصحافي بتأليف قصته، وهو نفسه الذي خدع أوليفا وزارها في بيتها ثم اصطحبها إلى الأوبرا..

قال فيليب: معذرة يا سيدي..

فقاطعه الكونت:

– ليس هناك ما يدعو إلى الاعتذار فقد كنت أتوقع قدومك.

دهش الشاب وسأل: وكيف ذلك يا سيدي.؟

– لقد أخطرت بالزيارة من قبل، أعني منذ ساعتين، ولست أشك في أنك كنت قادمًا إلى منزلي بعد مغادرة منزل الصحافي ريتو لو لم يحل دون ذلك أمر معين.

أحس فيليب بالخوف يدب إلى قلبه، فأطرق برأسه إلى الأرض واستطرد الكونت: إجلس يا سيدي.

فقال فيليب:

– إنني لم آت لأطلب إليك إطلاعي على مقدرتك كمنوم مغناطيسي

فقاطعه الكونت:

– هذا صحيح، فأنت إنما قدمت لتتحرش بي ابتغاء المبارزة.

– يا للشيطان! أكبر الظن أنك تعرف سبب ذلك أيضًا..

– نعم، لست أشك في قدومك إنما مرجعه إلى أمر يمس الملكة.

وتغيرت لهجته.. ثم صاح في حدة:

– والآن.. هل لك في الإيضاح؟

– أظنك تعرف أن هناك قصة قد نشرت في إحدى الصحف يا سيدي.. وإن هذه القصة تمس جلالة الملكة.

لم يجب كاليوسترو. واستطرد فيليب:

– وإنك ابتعت ألف نسخة من الصحيفة التي نشرت هذه القصة.

– إني لا أنكر ذلك مطلقًا.

– ولعل من حسن الحظ أن النسخ لم تصل إلى منزلك.

– وماذا يدفعك إلى هذا الاعتقاد؟

– لقد قابلت الرسول عند عودته بالنسخ وطلبت إليه بعد أن أثقلت جيوبه أن يذهب بها إلى منزلي. حيث أصدرت أوامري إلى خادمي بحرقها بمجرد وصولها.

فقال الكونت وهو يبتسم إبتسامة أشبه بتكشيرة:

– إنك واهم يا سيدي فمن كان مثلي لا يأمن لشيء، ولذلك فقد أمرت أحد خدمي بأن يتبع الرسول. وقد رآك الخادم وأنت ترشوه فهدده بعد انصرافك وعندئذ أطاع الرجل أوامره الأولى.

ونهض إلى دولاب. وفتحه. فإذا بالنسخ داخله.

ووثب فيليب واقفًا على قدميه. وتقدم من الكونت وقد تجلت في عينيه نظرة تدل على الحقد والغضب. بيد أن الكونت ظل جامدًا في مكانها كأنما الأمر لا يعنيه.

صاح الشاب:

– سيدي.. أرجو أن توضح لي السر في مسلكك الشائن.. فأنت تدعي أنك من أصدقاء الملكة بينما ترحب وتشجع أحد الصحفيين على الطعن في جلالتها.

فأجاب كاليوسترو:

– إنك مخطئ يا سيدي. فأنا أحب اقتناء الكتب والصحف الغريبة لأرجع إليها في المستقبل متى شئت.

– ولكن الرجل الشريف تأبى نفسه إقتناء مثل هذه الصحف الوقحة.

– ومن أدراك أنها فاحشة. ألم تكن الملكة في منزل مسيو همصور حقيقة؟

– هذا كذب يا سيدي.

– كلا. إنني لا أكذب لأني رأيتها بنفسي.

فحدج فيليب الكونت بنظرة صارمة. ولكن الأخير هز كتفيه إستخفافًا، فأهاج ذلك ثائرة الشاب.

صاح: سيدي إحذر لنفسك، لأني سأقتلك.

فإبتسم الكونت إبتسامة ساخرة، وأردف فيليب:

– إما أن تحرق هذه النسخ، أو أضربك كما ضربت الصحافي.

فضج كاليوسترو بالضحك. وقال:

– أؤكد لك أنك لن تستطيع.

فصاح فيليب وهو ينقض على غريمه:

– إذن دافع عن نفسك.

ولكن كاليوسترو كان أسرع منه فقبض على عنق الشاب بيد من حديد وأحاط خصره بيده الأخرى.. ثم رفعه في الهواء وألقى به فوق الوسائد.وظل الكونت واقفًا في مكانه وهو يرمق الشاب بنظرة رثاء.. أما فيليب فقد نهض واقفًا وقد امتقع وجهه حتى حاكى وجوه الأموات..

وقال في صوت مبحوح:

– جرد حسامك يا سيدي أو أنت من الهالكين.

– لست أنا ممن يؤخذون بسهولة يا عزيزي.. ولن أفرط في نفسي لأمكنك من قتلي كما فعل جيلبرت المسكين من قبل.

فصاح فيليب وهو يتراجع إلى الوراء في ذعر: جيلبرت؟!

– ولعله من حسن الحظ أنك لا تمتلك الآن غدراة كما كان الأمر يوم فتكت بالشاب التعس.

– سيدي عمن تتكلم.. إنني لا أفهمك.

فقاطعه الكونت قائلًا:

– أتكلم عن شخص له عندك ماض حافل بالذكريات المؤلمة شخص كنت تعتقد أنك لن تسمع اسمه مرة أخرى لأنك كنت وحيدًا معه حين ذبحته.بيد أنني أتحداك في أن تتمكن من القضاء علي.. إن في استطاعتي أن أطيح بحسامك في لحظة واحدة.. دون أن ألجأ إلى المبارزة.. أنظر.

وأخرج من جيبه قنينة صغيرة.. ألقى بمحتوياتها فوق وجه فيليب. ولم تكد تمضي عدة ثوان حتى تراجع الشاب إلى الوراء. وسقط حسامه من يده.. ثم سقط هو بدوره فوق الأرض فاقد الوعي.وتقدم الكونت من الشاب وحمله ثم مدده فوق إحدى الأرائك ووقف ينتظر إسترداد الشاب لوعيه.

ولما أفاق فيليب، حاول أن ينفض عنه الجمود الذي استولى عليه ولكنه شعر بعجزه عن الحركة عجزًا تامًا.

قال للكونت: لقد انتصرت علي يا سيدي. ولكنه إنتصار غير مشرف.. يالله.. ما هذا إنني أشعر بضعف شديد.

فأخرج كاليوسترو قنينة أخرى من جيبه. وفتحها ثم قربها من أنف الشاب. وسرعان ما استعاد قواه دفعة واحدة.

فقال له الكونت:

– هل تشعر الآن بالقدرة على تذكر الماضي؟

– إذن. فسأعود بذاكرتك إليه.

فصاح الشاب: كلا.. فقد قتلت جيلبرت دفاعًا عن مبدأ سام.. كنت أدافع عن العرش.

– أنت تدافع عن العرش! أنت الذي ذهبت إلى أمريكا لتدافع عن الجمهورية.

فتخضب وجه فيليب بحمرة الخجل.. وصاح:

– سيدي. أرجو ألا تضيف كلمة واحدة على ما قلت.. وأنا إن لم أكن أدافع وقتئذ عن الملكية فقد كنت أدافع عن الملكة.. أعني إنني دافعت عن امرأة ضعيفة وجب احترامها لأنها.. ضعيفة على الأقل!!

– إنك تهذي يا صاح.. فإن امرأة يحني ثمانية وعشرون مليونًا من الآدميين هاماتهم لها ليست بضعيفة!

– سيدي.. إنهم يفترون عليها.

– ومن أدراك بذلك..

– هذا ما أعتقده

– وأنا أعتقد عكس ذلك.. أنت تدافع عن الملكية.. وأنا أدافع عن الشعب.أنت تقول أعطوا ما لقيصر لقيصر.. وأنا أقول أعطوا ما لله لله.. ألا تذكر أن مبادئ الجمهورية الأمريكية هي الحرية والمساواة.. أنت تطأ بأقدامك من لا يركع عند قدمي الملكة.. أما أنا فأطأ الملكة بقدمي لأرفع من شأن الشعب. إنني لا أرجو تحويلك عن مبدأك. فأتركني أعمل بسلام.. أنت تقول لي مت لأنك هدمت معبودتي.. أما أنا فأقول لك عش لان مبدأي قوي حتى ليستحيل عليك أو على أي كائن آخر أن يقف في سبيلي لحظة واحدة..

فقال فيليب: سيدي.. إنك تخيفني،لأنك تطلعني على الخطر الذي يهدد الملكية الفرنسية.

– إذن لتكن عاقلًا. ولتحذر الهوة السحيقة

أجاب فيليب:

– أما أنا –أنا ذلك الضعيف– فلسوف أسير هؤلاء الضعفاء ضدك.. ولكني أضرع إليك أن تبيد هذه النسخ التي تحوي طعنًا في الملكة المسكينة.

هتف الكونت:

– لو أن الباقين كانوا مثلك لانضممت إلى صفوفهم.. فاذهب واحرق النسخ إذا شئت فلن أعترض سبيلك.

وأسرع فيليب إلى الدولاب وأخرج النسخ ثم ألقى بها في النار.. وهو لا يكاد يصدق عينيه.

ولما انصرف الشاب بعد ذلك قال كاليوسترو لنفسه:

– إنني مدين للأخ. ببعض العزاء. عما لاقته الأخت على يدي!

الفصل العشرين

عميد عائلة تافرني

كان تافرني الشيخ يتمشى في حديقته. وقد سار خلفه خادمان يحملان مقعدًا كانا يقدمانه لسيدهما كي يجلس فوقه التماسًا للراحة كلما رغب، عندما أقبل أحد الخدم يعلن قدوم فيليب.

صاح الرجل: تعال يا بني فقد جئت في لحظة سعيدة. ولكن مالك تبدو متجهم الوجه؟ ألم تعلم بالنتائج التي تمخضت عنها حفلة الأوبرا؟

يخيل إلى أنك أصلحت موقفك معها بعد ما بدا من جبينك أول الأمر؟

– من تعني يا سيدي؟

– يا إلهي.. أو تظنني جاهلًا بمغامرتيك اللتين أقدمت عليهما في حفلة الأوبرا؟

– سيدي.. إنني لا أفهم ما تتحدث..

– لا تغضب يا بني. فما قصدت غير تحذيرك. فيجب أن تلزم جانب الحذر فقد رآك بعضهم معها هناك.

– رآني بعضهم؟

– يا إلهي أليس عندك رداء أزرق؟

كاد فيليب أن يقول إنه لا يملك مثل هذا الرداء. ولكنه تذكر أن أباه لن يصدقه. ورأى كذلك أنه بحاجة إلى الوقوف على بعض المعلومات.. فلزم الصمت.

واستطرد تافرني الشيخ في إعجاب:

– وهكذا ترى أن رامبوليه العجوز قد عرفك من بين الجميع.

– وهل لك أن تخبرني كيف عرف أن رفيقتي كانت هي الملكة؟

– كان الأمر سهلًا بعد أن خلعت قناعها. ولعلها كانت مجنونة بحبك حتى أقدمت على تلك الفعالة الجريئة. على أني أنصحك أن تلزم جانب الحذر فإن لك من المنافسين من هم أقوى منك باعًا.

فعض فيليب شفته ثم نهض واقفًا، وهو يتحرق شوقًا لمعرفة المزيد.

استطرد الأب:

– إن كثيرين يحسدوننا على مركزنا الأدبي.. ولكننا مع ذلك لم نصل بعد إلى المركز الذي نطمح فيه.. وعلى يديك يجب أن يتم هذا العمل الجليل. ويسرني أنك بدأت تتقدم بنجاح وحذق. ولست أظن ذلك اليوم ببعيد حين تطالب لنفسك بمركز ممتاز ولي بلقب نائب لورد وبعدئذ سوف تصبح دوقًا أو لوردًا وفي مدى عامين.

تأوه فيليب وقاطع أباه قائلًا:

– كفى. كفى. إنني لا أفهم ما تعني يا أبي؟

– هذا تواضع منك يا بني. ولعلك تريد أن تحذو حذو مسيو بوتمكين مع الملكة كاترين. فهو كان يعلم أن للملكة عشاقًا كثيرين. فلم يجزع من ذلك وإنما كان يقدم لها العشاق بالجملة لإعتقاده أنها كالنحلة تسقط فوق كل زهرة، فإذا سئمتها إنتقلت إلى غيرها. وهذا فقد ظل بوتمكين محتفظًا بمركزه الممتاز لديها حتى النهاية.

غمغم فيليب قائلًا:

– أي ألغاز هذه؟

واستطرد تافرني الشيخ قائلًا:

– إنك تعتقد إنني لا أدرك مرماك.. إنك تريد أن تحافظ على مكانتك عند الملكة مهما كانت الأحوال، ولذلك فقد صادقت مسيو دي شارني. بيد إنني أحذرك من التمادي في هذه الصداقة وإلا عادت بالوبال عليك.

فزمجر فيليب قائلًا:

- كفى. كفى. فلست أريد أن أسمع المزيد.. إن من يتحدثون عن ملكة فرنسا كأية امرأة مستهترة إنما يسعون وراء أغراض خاصة.

– ألم أقل لك إنني أستحسن خطتك.. ولست أشك في أن مسيو دي شارني سوف يدفع لك ثمن عطفك عليه في يوم من الأيام.

وضاق فيليب ذرعًا بثرثرة أبيه فصاح:

– إن منطقك يدهش يا أبي.. فمسيو دي شارني من أعز أصدقائي حتى لقد دفنت حسامي في صدره منذ وقت قصير!!

ذعر الأب، وصاح: ماذا تقول؟ أكنت تتقاتل؟ لاشك أنك تهزل يا فيليب.

– كلا يا سيدي.. إنها الحقيقة.

فنهض تافرني الشيخ واقفًا.. ونادى أحد الخدم. وقال له:

– إسرع. ودع فارسًا يذهب ليسأل عن مسيو دي شارني الذي جرح.. وخبر الرسول أن يذكر للجريح أنه قادم من قبلي.

وغمغم قائلًا لنفسه:

– إن رأسي مازال الوحيد في العائلة!

الفصل الحادي والعشرون

قصيدة مسيو دي بروفنس

وفيما كانت هذه الحوادث تقع في باريس وفرساي كان الملك يجلس في مكتبه –هادئًا كعادته– وقد نشر أمامه كثيرًا من الخرائط. وهو يتتبع الطريق الجديد الذي سلكته سفن لامبروز. وأفاق من تأملاته عندما سمع طرقًا خفيفًا على الباب.. ثم سمع صوتًا يقول:

– هل تسمح لي بالدخول يا أخي؟

فقال الملك متذمرًا:

– الكونت دي بروفنس؟! أدخل.

فدخل رجل قصير القامة.. وقال:

– هل أزعجتك؟

– كلا.. ولكن يخيل إلي أن هناك أمرًا هامًا بعثك على القدوم؟

– نعم يا مولاي.. فقد بلغني من مصدر موثوق بصحة أخباره أن جلالة الملكة قضت أخيرًا إحدى لياليها خارج القصر.

– لو أن تلك كانت الحقيقة. لكان الأمر جد محزن.

– فاستطرد بروفنس:

– ويقال إن الملكة رؤيت وهي تسير متأبطة ذراع الكونت دارتوا. وكانت الساعة وقتئذ الثانية عشرة والنصف.

– أين؟

– ذاهبين إلى منزل يملكه الكونت خلف الحظائر.. ألم تسمع جلالتكم بذلك؟

– نعم. فقد اتخذت من الاحتياط ما يكفل سماعي هذا الخبر.

– كيف ذلك يا مولاي؟

– ألم تنظم قصيدة نشرت في صحيفة «مركري».

فاندفع الدم إلى وجنتي الكونت، فخضبها بحمرة الخجل.

وهتف في دهشة: قصيدة!

– نعم. ألست من المعجبين بالشعر؟

– أنا؟ كلا يا مولاي..

– لا تحاول الإنكار. فإن لدي أصل القصيدة المكتوبة بخط يدك!

فلو إنك راجعت نفسك فيما كتبته ضد الملكة. أو بالحري ضدي لا تقلب ذمك إياها إلى مديح، ولكن من يدري لعل الإلهام أو الوحي لم يسعفك بذلك. فجري قلمك بتلك الخيارات اللاذعة.

– مولاي. أنا واثق أنكم تدركون إنني خدعت ولم أكن أحاول النيل منكما مطلقًا.بل أنا أفضل أن أنكر ما يعزي إلى أشد الإنكار، ولست أعتقد أن هذه القصيدة قد أحدثت أثرًا سيئًا مثل ذلك الذي أحدثته قصة نشرت في إحدى الصحف.

– قصة !

– نعم يا مولاي. وقد جئت أطلب أمرًا بإلقاء الكاتب في غياهب الباستيل..

نهض الملك واقفًا، وصاح:

– وأين هذه القصة؟

فأخرج دي بروفنس نسخة من الجريدة، وقدمها إلى الملك.وما إن وقع بصر

لويس السادس عشر على عنوان القصة حتى زمجر واحتقن الدم في وجهه.

– ها أنت ترى يا مولاي. إنهم يرجفون بأن الملكة ذهبت إلى إلى عيادة مسمر..

– الواقع إنها فعلت ذلك ولكن ذلك لا يدينها في شيء فقد أجبتها إلى ما طلبت.

– وهل أردتموها جلالتكم على أن تجري التجربة على نفسها؟

فضرب الملك الأرض بقدمه، وراح الكونت يقرأ على مسامعه قصة بذيئة مملوءة بالطعن الجارح.وامتقع وجه الملك. وصاح:

–هذا محال.

ودق الجرس. فلما قدم الخادم أمره باستدعاء رئيس البوليس مسيو دي كروستي.

وأقبل مدير البوليس بعد لحظات. فبادره الملك قائلًا:

– كيف سمحت بنشر قصة بذيئة كهذه ضد الملكة؟

– هل تعني جلالتكم القصة التي نشرها ريتو بعنوان «إبتيوتنا»؟

– أتعرف الكاتب ولا تقبض عليه؟

– مولاي. إن أمر القبض موجود في حقيبتي.

– ولماذا لا ينفذ حتى الآن؟

فنظر مسيو كروستي إلى الكونت، ثم عاد فنظر إلى الملك كأنما يطلب إليه أن يسمح له بالكلام. فقال الملك:

–تكلم.. تكلم.

– مولاي. لقد أردت أولًا أن أسأل جلالتكم إن كنتم تريدون أن تدفعوا للرجل مبلغًا من المال وتدعوه يرحل إلى بقعة أخرى حيث يشنق هناك.

– ولماذا؟

– مولاي. إن التقارير التي وصلتني تشير إلى صحة ما ذكر في القصة.

فامتقع وجه الملك وسأل:

– وماذا جاء في تلك التقارير.؟

– لقد بلغني أن جلالتها ذهبت إلى العيادة بملابس عادية وبمفردها.

فصاح الملك:

– بمفردها؟

– نعم يا مولاي.

– كيف ذلك.. إنني سمحت للملكة بالذهاب ولكنني أمرتها أن تصطحب معها إحدى أميرات الأسرة المالكة. فإذا ثبت أنها خالفت الأمر فسأعاقبها.

ودق الجرس. فلما جاء الخادم. قال لويس:

– ناد مدام دي لا مبال في الحال.

فانصرف الخادم وساد الصمت.

***

دلفت الأميرة دي لامبال إلى الغرفة في هدوء. ونظر لويس السادس عشر إليها وقد بدت على وجه دلائل القلق.

سألت الأميرة في صوت ساحر:

– ماذا تريدون جلالتكم؟

– متى ذهبت إلى باريس مع جلالة الملكة لآخر مرة؟

– يوم الأربعاء يا مولاي.

– ولماذا ذهبتما إليها؟

– لأننا كنا نقصد الذهاب إلى عيادة الدكتور مسمر.

فارتجف الشاهدان. أما الملك فقد بدا عليه الإطمئنان وسأل:

– أذهبت بمفردك؟

– كلا يا مولاي.. مع الملكة.

فقبض الملك على ذراع الأميرة.. وهتف:

– مع الملكة؟

– نعم يا مولاي.

بدت الحيرة على وجه الكونت دي بروفنس و مسيو دي كروستي.

واستطردت الأميرة:

– لقد أخبرتني جلالة الملكة أن جلالتكم سمحتم لها بالذهاب.

– هذا صحيح يا إبنة العم.

وتحول إلى الرجلين وقال:

– أيها السادة.. في استطاعتي أن أتنفس الصعداء الآن فإن مدام دي لامبال لا تنطق بغير الصدق.

فقال كروستي:

– هذا لا شك فيه يا مولاي، ولكن هل تسمح لي بسؤال سمو الأميرة؟

– سل ما تريد.

فقال مدير البوليس:

– هل لك أن تخبريني عما فعلته جلالتها هناك. وما هي الملابس التي كانت

ترتديها؟

– لقد كانت ترتدي فستانًا أخضر اللون. ومعطفًا من المسلين المزخرف وقبعة حريرية وردية اللون لها حواف سوداء.

بدت الدهشة على وجه مسيو دي كروستي، فقد كانت تلك الأوصاف مغايرة تمامًا لما جاء في التقارير التي رفعت إليه.. وعض الكونت دي بروفنس شفته من القهر. أما الماء فقد فرك يديه إرتياحًا، وسأل: ماذا فعلتما هناك؟

– مولاي.. إننا لم ندخل قاعة العيادة.. إذ بينما كنا نتهيأ للدخول أقبلت نحونا سيدة.. وقدمت قناعًا لجلالة الملكة.. ثم توسلت إليها أن تعود من حيث أتت.

– وهل فعلتما ذلك؟

– نعم يا مولاي..

– ألم تتركي الملكة بمفردها مطلقًا.؟

– كلا يا مولاي.. فقد لازمتها طول الوقت..

فتحول الملك إلى مدير البوليس وسأل:

– ما رأيك الآن يا مسيو كروستي.؟ وأنت يا أخي بروفنس؟

فقال الكونت وهو يتظاهر بالغبطة:

– هذا وأيم الحق أغرب ما سمعت!

وقال مدير البوليس:

– ليس في الأمر غرابة.. فمدام دي لامبال قررت الحقيقة.. أما أعواني فقد أخطأوا.. أو خدعوا بطريقة ما..

أما عن الصحافي فسأرسل أمر القبض عليه على الفور.. وتهيأ مدير البوليس للإنصراف، ولكن الملك أستوقفه قائلًا:

– لحظة واحدة.. لقد ذكرت يا سيدتي أن امرأة إستوقفتكم فهل لك أن تخبرينا ما اسمها ؟

– إن جلالة الملكة تعرفها يا مولاي..

– إنني أريد التحدث إلى تلك المرأة، حتى يمكن الوصول إلى مفتاح السر..

– إن إسمها مدام «دي لاموت فالوا» يا مولاي..

فصاح الملك: الدساسة!

– وهتف الكونت: من الصعب استجواب تلك المرأة الداهية.

فقال مسيو دي كروستي: سوف نكون أدهى منها.

وقال لويس: إنني لا أحب أن يحيط أمثال هذه المرأة بالملكة بل ولا أود استقبالها هنا..

فصاحت الملكة وكانت قد دلفت إلى الغرفة دون أن يراها أحد:

– ولكن يجب أن تراها يا مولاي.

كان وجهها ممتقعًا. وقد بدت عليه دلائل الغب المزدوج بالسخط.

استطردت:

– ليس من حقك الآن أن تقرر إن كنت ستقابلها أو لا تقابلها.

فإنها الشاهد الوحيد على براءتي ضد الاتهامات التي يوجهها إلي بعض الناس.

ونظرت إلى أخي زوجها الكونت دي بروفنس نظرة تنطوي على الكراهية.. والغضب

فقال الملك:

– سيدتي.. لن نهب مدام دي لاموت شرف المجيء هنا إطلاقًا سواء كان ذلك

لمصلحتك أم لضررك، فإنني لا أقبل مطلقًا أن أعلق شرفك بكلمة من هذه الدساسة.

– ليس هناك ما يدعو لأن ترسل في طلبها لأنها موجودة فعلًا.

دهش الملاك ونظر إليها غير مصدق.

– مولاي. إنكم تعرفون إنني ذهبت لزيارتها في أحد الأيام.. وحدث أن سقط مني صندوق يحوي صورة معينة في منزلها، ولذلك فقد جاءت المرأة اليوم لتعيد إلى الصندوق.

فصاح الملك: كلا كلا. إنني مقتنع ولا أريد رؤيتها.

– ولكنني لست مقتنعة.. وماذا فعلت المرأة حتى تحظر عليها دخول القاعة؟ إذا كان هناك شيء فأخبرني به يا مسيو كروسني فأنت تعرف كل شيء؟

فأجاب كروسني: ليس لدي أي شيء ضد هذه السيدة يا مولاتي. كل ما أعرفه عنها إنها فقيرة.. وربما كانت طموحة.

فقال لويس:

– لست أدري وايم الحق ما الذي يدفعني إلى الاعتقاد بأن تلك المرأة ستجلب لي سوء الحظ.

فقالت الملكة:

– دع عنك هذه الخرافات يا مولاي.. إذهبي وجيئي بالمرأة يا مدام دي لامبال.

***

وبعد خمس دقائق؛ دخلت جين دي لاموت الغرفة. وكان لويس السادس عشر قد ولاها ظهره. وقد اعتمد رأسه بيديه.

قالت ماري إنطوانيت:

– سيدتي.. هل تتكرمين بذكر كل ما حدث في منزل الدكتور مسمر لجلالة الملك؟

لزمت جين الصمت.. فاستطردت الملكة:

– ليس هناك ما يدعو إلى التفكير في الأمر.. فإننا نريد ذكر الحقيقة بحذافيرها..

أدركت جين على الفور أن الملكة في حاجة إلى معونتها. وإن في استطاعتها أن تبرئ ساحتها في مدى ثوان. ولكنها أحست دافعًا خفيفًا يحملها على الابقاء على سرها..

قالت: لقد ذهبت إلى عيادة مسيو مسمر في ذلك اليوم فلما دخلت القاعة.. وقع بصري على منظر شاذ لم أطق رؤيته، فهممت بالإنصراف عندما وقع بصري مصادفة على جلالة الملكة وهي تتأهب للدخول. ولما كنت أدرك أن مثل هذا المكان لا يصلح لزيارة الملوك فقد توسلت إلى جلالتها أن تغادر المكان.

سر جميع الموجودين. إلا الملك فقد بدا وجه متجهمًا.. قال:

– إنني لا أريد شهادة هذه المرأة..

فقالت جين في خوف:

– لقد أمرت بالكلام فأطعت الأمر..

– هذا يكفي. فإن جلالتها إذا قررت شيئًا فهو حجة مسلم بها.

وألقى نظرة صارمة على أخيه بروفنس. ثم قبل يد زوجته والأميرة دي لامبال وغادر الغرفة.

***

شعرت الملكة بالإرتياح العميق بعد إنصراف الملك وقالت تخاطب جين:

– لعله من حسن الحظ أنك ذهبت إلى عيادة مسيو مسمر في ذلك اليوم. فقد

اتخذوا من ذهابي هناك قصة ملفقة قائلين إنني كنت تحت تأثير مغناطيسيته.

فقالت مدام دي لامبال: ومن عجب حقًا أن يخدع رجال البوليس حتى يقرروا أنهم رأوا الملكة بالغرفة الداخلية !

وستطردت الملكة:

– إن الأمر عجيب حقًا، ولكن. لعل بعضهم قد رشا أعوانه بيد أنني أعتقد أن لهذه القصة الملفقة مصدرًا مجهولًا. فقد صورني هذا المجرم كأنما قد فقدت سيطرتي على أعصابي تمامًا تحت تأثير مغناطيسية المنوم..فهل حدث شيء من هذا يا سيدي الكونتس؟

تورد خدا جين بحمرة الخجل. وأدركت أنها لو باحت بالسر لفقدت الوسيلة التي تمكنها من التأثير على الملكة. فآثرت الصمت ولم تجب.

قالت الملكة: لماذا لم تجيبي؟

– مولاتي.. لقد كانت هناك امرأة استرعت أنظار الحاضرين بغرابة حركاتها.

– يحتمل أن تكون إحدى الممثلات الساقطات. مهما يكن من أمر فإنني لن أنسى صنيعك يا كونتس.

وجاءت مدام دي ميزري لتقول إن مدموازيل دي تافرني تطلب مقابلة جلالة الملكة.. فقالت ماري أنطوانيت: دعيها تأتي.

وأقبلت أندريه في تلك اللحظة فاستقبلتها الملكة أجمل إستقبال.

ثم قالت: وهل تعرفين ماذا يقولون عني؟

– نعم يا مولاتي.. فقد طالما أعاد مسيو دي بروفنص ذكر القصة على مسامعنا.

– حقًا.. ولكن دعينا من هذا الموضوع. ولنسأل الكونتس عمن يشملها برعايته الآن.

فقالت جين في شجاعة: إنها أنت يا مولاتي.

وتوقفت.. ثم عادت تقول:

– بيد إنني نسيت أن أخبر جلالتك أن الكردينال دي روهان هو الشخص الوحيد الذي جاء أخيرًا ليعاونني في محنتي.

فابتسمت الملكة.. وقالت: عدوي!

– عدو جلالتك؟! كيف ذلك؟ أؤكد لجلالتك أنه يعبدك عبادة. وأن حبه لك لا يعادله إلا احترامه لشخصك.

فضحكت الملكة.. وأجابت:

– هذا لا شك فيه، ولعله السر في عداوتنا.

وبدت الدهشة على وجه جين.. فقالت الملكة:

– هل لك أن تخبريني عن مدى علاقتك بالكردينال؟

– لقد ساعدني نيافته مساعدة جدية عندما..

– حسنًا.. إن البرنس لويس رجل كريم..

وتحولت الملكة إلى أندرية.. وسألت:

– ألا تعتقدين أن الكردينال يحب الكونتس يا أندريه ؟

وضحكت مرة أخرى.وآثرت جين أن تستمر في الخطة التي رأت أن تسير عليها فقالت في رزانة:

– مولاتي.. لي الشرف أن أؤكد لك أن نيافة الكردينال دي روهان..

فقاطعتها الملكة قائلة:

– ما دمت صديقته فاسأليه عن خصلة الشعر التي شجع «الحلاق» على

سرقتها والتي كانت سببًا في قطع رزق الرجل؟

– إن جلالتك تدهشيني يا مولاتي.. فهل فعل مسيو دي روهان ذلك؟

– نعم.. فبعد أن أبدى من الكراهية نحوي الشيء الكثير وهو في فينا، وعارض في زواجي معارضة شديدة. عاد فعدل عن ذلك حين أدرك أن من العبث مقاومة إرادة الله. وغدا من العشاق المعجبين. وبدأ يتقرب إلي.

وفيما كان الجميع منهمكين في الحديث إذ سمعوا وقع أقدام تقترب فتحولوا ليروا من القادم فرأوا الكونت دارتوا مقبلًا.

وأقبل الكونت مرحًا كعادته فقدمته الملكة إلى الكونتس ثم قالت:

– إذن فقد عدت من صيد الذئاب؟

– نعم يا أختاه، ويخيل إنني قتلت سبعة ذئاب ولو إني لست متأكدًا من ذلك.. على العموم قد يدهشك أن تعرفي إنني كسبت سبعمائة فرنك..

– وكيف ذلك؟

– إنهم يدفعون مائة فرنك لكل رأس.. والحق إن المبلغ كبير، ولكنني على استعداد لأن أدفع مائتي فرنك ثمنًا لرأس صحافي معين.

– آه.. هل تعرف القصة؟

– لقد أطلعني مسيو دي بروفنس عليها..

تأوهت الملكة وقالت:

– إن الكونت دي بروفاس لا يتعب من سرد ما يتعلق بي من حوادث.

فقال الكونت في فرح:

– إنك حسنة الحظ دائمًا يا مولاتي.. فقد وجدت من ينقذك من الرعاع.. ومن الحادثة التي نحن بصددها.. كما وجدت من ينقذك من الرعاع.. ومن الحادثة التي نحن

بصددها.. كما وجدت من ينقذك مما حدث في حفلة الأوبرا..

– ماذا تعني يا أخي؟

– لا أخالك تجهلين أو تتجاهلين هذه المسألة؟

بدت الدهشة على وجه الملكة.. وهتفت: هل لك في الإيضاح؟

ودهش الكونت دارتوا بدوره وقال:

– هل تعنين إنك لم تحضري آخر حفلة من حفلات الأوبرا.؟

– أنا.! ذهبت إلى حفلة الأوبرا!

– أتوسل إليك أن تصمتي..

– كلا.. لن أصمت.. بل سأتكلم بأعلى صوتي.. تقول إنني كنت في الأوبرا.. فهل رأيتني هناك.؟

– نعم

– هذا كثير! ولماذا لم تتكلم معي وقتئذ؟

– يا إلهي.! لقد كدت أفعل ذلك لو لم يحدث ما حال بيننا وقتئذ.

– إنك مجنون ولا شك!

– كان يجب ألا أتكلم عن هذا الموضوع مطلقًا، فأرجو المعذرة.

فنهضت الملكة واقفة، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وقد استولى عليها الغضب..وأما (أندريه) فكانت ترتجف من الخوف والقلق. وأما (جين) فكادت تضحك ملء شدقيها ثم توقفت الملكة في سيرها فجأة وقالت:

– أكبر ظني إنك كنت تهزل يا صديقي.. وإن هذه القصة من بنات أفكارك!

أدرك الكونت حرج المركز.. فقال:

– أجل.. لقد كان الأمر كذلك ولا شك!

فصاحت الملك غاضبة:

– إنك لا تفهم ما أعني يا كونت. فأنا لا أريد سوى الحقيقة مجردة عن كل زيف..

وقال في صوت خافت.

– إذن فقد ذكرت لك الحقيقة ويؤسفني أنني تسرعت في ذلك.

– هل رأيتني هناك؟

– كما أراك الآن.

فبدرت من شفتي الملكة صرخة خافتة.. ثم تحولت إلى المرأتين وصاحت:

– إن الكونت دارتوا يؤكد أنه رآني في الحفلة. فلنطلب منه البرهان على ذلك.

فقال الكونت: لقد كنت وقتئذ مع الكردينال دي رامبوليه وآخرين حين سقط القناع عن وجهك.

– قناعي!

– نعم. وكدت أقترب منك في تلك اللحظة لولا أن جذبك رفيقك وابتعد بك.

– أواه يا إلهي! إنني أكاد أن أصابه بالجنون. أي رفيق تعني؟

– ذو الرداء الأزرق.

مرت الملكة بيدها فوق جبينها. وسألت: ومتى كان ذلك؟.

– يوم السبت الماضي حوالي الساعة الثالثة صباحًا.

– لابد أن أحدنا قد أصيب بالجنون.

– هوني عليك يا مولاتي فأنا مخطئ.

فصاحت الملكة:

– وما رأيك في إنني آويت إلى مخدعي في الساعة الحادية عشرة تلك الليلة؟

فأحنى الكونت قامته وقد تلاعبت على شفتيه إبتسامة حائرة.

هتفت: سأنادي وصيفتي لتقرر لك ذلك.

فأسرع يقاطعها قائلًا:

– لست أنا فقط الذي رآك. بل هنالك آخرون غيري.

– من؟

– فيليب دي تافرني مثلًا.

صاحت أندريه: أخي؟

فقالت الملكة: إذن فلنسأله.

ونادت أحد الخدم وأمرته بالذهاب والبحث عن مسيو فيلب دي تافرني وإحضاره على الفور.وتصادف أن قابل الرسول فيليب بعد خروجه غاضبًا من حضرة أبيه. فلما أنبأه بأن الملكة في انتظاره سارع بالذهاب إليها.

قالت الملكة:

– أنبئني يا مسيو فيليب هل رأيتني في أي محفل عام خلال الاسبوع الماضي؟

– نعم يا مولاتي.

فشعر الجميع بقلوبهم تغوص بين ضلوعهم.

فسألت الملكة في صوت داو: وأين؟

لزم الشاب الصمت.. فاستطردت الملكة قائلة:

– يقول الكونت أنك رأيتني في حفلة الأوبرا.. فهل هذا صحيح؟

– نعم يا مولاتي..

فتهالكت الملكة فوق الأريكة.. ثم عادت فنهضت واقفة وهي تنتفض من الغضب.. وصاحت:

– هذا محال، لأنني لم أكن هناك.. إحذر لنفسك يا مسيو تافرني.

فتدخلت أندرية بينهما. وقالت وقد استولى عليها غضب جائح:

– مولاتي.. إذا قال أخي أنه رآك هناك. فمعنى ذلك أنه رآك حقيقة..

فالتفتت الملكة إلى الفتاة. وقالت غاضبة: وأنت أيضًا..!!

وقال الكونت: وحين سقط القناع عن وجهك كنت أعتقد أن رفيقك هو الملك. بيد أنني سمعته يتكلم الألمانية فأدركت أنه شخص آخر. وزادت ريبتي في أن يكون رفيقك هذا هو مسيو دي شارني.

فتخضبت وجنتا الملكة بحمرة الخجل، وصاحت:

– إذن فسأرسل في استدعائه..

وكانت أندريه واقفة جوار النافذة في تلك اللحظة..

صاحت: ها هو قد قدم من تلقاء نفسه يا مولاتي..

ونسيت الملكة سمو مركزها في هذا الموقف الدقيق.. فأسرعت إلى النافذة وهي تقول:

– أسرع يا مسيو دي شارني.

ودخل الشاب وقد ارتدت على وجهه سيماء الدهشة..كان ممتقع الوجه قليلًا. ولكنه كان بادي الهدوء.. وما إن دخل الشاب الغرفة، حتى همس الكونت دارتوا قائلًا:

– إحذري يا أختاه. إذ ما الفائدة من سؤال كل هؤلاء؟

– لن أتوانى عن سؤال العالم جميعًا حتى أعثر على ذلك الذي يبرهن على خطأك..

ثم تحولت إلى شارني وسألته:

– يقول هؤلاء السادة إنك كنت في حفلة الأوبرا يا مسيو دي شارني؟

– نعم يا صاحبة الجلالة.

– إذن خبرنا ماذا رأيت هناك..

حبس الجميع أنفاسهم إنتظارًا لإنفجار البركان.

– مولاتي.. لقد كان لي شرف رؤيتك هناك..

كادت الدموع تطفر من عيني الملكة.. وسألت:

– أواثق أنت من ذلك..

– كوثوقي من وجودي هنا الآن..

وقال دارتوا: أختاه.. كفى..كفى

فصاحت الملكة وهي تتهالك ثانية فوق الأريكة وقد طفرت الدموع من عينيها:

– رباه إن أحدًا لا يصدقني..

فقال الكونت في رقة:

– أختاه. لا تنزعجي فإن الحاضرين هنا جميعًا أصدقاء مخلصون. ولن يرضى أحدنا لنفسه أن يفشي السر..

– السر!!.. كلا.. لست أود إلا إظهار الحقيقة.

ودخل أحد الخدم يعلن قدوم الملك.. وما هي إلا لحظات حتى دلف الملك إلى الغرفة وهو بادي الهدوء باسم الثغر..وبادرته الملكة قائلة:

– مولاي.. لقد قدمت في لحظة دقيقة فهناك إدعاء خطير وإهانة بالغة..

فسأل لويس: ماذا حدث؟

– تهمة شنيعة يا مولاي.. إن الكونت دارتوا ومسيو فيليب دي تافرني ومسيو دي شارني يؤكدون أنهم رأوني في حفلة الأوبرا.

صاح الملك: حفلة الأوبرا!

وساد صمت بغيض..

وكانت جين دي لاموت ترقب الجميع في انتباه. كانت تعلم أن عندها القول الفصل. بيد أنها أدركت أن من العبث كشف الستار عن الحقيقة في تلك اللحظة بعد أن سكتت طوال هذه المدة، ولذلك آثرت الصمت.

هتف لويس: في حفلة الأوبرا؟ هل يعرف مسيو دي بروفانس هذه القصة؟

فقالت الملكة: ولكن هذه ليست الحقيقة يا مولاي.. نادوا جميع خدمي وسلوهم فرادى عما فعلته في تلك الليلة.

وتقدم الملك من زوجته في تلك اللحظة.. وقال:

– ليس هناك ما يدعو لذلك فقد زرتك في غرفتك في الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة.

فصاحت الملكة في فرح: نعم.. نعم.. إنك ذكرت الحقيقة يا مولاي.

وألقت بنفسها في أحضانه وهي ترتجف من الفرح. فقبلها الملك في جبينها قبلة حارة. وقال الكونت دارتوا وقد استولى عليه السرور والدهشة معًا:

– حسنًا.. أكبر الظن إنني سأضطر إلى شراء عوينات.

وتهيأ للإنصراف فقال الملك: صبرًا.. فسأنصرف معك.

وبعد أن غادر الاثنان الغرفة تحولت الملكة إلى فيليب. وقالت في صوت قاس:

– لماذا لم تنضم إلى الكونت يا مسيو فيليب؟

فاندفع الدم في رأس الشاب وترنح في وقفته. ثم أحنى قامته للملكة وغادر الغرفة. وكادت أخته تلحق به وتترك الملكة وحيدة مع دي شارني. بيد أنها أحست قوة خفية تمنعها من ذلك. عجبت في نفسها. وراحت تتساءل: ترى لماذا تخشى أن تتركه معها؟ أهي الغيرة أم ماذا؟ وهكذا بقيت أندريه في الغرفة. ترقب ما يدور بين الإثنين.

ولزمت ماري أنطوانيت الصمت مدة طويلة.. ثم أنثنت إلى الشاب وقالت:

– هل يصدق أحد أن تحدث مثل هذه الدسائس في البلاط؟

– سيدتي..

وبدا كأن الشاب قد سيطرت عليه نوبة ضعف مفاجئ. فاستند إلى الحائط خشية السقوط وامتقع وجهه حتى حاكى وجوه الأموات.ونظرت الملكة إليه نظرة تدل على العطف.. ثم قالت:

– يبدو أن الطقس هنا لا يلائمك.

فأجاب الشاب:

– كلا يا مولاتي.. إنني أستأذن من جلالتك في الإنصراف إلا لأن نوبتي في العمل تحل عند الساعة الثانية.

ثم أحنى قامته احترامًا وغادر الغرفة.. بيد أنه ما كاد يغلق الباب خلفه حتى سمع الجميع صوت سقوط شيء ثقيل على الأرض. ثم أعقب ذلك هرولة أقدام كثيرة. ونهضت الملكة إلى الباب ففتحته. ثم أطلت منه فألفت بعض الحراس وهم يحملون شارني بين أيديهم ويأخذونه إلى غرفة الإنتظار. كان قد أغمى عليه.

وعادت الملكة إلى مقعدها وهي تقول:

– إنها حيلة قديمة.. بيد إنني لا أعتقد أن مسيو دي شارني قد اقتنع ببراءتي تمامًا.

– يالله. ألم يقتنع بعد ما سمع كلمات الملك. هذا مستحيل يا مولاتي.

–فاستطردت الملكة وهي شاردة الذهن:

– إن له قلبًا حساسًا كما ظننت.. ولكن لماذا يصدق إنني كنت في الأوبرا؟ يالله! لابد من كشف الحقيقة مهما كلفني الأمر يا أندريه.

– نعم يا مولاتي.. يجب أن تتبيني جلية الأمر.

واستطردت الملكة:

– لأن الجميع يقولون إنهم رأوني في عيادة الدكتور مسمر.

فقالت مدام دي لاموت: ولكن جلالتك كنت هناك حقًا

– نعم بيد أني لم أصنع شيئًا مما رأوني أفعله.. كما رأوني في الأوبرا وأنا لم أذهب إليها.

وتوقفت قليلًا. ثم صاحت فجأة: يا إلهي.. لابد أن هذه هي الحقيقة.

أرسلوا في طلب مسيو كروسني.

***

وأقبل مسيو دي كروسني وقد تلاعبت على شفتيه إبتسامة خفيفة، وبادرته الملكة قائلة:

– لقد حل دورنا لأن نستجوبك يا مسيو دي كروسني.

– إنني في خدمة مولاي على الدوام..

– ما رأيك يا مسيو كروسني في إن كل ما يعزى إلي إنما هو من صنع امرأة تشبهني تمامًا.. وبذلك خدع معاونوك؟

فصاح الرجل في دهشة: تشبه جلالتك!

– هل تعتقد أن ذلك مستحيل؟

– كلا.. كلا يا مولاتي.. بيد إنني أظن مهما كان التشابه قويًا فلابد من وجود اختلاف ولو يسير؟

– ولم لا يكون هناك اختلاف على الإطلاق يا سيدي؟

فهتفت أندريه فجأة:

– آه.. إنني تذكرت الآن يا مولاتي.. فعندما كنا نقيم بالمنزل الأحمر.. أقامت على خدمتنا فتاة تشبه جلالتك كل الشبه.

– وماذا حل بها؟

– فوجئنا ذات يوم بفرارها دون ما سبب ظاهر!

فالتفتت الملكة إلى مدير البوليس.. وقالت:

– ما رأيك في ذلك يا سيدي.؟ وهل كنت تعلم هذه الحقائق من قبل؟

– كلا يا مولاتي..

– ومع ذلك فأنت تدعي إنك علم بكل ما يدور في أرجاء باريس.

– نعم.. وتصديقًا لقولي أقول أن مسيو ريتو الصحافي قد لاقي جزاءه، بقدر ما ناله من أذى منه مسيو دي شارني..

فصاحت الملكة وأندريه معًا:

– مسيو دي شارني؟!

– أجل يا مولاتي.. فمازالت آثار لطماته ظاهرة على كتف الرجل.

هذا ما أبلغني عنه أعواني الملهمين يا مولاتي!! وليس ذلك فحسب بل هم أخبروني كذلك بالمبارزة التي وقعت بعد ذلك.

– مبارزة!

– نعم. وكانت بينه وبين شخص كان موجودًا هنا منذ عشرين دقيقة.

صاحت الملكة: مسيو تافرني؟!

وغمغمت أندريه: أخي!!

– نعم إنه مسيو دي تافرني.

تألمت الملكة واستولى عليها الغضب. فراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا.. وتوقفت أخيرًا.. ثم تحولت إلى مدير البوليس وقالت:

– والآن.. أرجو أن تتعقب شبيهتي وتتمكن من معرفة حركاتها..

وحينئذ غادر مدير البوليس الغرفة على الأثر.. واستأذنت أندريه فصرفتها ماري إنطوانيت ببرود. ولما حاولت الكونتس اللحاق بها إستبقتها الملكة. وراحت تتحدث إليها في سرور ظاهر..

وفي هذه اللحظة دخلت مدام دي مبزري تعلن قدوم مسيو بوهمر وبوساناج الجوهرين..

***

سألت الملكة:

– ترى ماذا أحضرتما معكما؟ إنكما تعرفان الآمال عندي.

فأجاب بوهمر:

– مولاتي إننا لم نحضر لنعرض على جلالتك شيئًا وإنما جئنا لنستأذن جلالتك في بيع العقد الذي رفضت شراءه. وهذا مما يؤسفنا.

فصاحت الملكة: هل بيع العقد؟! ولمن؟

فقال بوهمر فيما يشبه الهمس:

– لقد بعناه سرًا. وعن طريق سفير البرتغال.

فقالت الملكة في دهشة:

– سفير البرتغال! ولكن لا سفير للبرتغال لدينا الآن يا مسيو بوهمر.

– لقد قدم خصيصًا لهذا الغرض يا مولاتي.

– وما اسمه؟

– الدون دي سوزا.

فسكتت الملكة لحظة ثم قالت لجين:

– هل رأيت هذا العقد؟

– كلا يا مولاتي. لم يكن لي مثل هذا الشرف العظيم.

ولم تكد حين ترى وهج الماس. حتى بدرت من شفتيها صيحة تدل على الإعجاب.

قالت الملكة: إنك تحملين في يدك مليونًا ونصف مليون من الفرنكات يا كونتس.

فازدادت دهشة جين وقالت:

– مولاتي. لست أشك في أن هذا أجمل عقد في أوروبا كلها.

فأجابت الملكة:

– ربما.. ولكني قررت ألا أشتريه لأنني لا أملك ثمنه.

وبدت على وجهي الرجلين نظرة تدل على الأسف. ثم أعادا العقد إلى صندوقه. وأحنيا قامتيهما للملكة وإنصرفا.وبعد أن غادرا الغرفة تحولت الملكة إلى الكونتس وقالت:

– يبدو أن الملك لن يأتي الآن.. ولكن ثقي إننا لن ننسى قضيتك..

وأدركت جين أن الملكة تريد أن تصرفها من حضرتها. فأحنت قامتها لها إحترامًا وغادرت الغرفة.

***

وعندما عادت جين إلى منزلها الفاخر في فوبرج وجدت الكردينال دي روهان في إنتظارها. كانت الكونتس قد صرفت المسافة بين القصر الملكي ومنزلها في التفكير في ذلك العقد الثمين. وودت من كل قلبها لو استطاعت الحصول عليه وبذلك نضمن لنفسها ثروة كبيرة تعينها مدى الحياة.

وقابل الكردينال صديقته جين مرحبًا. وراح يتأملها في إعجاب ثم قال:

– هل قابلت الملكة؟

– نعم.. ولم أضيع وقتي معها هباء.

– يغلب على ظني أنك لم تذكريني عندها بشيء؟!

– على العكس.. لقد ذكرتك عندها بكل خير..

فابتسم الكردينال إبتسامة عريضة.. وقال:

– حقًا!.. أرجو أن تطلعيني إذن على ما دار بينكما.

وابتسمت جين بدورها. فقد كانت تعرف أي حديث يلذ للكردينال كما كان هو أيضًا يعرف ما يلذ لها..وقصت عليه كيف عرضت لها الظروف بالحديث عنه مع ماري أنطوانيت.. وكيف أن الملكة قربتها إليها حتى أصبحت إحدى صديقاتها.ولم تكد تفرغ من سرد قصتها حتى دخل الخادم يعلن إعداد الطعام.ودعت الكونتس الكردينال لمشاطرتها العشاء فلبى الدعوة شاكرًا.

ولم تدخر الكونتس وسعًا في تحية ضيفها والترحيب به وقد خلعت عنها رداء المضيفة وارتدت رداء الصديقة.. وخرج الكردينال عن جموده. فإحتسى كثيرًا من الخمر حتى ثمل أو كاد..

ومضت ساعتان بعد الطعام وهما منهمكان في الحديث حتى أصبح الكردينال عبدًا والكونتس سيدًا..

ومن عجب حقًا أن كلًا من الطرفين كان يسعى لتحقيق غرض في نفسه.. فالكردينال يحاول جهده أن يدير دفة الحديث إلى فرساي. منوهًا ما ينتظر الكونتس من مستقبل عظيم بين أميرات البلاط..

– إن الملكة كريمة.. ولا تقبض يدها عمن تحب، ولكنها تخص المقربين بالشيء الكثير..

– إذن فأنت تظنها غنية.. لا شك أنك واهم. لقد رأيت اليوم ما جعلني أؤمن بفقرها.. إنها أرادت اقتناء عقد ماسي ولكنها لم تستطع.

– عقد مسيو بوهمر ومسيو بوستاج..؟ إنك مخطئة يا عزيزتي الكونتس.. لقد كان في استطاعة الملكة الحصول على العقد ولكنها رفضته وآثرت أن تبني بثمنه سفينة حربية..

وبدأ الكردينال يقص على الكونتس. فلما فرغ من حديثه هزت جين كتفيها.. وقالت:

– إنك أدرى مني بطبائع النساء وقصور الملوك. فهل تصدق ذلك؟ لقد أرادت الملكة أن تظهر نفسها بمظهر القابع المضحي بمصلحته في سبيل الشعب ولذلك أقدمت على تلك الفعلة. بينما هي تتحرق شوقًا للحصول على العقد.

فبدا السرور على وجه الكردينال.. وقال:

– حسنًا.. يسرني أنك أدركت مفاسد البلاط. وكيف يتظاهرون بالفضيلة..

– دعنا من ذلك الآن. فأنا أريد أن أقرر حقيقة وهي أن الملكة تريد الحصول على هذا العقد.

– هل تستطيعين إثبات ذلك يا كونتس؟

– يقولون إن من رأى ليس كمن سمع.. وأنا رأيت الملكة وهي تنظر إلى العقد عندما أحضره صاحباه لعرضه عليها للمرة الأخيرة. وقد بدت في عينيها نظرة تدل على الحسرة.كم هو جميل يا مولاي. حتى أنني شعرت برغبة جائحة في الحصول عليه. مع تأكدي من إستحالة ذلك. ولكن ما رأيك في أن الملكة تعتقد أن إنسانًا لا يستطيع إقتناءه.

– ألم أقل لك إن الملك عرضه عليها ولكنها رفضته؟

فقالت الكونتس وقد تلاعبت على شفتيها إبتسامة ماكرة:

– حسبتك ملمًا بطبائع النساء.. فلو أن شخصًا آخر – مثلك مثلًا– عرض العقد على الملكة لقبلته شاكرة.

فنظر الكردينال إلى محدثته في دهشة وتساؤل..

– يخيل إلي إنك لا تثق بما أقول.. إصغ إلي يا عزيزي الأمير.. لقد سمعتك مرة تعرب عن رغبتك في الوصول إلى مرتبة الوزراء. فلو إنك قدمت هذا العقد إلى الملكة. لنلت بغيتك. بل ولأصبحت من المقربين إليها قبل مضي أسبوع واحد.

– ماذا تقولين يا كونتس؟!

– إنني أقول ما أؤمن به.. فهل كنت تفضل أن ألزم جانب الصمت؟

فبدا التفكير على وجه الكردينال وإستطردت الكونتس:

– لقد خيل إلي أن الملكة تريد الحصول عليه لأنني سمعتها تتأوه.. وهو أمر طبيعي ولا شك.

– إنك امرأة مدهشة يا كونتس.. ولكن خبريني. أليس حانوت بوهمر في شارع بونت نيف؟

– أجل.. ولقد مررت به إبان عودتي من فرساي.

وأدركت جين أن الكردينال قد وقع في الفخ.

وفي صباح اليوم التالي ذهب الكردينال دي روهان إلى حانوت بوهمر وشريكه واستطاع أن يفوز بالعقد دون السفير المزيف.ثم غادر الحانوت وهو أشد ما يكون غبطة ورضى غير ناظر أو عابئ بالنكبات المالية التي ستحل به بسبب هذه الصفقة.

الفصل الثاني والعشرون

الخيانة

كان الدون عمانوئيل ممتقع الوجه. ثائر الأعصاب عندما دخل بيوسير الغرفة.. والواقع إن مناقشة حامية دارت بين السفير وخادمه. بخصوص مبلغ المائة ألف فرنك الموجودة في خزانة السفارة.ولم يكد بصر الخادم يقع على بيوسير.. حتى بادره قائلًا:

– تعال يا مسيو بيوسير وأحكم بيننا بالعدل.. أليس مبلغ المائة ألف فرنك ملكًا للجماعة؟

– نعم..

صاح السفير: صبرًا.

فقاطعه الخادم:

– وعلى ذلك.. يجب ألا تبقى الخزانة بجوار غرفة السفير.

وسأل بيوسير: ولم لا؟

– من الواجب أن يعطي الدون عمانوئيل مفتاحًا لكل منا.

فقال عمانوئيل: يالله! أتحسبني أريد الفوز بالمبلغ دونكم؟

فقاطعه الخادم قائلًا: إننا جميعًا متساوون في الحقوق.

– حقًا.. لو إننا جميعًا متساوون، لأمكنك أن تقوم بدور السفير.

وقال ببوسير:

– أضف إلى هذا إلى الدون عمانوئيل فضل تدبير الخطة جميعها.

فقال الخادم: ولكنني لا أردد إلا ما يقوله الباقون.

فهتف الدون عمانوئيل وبيوسير معًا: – إنهم مخطئون.

وقال الخادم: ولقد كنت أنا أيضًا مخطئًا حين طلبت إلى مسيو بيوسير أن يكون حكمًا بيننا.

فأجاب بيوسير: إنك وقح، لأنك تتهمني بالتواطؤ مع الدون عمانويل..

وإنقض على الخادم يشبعه ركلًا ولطمًا.

ودق جرس الباب الخارجي في تلك اللحظة. فهتف السفير:

– دعه وشأنه الآن فإن طارقًا يقرع الباب.

فهتف الخادم وهو يتميز غيظًا:

– سوف أطلع الرفاق على ما فعلتم بي.

***

كان القادم هو مسيو بوهمر.. جاء ليعتذر إلى السفير المزيف بعدم إمكانه بيع العقد لجلالة ملكة البرتغال. ولم يكد الرجل يفرغ من حديثه حتى كان الغضب قد استولى على عمانوئيل. وتجلت نظرة تدل على الوحشية في عيني بيوسير. وحملا على التاجر حملة شعواء.. ورفعا الثمن محاولين إغراءه بإسترداد العقد. ولكن بوهمر أصر على الرفض. معتذرًا بدقة الموقف وكيف أنه من المستحيل التراجع عن رغبة ملكية أبديت في سبيل الحصول على مبلغ أكبر.

وانصرف التاجر أخيرًا.. فإلتفت الدون عمانوئيل إلى بيوسير.

وقال:

– لقد هزمنا أخيرًا. فقد خرجنا من الصفقة بمبلغ مائة ألف فرنك أو بمعنى أصبح

ثمانية آلاف فرنك لكل عضو.

– كلا.. لماذا لا نتقاسم المبلغ بيننا؟

– هذه وأيم الحق فكرة مدهشة.. ولكن لا أخال الخادم سيلزم جانب الصمت.

– دعه لي فأنا أعرف كيف أسكته..

وأطل بيوسير من النافذة.. ونادى الخادم.. فلما أقبل استقبله بيوسير بابتسامة عريضة. وقال:

– أعتقد إنك كنت تتحدث مع الحمال عما دار بيننا؟

– كلا..

– لو إنك فعلت ذلك. لارتكبت حماقة عظيمة وفقدت مبلغًا كبيرًا من المال.

– وكيف ذلك؟

– ما رأيك في أن تتقاسم مبلغ المائة ألف فرنك فيما بيننا ونقول للباقين إننا دفعناها لبوهمر؟

– يالله. إنها فكرة صائبة ولا شك.

فزمجر بيويير قائلًا: ألم أقل إنك سافل دنيء. لقد أردنا إختبارك فإذا بك أناني تريد خداع رفاقك.

وانقض على الخادم التعس.. وهو يقول:

– عاوني يا دون عمانوئيل في القبض على هذا المجرم وتسليمه إلى رفاقنا..

فصاح الخادم: إذا لم تتركاني وشأني وشيت بكما..

فقال الدون عمانوئيل وهو يحاول دفع الخادم إلى غرفة جانبية:

– إذهب وأرسل المستشار في إحدى المهام ريثما أقضي على هذا الخائن.

ولما تمكن عمانوئيل من سجن الخادم، وعاد إلى الغرفة وألفاها خالية.. شعر بالإغراء يستولي عليه للحصول على المبلغ كله، فقد كان يدرك أن بيوسير لن يعود قبل مضي بعض الوقت..

أسرع إلى غرفة الخزانة.. ولكنه وجد الباب مغلقًا..

غمغم قائلًا: «ياللشيطان.! لقد ارتاب بيوسير في نواياي فأغلق الباب قبل رحيله» وحاول تحطيم القفل بحسامه، فما نجح في ذلك، سارع إلى الخزانة وفتحها.وبدرت من فمه صرخة مخيفة، فقد كانت الخزانة خاوية..كان بيوسير قد سبقه إليها.. وإستولى على المال..وإستولى الجنون على الدون عمانوئيل.. فأسرع إلى الحال وسأله عن بيوسير، فأجاب الحمال: لقد إنصرف منذ عدة دقائق يا مولاي.!

زاد غضب الدون عمانوئيل.. فأسرع يدعو جميع الرفاق.. ويخلي سبيل الخادم التعس.

وقص الخادم على رفاقه ما حدث.. فأجمعوا على اتهام عمانوئيل بالتآمر مع بيوسير على خيانتهم.. وقرروا شنقهما.

وهكذا انتهت مهزلة السفير البرتغالي المزيف.

***

عندما غادر بيوسير دار السفارة أطلق لساقيه الريح، حتى إذا أصبح على مبعدة من منطقة الخطر.. توقف وراح يلتقط أنفاسه ويفكر في موقفه.. شعر بحرج مركزه بعد أن استولى على المائة ألف فرنك لنفسه، وأدرك أن رفاقه لن يتركوه ناعم البال. وسوف يكون أول ما يجول بخاطرهم البحث عنه في منزله..

ارتجف حين جال هذا الخاطر بذهنه، وخشى أن يجد رفاقه الفتاة في المنزل فيأخذوها رهينة لديهم لعلمهم بالحب المتبادل بينهما.

إستأنف العدو إلى منزل الفتاة وهو يأمل أن ينقذها قبل أن تصل إليها أيدي

رفاقه.. وعندما بلغ المنزل رأى رجلين يتسكعان على مقربة منه..

خيل إليه إنهما من رجال الجندرمة، ولكنه لم يأبه لذلك كثيرًا واستأنف سيره في حذر.. حتى إذا وصل إلى المنزل، رأى أحد رجال الجندرمة واقفًا به، كما رأى الساحة تعج بهم، فلم يشك لحظة واحدة في أن المؤامرة قد انكشف أمرها وأن مسيو دي كروسني رئيس البوليس أرسل رجاله للقبض عليه فلم يجدوه وإنما وجدوا أوليفا فقبضوا عليها..

وسار في طريقه إلى ساحة لوكسمبرج، وقد ذهبت نفسه على صديقته حسرات، ولكنه لم يكد ينعطف في شارع سان جرمان حتى كاد يصطدم بمركبة صغيرة..وفجأة وقع بصره في داخلها على أوليفا وهي تتحدث إلى شاب وسيم الطلعة.

دهش.. وهم بأن يلحق بالمركبة، ولكنه لم يجرؤ على العودة إلى شارع دوفين.. بعد أن أيقن من القبض على الفتاة.

ولم يخطئ بيوسير حين أعتقد أن راكبة العربة هي أوليفا، ولو إنه أمعن النظر قليلًا في رفيقها لعرف فيه ذلك الألماني الكريم.

***

والواقع أن أوليفا ذهبت إلى حدائق لوكسمبرج في صباح ذلك اليوم كي ترتاض قليلًا جريًا على عادتها.وفيما كانت تتهيأ للعودة إلى منزلها. ظهر الرجل المجهول أمامها.. وسألها:

–إلى أين أنت ذاهبة؟

– إلى المنزل يا سيدي.

– وهذا ما يريده من هم في إنتظارك هناك

– ينتظرونني في المنزل؟

– نعم.. لا أقل من إثنى عشر زائرًا.

فضحكت أوليفا.. وقالت:

– إنك تدهشني يا سيدي.

– وكم تكون دهشتك أعظم لو إني تركتك تعودين إلى المنزل.

– ولماذا؟

– لأنهم سيلقون القبض عليك.

ارتجفت الفتاة وصاحت:

– يقبضون علي ! ولماذا؟ لابد أنك تهزأ بي..

– حسنًا.. يمكنك أن تذهبي لترى بنفسك.

فسألت في لهفة: لماذا لا تخبرني بالحقيقة؟ أهم يسعون للقبض على بيوسير؟

– ربما. ولكن بفرض إنهم قبضوا عليه. فهم لن يقبضوا عليك.

سألت: وكيف ذلك يا سيدي؟

– لأنني سأحول بينهم. فهلمي بنا. إن عربتي على مقربة من هنا وقادها إلى عربته. حيث أمر الحوذي باجتياز الطريق أمام منزلها كي ترى بعينيها رجال البوليس وهم في إنتظارها. ولما وصلت المركبة إلى المنزل ورأت الفتاة رجال الجندرمة. امتقع وجهها وملكها الروع.

وبذلك طواها الكونت دي كاليوسترو تحت جناحه. وقادها إلى منزل في شارع سان كلود،حيث أبقاها في غرفة صغيرة بالطابق الثاني.

وإنصرف.. فاستسلمت الفتاة لعبراتها.

الفصل الثالث والعشرون

دهاء جين

تلقي الكردينال دي روهان الرسالة التالية بعد زيارته لحانوت بوهمر بيومين: «لا أخال نيافة الكردينال قد نسى أين سيتناول طعام العشاء الليلة».

فلما قرأ الكاردينال تلك الرسالة غمغم قائلًا:

– إنها من الكونتس الصغيرة ولا شك.. بالطبع لم أنس يا عزيزتي.

***

كانت جين قد اختارت من بين خدمها شابًا وسيم الطلعة جذاب الملامح عهدت إليه بتتبع حركات الكردينال.وأنبأها الخادم بأن دي روهان قصد إلى محل بوهمر مرتين دون أن يخبرها بذلك بدأت تساورها الوساوس.. ولم تر خيرًا من مقابلته ومناقشته الحساب.

وأقبل المساء.. فأقبل الكردينال باشًا متهلل الأسارير وبعد أن تبادلا الحديث برهة. قالت جين:

– سيدي.. أود أن أعرب لك عن إستياءي الشديد لأنك أخفيت عني نبأ ذهابك إلى محل بوهمر لشراء العقد.

فامتقع وجه الكردينال.. وبدا عليه القلق، ولكنه لزم الصمت.

ومدت جين يدها وقبضت على راحة الكردينال في رقة.. ثم قالت:

– معذرة يا سيدي.. لقد أردت أن أظهر لنيافتكم أنكم تخطئون بإحاطة

حركاتكم بالكتمان. ولندع المواربة جانبًا.. وليكشف كل منا ورقه لصاحبه.. فأقول صراحة إنني ما صادقتك إلا لأنني أسعى وراء غرض معين.. ولما كنت أدرك مقدار حبك للملكة فقد وثقت أن في استطاعتي الوصول إلى غرضي لو أنك وافقت على السير في الطريق الذي سأرسمه لك.

دهش الكاردينال في نفسه لدهاء تلك المرأة.

واستطردت جين: إن الملكة امرأة قبل كل شيء. ويقيني أنا لو أهديتها العقد لما وصلت إلى المرتبة التي تريدها من قلبها فحسب، بل لوصلت إلى مرتبة رئاسة الوزارة. فقد سبقك مازران إليها عن هذا الطريق.

بدا التفكير على وجه الكردينال.. ثم سأل:

– إذن فأنت تعتقدين أن هناك أملًا في الوصول إلى رئاسة الوزارة.

– وأمل كبير يا مولاي.

– وكيف ذلك؟

– دع الأمر لي وأنا أمهد لك السبيل.. وسأذهب لمقابلة الملكة.

وعندما أعود سأعود بالخبر اليقين.

***

وقصدت جين إلى قصر فرساي في صباح اليوم التالي وهي أكثر الناس سعادة، وكيف لا تكون سعيدة وقد أصبحت من المقربين إلى الملكة وصديقة رئيس الوزراء المنتظر. وبالرغم من أنها لم تكن على موعد سابق مع الملكة. إلا أن ماري أنطوانيت إستقبلتها بمجرد وصولها.. قالت جين:

– مولاتي لقد جئت لأمر على جانب عظيم من الأهمية.

– وهل هو حقًا كذلك بحيث إنك لم تطلبي موعدًا للمقابلة؟

– نعم يا مولاتي. ولكنه لا يتعلق بي.

فقالت الملكة: لابد أنه كذلك بالنسبة إلي إذن.

– مولاتي إنك تدركين مبلغ العطف الذي يشملني به الكردينال دي روهان.

رفعت الملكة حاجبيها في دهشة.. ونظرت إليها بإمعان.

واستطردت جين: لقد زارني أمس نيافته وتحدث إلي عن مآثر جلالتك وعطفك.. فحدثته بدوري عما لاقيته من جلالتك من حسن رعاية.. ثم ذكرت له كيف إنني شعرت بالألم حين رفضت جلالتك شراء العقد لأنك لا تملكين من المال ما كنت من ذلك.. وعندئذ لاحظت أن دمعتين قد انحدرتا من عيني الكردينال.

ضحكت الملكة ضحكة رقيقة ولزمت الصمت. فاستطردت جين في صوت رصين:

– مولاتي.. لقد أقدم هذا الرجل النبيل على تضحية كبيرة في سبيل ذاتك الكريمة.. أعني إنه قرر شراء العقد وتقديمه هدية لجلالتك. فهتفت ماري أنطوانيت في دهشة:

– هدية: يالله! لو أنك سمعت ما فعله الكردينال ضدي أيام إن كان سفيرًا لفرنسا في النمسا لما دافعت عنده هذا الدفاع الحار.ولكن.. ولكني أعرف أن العقد قد بيع إلى ملكة البرتغال.

فهزت جين رأسها نفيًا. وقالت:

– كلا.. لقد إبتاعه الكردينال دي روهان.

فقالت الملكة في دهشة: حقًا!

وصاحت جين:

– مولاتي لشد ما تألم هذا الرجل النبيل. وذهبت نفسه حسرات عندما حدثته

بإعراضك عن شراء العقد. لا رغبة عنه أو زهدًا فيه. وإنما لافتقار جلالتك إلى ثمنه. ولما أخبرته أن ملكة البرتغال تسعى للحصول عليه.. قال: لم يعد الأمر متعلقًا بجلالة الملكة فحسب. وإنما هي عظمة فرنسا في كفة الميزان. وإنه لعار وأي عار أن يقال أن ملكة فرنسا تراجعت أمام عقد تمكنت ملكة البرتغال من إبتياعه بشيء من مالها. وبذلك أقدم الكردينال على هذه التضحية إبتغاء مرضاتك.

– لا شيء يا مولاتي. بل إنه قد أصر فيما إذا إذ أبيت جلالتك قبوله ألا يتحلى به جيد امرأة أخرى في الوجود.

بدا التفكير على وجه الملكة. ثم قالت وقد أخذت بمنطق جين

– الواقع إن فعلته نبيلة تستحق الإعجاب والتقدير. ولكنني لا أستطيع قبول العقد كهدية وإنما سأقبله على سبيل القرض. هل تعلمين كم دفع من ثمنه للتاجر؟.

– مائة ألف فرنك يا مولاتي.

– لعله من حسن الحظ أنني تسلمت مثل هذا المبلغ من جلالة الملك اليوم. فخذيه إليه وأبلغيه إنني شاكرة له هذا الولاء. وإنني على استعداد لمقابلته كي أشكره بنفسي.

***

ولما غادرت جين القصر ذهبت من فورها إلى منزل الكردينال. وإستقبلها دي روهان مرحبًا. ثم سأل في لهفة:

– هل ذهبت إلى فرساي؟

– نعم.

– وماذا قالت لك الملكة؟

– لقد رفضت قبول العقد كهدية. ولكنها قبلته على سبيل الإعارة إلى أن تسدد لك ثمنه على دفعات.

– إعارة وللملكة!! هذا مستحيل.

– ألا تظن أن ذلك أفضل بكثير من تقديمه كهدية؟

– ألف مرة ولا شك..

ونهض الكردينال واقفًا على قدميه، ثم اقترب من الكونتس. وقال:

– لا تحاولي خديعتي..

– كلا يا سيدي.. وإلا كنت ناكرة للجميل.

– إذن فأنا دائن للملكة..؟

فقالت جين:

– أجل يا سيدي.. وهو سر خطير يجعلها في قبضة يدك على الدوام..ولقد أمرتني جلالتها أن أبلغ نيافتكم إنها ترحب بزيارتكم لها كي تشكركم على ولائكم كما أمرتني أن أقدم لك هذا المبلغ كدفعة أولى.

وقدمت إليه حقيبة صغيرة بداخلها المبلغ فتلقفها في دهشة. ثم رفعها إلى شفتيه وقبلها في وله. ثم قال:

– إنني عاجز عن شكرك يا كونتس.. ولكن هل تعلمين إنني كنت أفكر فيك أبان غيبتك.

– حقًا؟

– نعم.. لقد جاءني مدير مصرفي، وقدم إلى مائة ألف فرنك هي ربح السندات التي أمتلكها.. وقد عونت على أن أقدم إليك ربع هذا المبلغ كهدية صغيرة. فبدا الفرح على وجه الكونتس وقالت:

– شكرًا لك يا سيدي.. لقد أجزلت لي العطاء.

الفصل الرابع والعشرون

غرام دي شارني

هرع الخدم لنجدة الشاب الجريح عند سقوطه أمام غرفة الملكة وحملوه إلى غرفة جانبية.. وتصادف أن كان الملك مارًا في هذه اللحظة، ولاحظ حركة الخدم غير العادية، فذهب لاستطلاع الأمر، وحينئذ وقع بصره على الشاب الجريح.. وحاول دي شاربي النهوض على قدميه عندما رأى الملك، ولكن قواه خذلته، وسقط على الأرض فاقد الرشد..

فأمر الملك باستدعاء طبيبه الخاص ونقل الشاب إلى إحدى غرف قصر فرساي وإستدعاء عمه مسيو سوفرن..

ولما جاء الدكتور لويس وفحص الجريح، قرر أن نوبة من الحمى قد استولت عليه بسبب خطورة جرحه.. ولم يمض على ذلك عدة ساعات حتى بدأ الجريح يهذي هذيانًا مزعجًا.

أدهش الطبيب وجعله يسرع إلى جناح الملكة، بعد أن أمر الخادم بنقل الشاب إلى غرفته الخاصة، ولف رأسه بدثار سميك، حتى يحول دون سماع هذيانه ما أمكن.

وقابلته وصيفتها مدام دي ميرزي، وحاولت أن تستوقفه لتستفسر عن صحة الجريح كما أمرتها الملكة، ولكن الطبيب صرفها في رفق، ثم واصل سيره حتى دخل على الملكة في مخدعها.

وسألته الملكة عن حالة الجريح مباشرة.. فأجاب:

– إنه محموم يهذي.. والحمى من نوع شديدة الوطأة يا مولاتي!

– ولكن مالك تتلفت حولك كأنما هناك سر خطير تخشى عليه من الأسماع..

– وهو كذلك يا مولاتي.

– إذن تكلم ولا تخش شيئًا.. إنك أثرت فضولي..

– إن هذيان الشاب من نوع خطير.. وأخشى أن يصل إلى مسامع رجال الحرس فيتصل أمره بالملك.. وتسوء العاقبة.

ذعرت الملكة.. وسألت:

– وبم يهذي يا دكتور؟

– هذا ما جئت من أجله لجلالتك. وأوثر أن تأتي بنفسك إلى غرفتي لتستمعي لما يقول.

– ولكنك تعلم أن من المتعذر إجتياز الدهاليز الموصلة إليها دون أن يقع على بصر رجال القصر.

– هوني عليك يا مولاتي، ففي استطاعتي أن أقودك إلى دهليز سري.

نهضت الملكة واقفة. ورافقت الطبيب إلى غرفته، ولكنه رفض أن يسمح لها بالدخول إلى غرفة الجريح. وقادها إلى غرفة جانبية.ولم تكد الملكة تدخل الغرفة حتى سمعت صوت دي شارني وهو يقول: «ألماني! ألماني! ملكة فرنسا!».

«هذا مريع.. أأحب ملاكًا؟ أأحبها ذلك الحب الجنوني الذي يهون الموت في سبيله؟»

«ومع ذلك فأنا لا أستطيع الوصول إليها لأنها ملكة.. ولا قلب لها..!»

«إنني أحب امرأة متزوجة. ولكن لا. سوف أخبرها أنه ما زال في العمر فسحة للعيشة السعيدة. تعالى إلي يا حبيبتي لنعش في ظل حب سعيد..» وتوقف قليلًا. ثم عاد فقال في غضب:

«إن لها أطفالًا لا تستطيع مفارقتهم. ولكن لا. لسوف أصطحبهم معي فهي خفيفة الحمل وهم صغار».

«وبدرت من شفتيه صرخة حادة. وصاح: «ولكنهم أبناء الملك..» وتقدم الطبيب من الملكة. فقالت:

– إنك محق في قولك يا سيدي. فهذا الشاب خطر داهم.

– لقد بدأ ثانية. فإصغي إليه يا مولاتي..

وتصاعد صوت شاربي مرة أخرى.. قال في صوت رقيق:

«ماري.. إنني أشعر بأنك تحبينني. ولكن ثقتي إنني لن أقول شيئًا من ذلك.. ماري. لقد أحسست بيدك الرقيقة وهي تمس يدي في المركبة ولكني لن أخبر أحدًا بذلك. وسأحتفظ بهذا السر لنفسي ما حييت..».

«لقد دفن غريمي حسامه في صدري. ولكنه لم يستطع إنتزاع السر من فمي.. فلا تخشى شيئًا يا ماري.. فأنا لا أسألك الحب.. يا الله! ..أيتورد خداك هكذا خمرة الخجل؟ ».

«حسنًا.. كفى هذا.».

صاحت الملكة وهي تنهض واقفة على قدميها:

– لقد سمعت ما فيه الكفاية.

وتهيأت الإنصراف وهي ترتجف، فاعترضها الطبيب قائلًا:

– مولاتي. ماذا أفعل لو طلب جلالة الملك رؤية الجريح؟

بدا التفكير على وجه الملكة.. ثم قالت:

– الواقع إنني في حيرة من الأمر.

فقال الطبيب:

– يبدو أن جلالتك قد تأثرت من نوبة الحمى المستولية على الشاب ومد يده ليجس نبضها. فسحبتها منه في سرعة وتولت عنه وهي مذعورة..

ولبث الدكتور لويس واقفًا في مكانه وقد استولت عليه حيرة شديدة. كان يقدر خطورة الموقف.. ثم تقدم نحو الجريح ونضح وجهه بالماء البارد.. ولم يكد يفرغ من ذلك حتى سمع حفيف ثوب خارج الغرفة..

تساءل: أيمكن أن تكون الملكة قد عادت ثانية؟

قصد إلى الباب وفتحه.. فألفي نفسه أمام امرأة كانت تنظر إلى الباب نظرة البائس القانط.

وبدرت من شفتي المرأة صرخة خافتة.. ثم تحركت تبغي الإنصراف.

صاح الطبيب: من هناك؟

فأجابه صوت يقطر حنانًا وحزنًا:

– إنها أنا يا دكتور.. أنا أندريه دي تافرني.

صاح الطبيب: يا إلهي.. ماذا حدث.. هل هي مريضة؟

– هي من؟

فأدرك الطبيب خطأه.. وأسرع يقول:

– أرجو المعذرة. فقد رأيت امرأة تسير في الدهليز منذ لحظة.

– لا تحاول خديعتي يا دكتور. فلطالما عهدتك رجلًا صريحًا صدوقًا.

– ماذا تريدين يا طفلتي العزيزة؟ هل اشتد المرض على جلالة الملكة؟

– نعم الملكة.. لقد أتت مدام دي ميزري لتناديني كي أعود جلالتها.

قالت الفتاة: إنني لا أعرف شيئًا عن مرض الملكة. ولكن معذرة فقد نسيت ما جئت لأجله.

وتركت في مكانها، فأسرع الدكتور لويس يسندها بذراعه.

قالت: معذرة يا سيدي، فقد استولى علي الخوف وسط هذه الدهاليز الملتوية المعتمة.

– ولماذا بحق الشيطان جئت تتجولين بينها؟

– لقد جئت أستفسر عن الجريح يا سيدي

تلقى الطبيب هذا الاعتراف بالهدوء. وأردفت الفتاة:

– أرجو الصفح عن حماقتي.. فقد جرح في مبارزة وقعت بينه وبين أخي.

– أخوك! لقد كنت أجهل ذلك.

– نعم. هذه هي الحقيقة. ولست أشك في أن مبارزتهما لا غبار عليها.

– هذا صحيح.. بيد أن موضع الأهمية في تلك المبارزة هو إنهما تقاتلا بسبب سيدة.

– سيدة!!

– بسببك مثلًا.

فتأوهت الفتاة وقالت: هذا مستحيل يا سيدي.

فسأل: أخبريني، هل أرسلك أخوك للسؤال عن الجريح؟

– نعم.. يا سيدي.

– إذن أرى أنه من المستحسن أن أطلعك على الحقيقة حتى يتخذ أهبته للطوارئ.إن الملك يكره المبارزات بين رجال حاشيته. فإذا مات مسيو دي هاريي فلا أشك في أن مصير أخيك إلى الباستيل.

سألت في لهفة: وهل حالته خطرة؟

– إصغي إلي يا بنيتي.. لو إني فشلت في إيقاف الحمى غدًا لهلك الشاب لا محالة.

عضت الفتاة على شفتيها حتى كادت تدميهما.. ولكنها قالت في صوت هادئ:

– مهما يكن فلن يهرب أخي.

وخدع الطبيب. واعتقد أن الفتاة لم تأت حقًا من تلقاء نفسها.

سألت: وكيف تلقت الملكة النبأ؟

– الملكة؟ لا أدري شيئًا عن ذلك.. وكل ما أعلمه هو أنني سأفعل جهدي لإنقاذ الشاب.

أسرعت أندريه بالانصراف إلى غرفتها.. وأغلقت الباب خلفها.. ثم ركعت على ركبتيها.. وهتفت في صوت كله ضراعة:

رباه. إنقذه من الموت رحمة بي.

وسقطت فاقدة الوعي.. وهي تغمغم «أواه أني أحبه.. إنني أحبه».

***

وتغلب شباب دي شارني على الحمى، وسترد شعوره في اليوم التالي. ولما أدرك الدكتور لويس أن الشاب قد نجا من الخطر، عول على نقله من غرفته إلى مكان آخر بفرساي.

بيد أن شارني غضب ورفض الإنتقال. وأصر الطبيب على نقله. فاستدعى أربعة من الخدم ليحملوه بالقوة. وهنا نشبت بين الجميع معركة إنجلت عن فتح الجرح ونزف الدم. وعاودت الحمى دي شارربي.كما عاوده الهذيان وفي حالة أشد من حالته السابقة ، واستولى الذعر على الطبيب فصرف الخدم. وأعاد حياكة الجرح.ثم ذهب لمقابلة الملكة لإستشارتها في الأمر.

وقابلته الملكة بإبتسامة عذبة. كانت تتوقع سماع نبأ شفاء الشاب. ولكنها لم تكد تسمع قصة الطبيب. حتى تجهم وجهها.

وقال الطبيب: ولكن خطورة الإصابة ليست في ذات الجرح ولكنها في الناحية العقلية منه فهو يتقدم بسرعة إلى ناحية الجنون. وهذا ما لا قبل لي على شفائه.. مولاتي إنك ستحطمين مستقبل هذا الشاب.

– أنا! أنا أتسبب في جنونه؟

– إذا لم يكن ذلك حاليًا. ففي مستقبله.

– اذن خبرني ماذا في وسعي أن أفعله؟

– مولاتي. إن في إستطاعت إنقاذه. وانقاذه معلق بين شفتيك وان كان في ذلك خرق وتهور، إلا أن فيه درء للفضيحة على الأقل.

– إذن سأذهب إليه.

وأرسلت في طلب أندريا لمرافقتها، فقيل لها أنها ليست في غرفتها. فلم تنتظر وإنما قصدت إلى غرفة الشاب في رفقة الطبيب.وكان شارني مستغرقًا في سبات عميق حين وصلت الملكة إلى الغرفة وألقت أندريه واقفة بالباب.. هتفت: أندريه.!

كانت الفتاة ممتقعة الوجه، بادية الإضطراب.. أجابت:

– نعم يا مولاتي.. أنا أندريه..

– لقد سألت عنك ولكنهم أخبروني أنك بالخارج..

فلم تجد الفتاة مفرًا من الكذب فقالت:

– عندما سمعت أن جلالتك تطلبينني جئت إلى هنا بعد إذ أخبروني أنك كنت برفقة الدكتور لويس.

ودلفت الملكة إلى الغرفة.. وقد خلفت أندريه بالخارج مع الطبيب. أما أندربه

فقد ألقت على الملكة نظرة تدل على الغضب والحزن.

***

تقدمت الملكة نحو الأريكة التي كان دي شارني ممددًا فوقها.. وكأنما أحس الشاب بدخولها إذ لم يلبث أن فتح عينيه ثم استوى جالسًا.. وهتف: مولاتي.؟!

وأجابت: نعم يا سيدي.. مولاتك التي جاءت تنذرك بأنك على وشك الإقدام على حماقة قد تودي بعقلك وحياتك.. الملكة التي أسأت إليها بتصرفاتك الخرقاء.

ثم توقفت وهي تنظر إليه نظرة صارمة.. واستطردت قائلة:

– أيمكن أن يتحول شاب مثلك برهن على الإخلاص والولاء إلى عدو خطر.. يحاول النيل من شرف امرأة؟ ماذا يفعل أعدائي إذن إذا كان صديق مثلًا سيئًا في الخيانة.؟

غمغم دي شارني في ذهول: خيانة!! كلا.. كلا يا مولاتي فما أنا بالخائن الناكر للجميل.. وأقسم على ذلك.

فسألت في صوت متهدج: أتتمتع أنت بقواك العقلية؟

– نعم يا مولاتي.

– وهل تعرف الأخطاء التي ارتكبتها حيالي وحيال الملك؟

غمغم: يا إلهي؟!

– هل نسيت أن الملك هو زوج المرأة التي تهينها برفع عينيك إلى وجهها؟ وأنه أبو سيدك المستقبل؟ هل نسيت أنه أعظم من أكبر رجل فيكم.. وإنني أقدره وأحبه؟

تأوه الشاب. وبدت عليه دلائل الضعف.. والخوار.

– لقد شكا الدكتور لويس من حماقتك التي كادت تنجلي عن فضيحة. فمتى تثوب إلى رشدك وتغادر القصر؟

فأجاب الشاب بصوت خافت: مولاتي..إن جلالتك تطردينني.. إذن فسأرحل.. وسأرحل في الحال.

وبمجهود يائس نهض واقفًا. ثم ركع على ركبتيه أمامها.. ولم يلبث أن فقد شعوره وسقط بين ذراعيها.ومددته فوق الأريكة.. ففتح عينيه وقال:

– أواه.. إنني أموت.. ولكني أموت في سبيل من أحب.

وانبثق الدم ممتزجًا بالزبد من شفتيه.. فمرت بيدها الباردة فوق جبينه الملتهب وقلبه الضعيف.وكأنما عاودته الحياة من جديد.. فنهض واقفًا وقال في ضراعة:

– مولاتي..

ولكنها لم تنتظر حتى تسمع بقية حديثه.. بل هرولت إلى الخارج كالظبي النافر وهي لا تكاد تتماسك.ودلفت من الباب فتلقاها الدكتور لويس وأندريه في لهفة.

هتفت: إنه سيرحل..

ودخل الدكتور لويس إلى الغرفة. ونظر إلى الشاب نظرة تساؤل قال: يبدو إنك استعدت قواك يا سيدي.

– نعم. وقد قررت الرحيل.

***

وفي المساء كانت أندريه تطل من من نافذة غرفتها، حين رأت دي شارني وهو يغادر القصر إلى مزارعه في بيكاري ليمضي دور النقاهة بين حقوله.

الفصل الخامس والعشرون

القلوب الدامية

دخلت أندريه مخدع الملكة في صباح اليوم التالي فألفتها تقرأ رسالة وصلتها من جان دي لاموت وقتئذ وقد تلاعبت على شفتيها إبتسامة عريضة..كانت الفتاة ممتقعة الوجه بادية الحزن والبرود. إلا أن الماسكة لم تلاحظ ذلك إلا حين حيتها ولم ترد التحية.

إلتفتت ماري أنطوانيت إلى الفتاة.. ولم تلبث أن صاحت:

– يالله! ماذا حدث يا أندريه؟

– لا شيء يا مولاتي.. لقد جئت لأودع جلالتك لأنني قررت مغادرة البلاط.

– وتتركينني!

– أجل يا مولاتي..

– ومتى ترحلين؟ وما هو الدافع لهذا الرحيل المفاجئ؟

إحمر خدا الفتاة وأجابت:

– لست أرى أن أزعج مولاتي وأضيع وقتها فيما لا طائل تحته إنني لست راضية عن حياتي في البلاط، ولهذا جئت أستميح مولاتي عذرًا. لأنني قررت الذهاب إلى الدير..

نهضت الملكة واقفة وهي تنظر إليها في دهشة.وحاولت أن تستفسرها عن السبب في عزمها. ولكن أندريه لزمت الصمت.. فقالت الملكة وقد أدركت عبث حملها على الكلام:

– كما تشاءين.. لقد رددت إليك حريتك. ولكن تذكري دواما أنني صديقتك.

وأنني لن أنساك. أخبريني.. إلى أي دير ستذهبين؟

– إلى دير سان دنيس يا مولاتي.

– حسنًا.. إنني أعتبرك ناكرة الجميل يا فتاتي، فأذهبي.. إذهبي..

وغادرت الفتاة الغرفة وهي مطرقة الرأس.. وما هي إلا دقائق حتى غادرت قصر فرساي في طريقها إلى منزل أبيها.

***

ولم تكد أندريه تنصرف حتى دخلت مدام دي ميزري لتعلن قدوم مسيو دي كالون وزير المالية.كانت الملكة قد بعثت في طلبه لتسأله تدبير مبلغ خمسمائة ألف فرنك لدفعها في اليوم الخامس من الشهر القادم. فلما أقبل الوزير وعرضت عليه الأمر قال الرجل:

–بكل سرور يا مولاتي.

فشكرته الملكة وعلى شفتيها إبتسامة سعيدة.

***

ولم يكد الوزير ينصرف من مقابلة ماري أنطوانيت حتى دخلت (جين دي لاموت) الغرفة..

وقالت: مولاتي، إن الكردينال هنا.

وعلى أثر ذلك دلف الكردينال إلى الغرفة.. وإنصرفت جين..لم يكد الكردينال يجد نفسه وحيدًا في حضرة الملكة حتى أحنى لها قامته إحترامًا دون أن يجرؤ على رفع عينيه إلى وجهها.

قالت: سيدي! لقد سمعت عنك ما أنساني أخطاءك الماضية.

فأجاب في صوت متهدج: وما أنا إلا العبد الخاضع حتى الممات.

– شكرًا لك.. إنني لا أريد لك الموت.. وإنما أرجو لك حياة سعيدة، ولذلك فإني لا أود أن تضيع ثروتك وتعيش بائسًا من أجلي.

– مولاتي.. هذه تضحية بسيطة.

– كلا.. كلا.. دع عندك ذاك فقد بلغني أنك ستضيع ثروتك في سبيل إرضائي وهو أمر لا أقبله..لقد عولت على دفع ثمن العقد. فاعتبرني مكانك في الصفقة..

فأحنى الكردينال قامته إحترامًا.. ومد يده في جيبه.. وأخرج الصندوق الذي يحوي العقد..

وقدمه إلى الملكة فتلقفته في لهفة.. وراحت تنظر إليه في إعجاب.

وأدرك الكردينال أن بقاءه لم يعد مرغوبًا فيه.. فقبل يد الملكة وغادر الغرفة وهو يشعر بسعادة غامرة..

وفي الدهليز قابلته جين.. سألت: هل نجحت.؟

– إلى أبعد حدود النجاح..

– إذ فستصبح وزيرًا

– ربما..

– لا تخش شيئًا ودع الأمر لي..

فسأل: ولكن إلى أين أنت ذاهبة الآن؟

– سأذهب لمقابلة الملكة.. وأنت؟

– إلى منزلي في باريس فقد وصلني خطاب من مجهول بريد مقابلتي لأمور مالية..

– إذن لا تنس نصيبي من الصفقة.

– لقد واتيتني بالحظ يا كونتس فمن الجحود أن أنسى فضلك.

ووصل الكردينال إلى منزله في باريس وهو يشعر بأنه قد أصبح إنسانًا آخر.قرر

أن يعيش مخلصًا ويطلق حياة العربدة والفجور.. فعمد إلى جميع رسائل الغرام فأحرقها.. ثم جلس إلى مكتبه يتصفح تاريخ النظام الاقتصادي في إنجلترا. وفيما هو كذلك إذ أقبل الخادم ليعلن قدوم الكونت دي كاليوسترو.ولم تكد أنظار الكردينال تقع على القادم. حتى هم واقفًا.. وهتف:

– يالله! أيمكن هذا؟ جوزيف بلسماو الذي قيل إنه مات محترقًا، حي يرزق؟

– أجل يا صاحب النيافة.. ويتمتع بصحة جيدة أيضًا.

– ولكن لماذا غيرت أسمك؟

– لكل زمان رجال يا صاحب النيافة.

بدا التفكير على وجه الكردينال.. ثم قال:

– لقد أديت لي معروفًا لن أنساه يا سيدي.

– هذه مسألة ثانوية فإن الأكسير ممكن عمله في أي وقت لأنني أملك طريقة تركيبه.. أما ما آسف عليه حقيقة فهو الذهب، لأن طريقة تحضيره قد قبرت إلى الأبد بوفاة الثوناس.

وجلس كاليوسترو على مقعد وثير. ثم استطرد:

– أما وقد عدنا أصدقاء فلنتحدث.

– نعم.. لنتحدث عن المال الذي ذكرته في خطابك.. أو إنك كنت تتخذ من ذلك حجة للقاء؟

–كلا يا سيدي.. إن الأمر صحيح لأنه يتعلق بمبلغ نصف مليون من الفرنكات..

سأل الكردينال وقد امتقع وجهه:

– أتعني المبلغ الذي أقرضتني إياه؟

– نعم يا صاحب النيافة.. ويسرني أن أقرر أن لنيافتكم ذاكرة مدهشة.

كانت لطمة قاسية تجهم لها وجه الكردينال.. ولكنه حاول الإبتسام وقال: لقد ظننت أن جوزيف بلسامو حمل دينه معه إلى القبر!

– سيدي.. أعلم أن حياة بلسامو لا يصيبها الفناء، فإن الموت ضعيف أمام إكسير الحياة.

وأخرج من جيبه ورقة. قدمها للكردينال.. وهو يقول:

– وهاك إيصال المبلغ..

صعق الكردينال.. وهتف: ولكني رأيتك تحرقه؟!

– هذا صحيح.. لقد ألقيت به في النار. ولكن ورق الإيصال من مادة لا تؤثر فيها النار.

فبدا الغضب على وجه الكردينال.. وزمجر قائلًا:

– سيدي. لست أنا ممن ينكرون ديونهم. بيد أنني أعجب كيف قبلت أن تنتظر عشر سنوات دون المطالبة بحقك؟

– لقد كنت واثقًا أن المبلغ محفوظ لي وإن في إستطاعتي المطالبة به متى شئت.

– وهل تريده الآن؟

– نعم.

بدا اليأس على وجه الكردينال.. وصاح:

– يبدو أنك تعتقد إنني أملك مثل هذا المبلغ. ولكن دعني أقرر أنك مخطئ في دعواك فضحك كاليوسترو.. وأجاب:

– بل إنك تمتلك أضعاف هذا المبلغ.. فأنت تمتلك مثلًا ثلاثين ألفًا من الفرنكات الذهبية وأحد عشر ألفًا منها فضية. هذا غير الأوراق المحفوظة في مكتبك.

أبيض وجه الكردينال حتى حاكى وجوه الأموات.. وقال:

– هل تعرف ذلك أيضًا؟

– نعم يا صاحب النيافة.. ولقد بلغني أن نيافتكم تقدمون على تضحيات عظيمة سوف تكلفكم مالًا كثيرًا.

أسقط في يد الكردينال وغشيت وجهه سحابة من الحزن. وقال:

– حسنا يا سيدي سأدفع لك ما تريد.. بيد أني أذكر إنه لم يكتب في الإيصال موعد للوفاء.

– إنك مخطئ يا سيدي..

وفتح الإيصال وبدأ يقرأ ما فيه:

«أقرر إنني إستلمت مبلغ نصف مليون فرنك من مسيو جوزيف بلسامو. وإنني على إستعداد للوفاء عندما يطلب إلي ذلك.»

«لويس دي روهان»

قال الكردينال:

– حسنًا.. سأدفع لك يا سيدي. ولكن إعطني الإيصال أولًا.

بدا التردد على الكونت. ولكن نظرة واحدة إلى وجه الكردينال كانت كافية لأن ترسل الرحمة في أشد القلوب قساوة.ومد الكونت يده بالإيصال إلى الكردينال. فأخذه هذا ونهض إلى مكتبه. فأخرج المبلغ من أحد أدراجه وسلمه للكونت.

وأحنيبكاليوسترو قامته إحترامًا للكردينال. وتهيأ لمغادرة الغرفة وهو يقول: إنني في خدمة نيافتكم دائمًا.

أما الكردينال فقد غمغم قائلًا لنفسه:

– لعل من حسن الحظ أن المال موجود عند الملكة. وإلا لحل بي الخراب العاجل.

الفصل السادس والعشرون

مأزق

كانت جين دي لاموت تتناول طعام العشاء مع الكردينال عندما جاءها رسول من قبل الملكة يطلب إليها موافاة جلالتها على عجل..وغادرت جين قصر الكردينال إلى قصر فرساي. فأدخلت على الملكة في الحال.. كانت ماري أنطوانيت ممتقعة الوجه بادية الاضطراب.

كان الملك قد رفض الموافقة على منحها مبلغ النصف مليون فرنك التي وعد بها كالون. مؤثرًا مصلحة الوطن على مصلحة الملكة.ولما تلقت ماري أنطوانيت هذا النبأ تملكها اليأس. كانت قد وعدت الكردينال بدفع القسط الأول من ثمن العقد في اليوم التالي..

صاحت الملكة: أواه.. من حسن الحظ أنك قدمت في وقت مناسب.. فقد رفض الملك الموافقة على منحي مبلغ النصف مليون فرنك.

غمغمت الكونتس في ذعر: يا إلهي!

واستطردت الملكة: إنه أمر يؤسف له. ولكنه أصر على الرفض إصرارًا جعلني أدرك أن من العبث مناقشته في الأمر. ولست أرى إلا أن تعودي إلى باريس وتخبري الكردينال أنني قبلت العقد منه كهدية بعد إذ عجزت عن وفاء المبلغ..

فصاحت جين:

– مولاتي.. لقد قضي علينا. فلم يعد لدى الكردينال مال..

ذعرت الملكة. وهتفت: لا مال عنده!

– كلا يا مولاتي.. فقد طالبه دائن قديم بدين له عنده فاضطر إلى الوفاء..

اعتمدت الملكة رأسها بيديها.. وبدا عليها التفكير العميق..

ثم قالت: الواقع أن هذا درس مؤلم لي.. بل عقاب لي على إقدامي قبول هدية دون علم الملك.. إذهبي إلى الكردينال وأبلغه أنني لا أريد إمتلاك العقد، لأنني أفضل كبح رغباتي الخاصة في سبيل الواجب والوطن..

– ولكنك دفعت للتاجرين مبلغ مائة ألف فرنك مقدمًا يا مولاتي.

– إنني على استعداد للتنازل عن هذا المبلغ في سبيل فسخ العقد فإذهبي إلى الكردينال وخبريه إنني أشكره على ولائه وإنني لن أنسى تفانيه وإخلاصه.

***

وعندما غادرت جين قصر فرساي كانت تحمل العقد النفيس في جيبها. عادت إلى منزلها كي تستبدل ثيابها..وراحت تفكر: أتذهب لمقابلة الكردينال ومناقشته في الأمر أم تذهب بالعقد إلى حانوت مسيو بوهمر وشريكه حسب أوامر ماري أنطوانيت؟

وحين نهضت من مقعدها. كانت على شفتيها ابتسامة ماكرة.

***

وبعد خمس دقائق كانت في طريقها إلى منزل الصحافي مسيو ريتو.ولم تظهر نتيجة زيارة الكونتس جين دي لاموت للصحافي إلا في صباح اليوم التالي عندما تلقت ماري إنطوانيت الرسالة التالية:

«نحن الموقعين على هذا نقرر استلامنا العقد الذي بيع لجلالة الملكة بمبلغ مليون وستمائة ألف فرنك نظرًا لأنه لم يوافق جلالتها.. وقد استلمنا مبلغ مائة ألف فرنك على سبيل التعويض»

ولما قرأت الملكة هذه الرسالة تنفست الصعداء.. وعاد إلى وجهها إشراقه ووضعت الإيصال في خزانتها. ثم صرفت الأمر من ذهنها.وبعد يومين من هذه الحوادث ذهب الكردينال دي روهان إلى حانوت بوهمر وشريكه ليتحرى عما تم في أمر الدفعة الأولى..وكان يتوقع أن يقابله الرجلان بإستياء. ولكنه دهش حين استقبلاه باسمين.

سأل: إذن لقد دفعت لكما جلالة الملكة؟

– كلا يا صاحب النيافة.. إن جلالتها لم تستطع تسديد المبلغ لأن جلالة الملك رفض التصديق عليه. ولكنها قدمت لنا الضمان الكافي.

– هذا أفضل.. ولكن هل إتصلت بكما عن طريق الكونتس؟

– كلا يا سيدي.. فعندما سمعنا برفض جلالة الملك منح الملكة المبلغ كتبنا إلى الكونتس أمس.. فأجابتنا بكلمة واحدة وهي «إنتظرا» فلما كان المساء جاءنا رسول من البلاط يحمل إلينا ضمان جلالة الملكة. وفيه تقرر استعدادها لدفع القسط الأول في مدى ثلاثة أشهر. والباقي بعد ستة أشهر. فقال الكردينال: يسرني إنكما إتفقتكما مع جلالتها..

ومن حق القارئ أن يعرف أن جين دي لاموت تمكنت من إرضاء الملكة والتاجرين بإستئجار قلم الصحافي ريتو.. فهو الذي حرر الرسالة الأولى للملكة والثانية للتاجرين..

وبذلك استطاعت أن تكسب مدة ثلاثة شهور لتتم جريمتها وتستولى على العقد لنفسها.

وفي اليوم التالي ذهبت جين إلى الكردينال وأطلعته على ما أطلعه عليه التاجران.ولما سألها عن رأي الملكة فيه. راحت تسهب في مرضاتها عنه حتى شعر

الكردينال بقلبه يركض بين ضلوعه من الفرح.

***

كانت الكونتس قد عولت على بيع بعض أحجار العقد بمبلغ مائة ألف جنيه. ثم ترحل إلى إنجلترا لتتخلص من الباقي هناك.بيد أنها لم تلبث أن أدركت صعوبة التخلص من الأحجار، فقد عرض عليها بعض التجار سعرًا ضئيلًا بينما رفض آخرون الشراء بحجة أنهم لم يروا مثل هذه الأحجار النادرة إلا في عقد مسيو بوهمر وشريكه.

أسقط في يدها. فعولت على الانتظار ومراقبة الحوادث. بيد إنها كانت تدرك دقة موقفها. إذ يكفي أن يقابل الكردينال الملكة. وعندئذ تنجلي الحقيقة ويقضي عليها.خطر لها أن تفر بالغنيمة، ولكنها عادت فصرفت هذا الخاطر لما سيجره عليها من وبال. وآثرت البقاء والحيلولة دون مقابلة الكردينال للمملكة.

الفصل السابع والعشرون

ذكاء جين

عندما قاد الكونت دي كاليوسترو أوليفا إلى ذلك المنزل المنعزل لأول مرة. شعرت الفتاة بالسعادة لتخلصها من الوقوع في قبضة البوليس. بيد أنها لم تكد تمضي بضعة أيام حتى بدأت تتبرم من تلك الحياة التي السير على وتيرة واحدة.

وكان كاليوسترو يزورها مرتين في الأسبوع.. وحدث أن جاء لزيارتها على غير موعد خلافًا لعادته.واستقبلته الفتاة بعاصفة من التذمر والإستياء وأعربت له عن رغبتها في الرحيل للحاق بعشيقها بيوسير.

فأجابها: يا لك من حمقاء.. ألا تعرفين أن البوليس يجد في أثره.

سألت في لهفة: وماذا فعل حتى يتعقبه البوليس؟

– لقد أقدم على عمل عظيم يدل عن ذكاء نادر ولكن مسيو كروسني أدرك الحيلة وأرسل رجاله في أثره.

قالت: ولكني ضقت ذرعًا بهذه الحياة المملة.

– لا تجزعي يا بنيتي.. فسأنقلك إلى غرفة أخرى تتوفر فيها وسائل التسلية. ولكن حذار أن يراك أحد وإلا حلت الكارثة.

وقادها إلى غرفة أخرى في الطابق العلوي.ثم غادر الغرفة. فإرتمت السجينة فوق الفراش الفاخر. وهي في حيرة من أمر ذلك الرجل الغريب الأطوار. ولما أفاقت من نومها في صباح اليوم التالي بدأت تفحص الجناح الجديد الذي إنتقلت إليه.وكم كانت

دهشتها عظيمة عندما ألفت الغرف مؤسسة بفاخر الأثاث مما لم تعهده من قبل.ودلفت إلى الشرفة. وراحت تتأمل الحقول التي تمتد على يمينها.

ودارت بعينيها وبدأت تنظر إلى المنازل المقابلة. وإسترعى انتباهها منظر إحدى الغرفة وقد فرشت بأثاث أصفر اللون.

وفي داخل الغرفة رأت أوليفا امرأة جالسة فوق مقعد. على حين كان حلاق يصفف لها شعرها على الطريقة التي كانت شائعة في ذلك العصر.

والواقع إن المرأة التي رأتها أوليفا لم تكن غير جين دي لاموت.

***

ولما سئمت أوليفا النظر إلى المرأة. قصدت إلى غرفتها بيد أن لم تكد تتراجع قليلًا حتى اصطدمت بإحدى أصص من الزهور. فسقطت فوق الأرض وتحطمت محدثة صوتًا عاليًا. واسترعى الصوت إنتباه جين.. ولما رأت أوليفا أخذها العجب والدهشة وغمغمت: «الملكة». وأمعنت النظر في أوليفا.. ولم تلبث أن هزت رأسها وقالت لنفسها:

– لقد عثرت بالحل المناسب!

أسرعت أوليفا تدور على عقبيها بغية الدخول إلى الغرفة فرأت أمامها الكونت دي كاليوسترو. وكان قد قدم على صوت انكسار الآنية.

***

لم يغضب كاليوسترو ولم يثر. وإنما حذر أوليفا من الاتصال بالجيران. منذرًا إياها بأن ذلك قد يؤدي إلى افتضاح أمرها..بيد أن الفتاة لم تعبأ هذا الإنذار. فسرعان ما عادت إلى الشرفة على أثر إنصراف الكونت.ولم تكن جين أقل لهفة في التعرف بأوليفا من الفتاة نفسها.. فما إن رأتها في الشرفة حتى أومأت لها برأسها تحييها. وتكررت هذه التحية في اليومين التاليين.. فإذا كان اليوم الثالث وجاء كاليوسترو

لزيارة أوليفا أبلغها أن امرأة جميلة جاءت لزيارتها في منزلها.

فلما سألته الإيضاح. أجاب:

– لقد سألت تلك المرأة الخادم عمن يسكن هذا الطابق، وأعربت عن رغبتها في زيارتك. وأخشى أن يكون أمرك قد كشف. فاحذري لنفسك فإن للبوليس أعوانًا من النساء أيضًا.

لم يبد الخوف على أوليفا بل ولم تحاول العمل بنصحه. فإذا كانت الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ألفيناها في الشرفة.

وبرزت جين فجأة من وراء الستار وراحت تتلفت حولها في حذر ثم ألقت إلى أوليفا برسالة قد شدت إلى كرة خشبية صغيرة.

«لقد أثرت فضولي أيتها المرأة الجميلة حتى لأجد من نفسي رغبة ملحة في مصادقتك. فهل أنت سجينة؟ لقد حاولت عبثًا أن أتصل بك.. فهل لا يسمح سجانك لكائن من كان بمقابلتك؟ إذا لم يكن في إستطاعتك الخروج. فلا أقل من أن تكتبي إلي..»

«أما كيف نتبادل الرسائل فبالطريقة الآتية: شدي رسالتك إلى خيط رفيع.. وأدليها من شرفتك.. وحينئذ أكون في إنتظارها..

ولما كانت هذه العملية ستحدث في الظلام فإنني واثقة من أن أحدًا لن يرانا.

«صديقتك»

وبهذه الطريقة استطاعت الفتاتان أن تتبادلا الرسائل، حتى تمكنت جين أخيرًا من إغراء أوليفا على نقل بصمة المفتاح على قطعة من الشمع ووضعها مع إحدى الرسائل.. لتصنع لها مفتاحًا آخر. وبذلك يسرت لها سبيل الخروج.وتسللت أوليفا تحت جنح الظلام وإجتمعت بصديقتها الجديدة.

ومن ثم استقلتا مركبة نقلتهما إلى مكان أمين حيث قضتا ساعتين معًا.

وعرفت جين من أوليفا إسم سجينها أو منقذها كما يدعي.. كما عرفت بقصة ببوسير والدافع الفتاة على الاختفاء. ومن ثم تعددت المقابلات بينهما.. دون أن يرتاب الكونت في أمرهما أو هذا ما كانتا تعتقدان.

الفصل الثامن والعشرون

الغيرة

كان الطبيب قد أمر دي شارني إلا يبارح المنزل قبل أن يلتئم جرحه. بيد أن الشاب لم يحتمل البقاء وحيدًا مدة طويلة. فلم يلبث أن رحل بعد أسبوع. واستأجر كوخًا صغيرًا داخل حدائق القصر الملكي في فرساي.وعاش الشاب عيشة العزلة وكان عزاؤه الوحيد أن يرى الملكة وهي تتجول في الحديقة مع بعض من أتباعها.

***

وحدث ذات ليلة أن جلس الشاب قبالة النافذة حتى انتصف الليل وفيما كان يتهيأ للنوم إذ رأى شبحين يتسللان من بين الأشجار في هدوء. حبس أنفاسه وراح يرقبهما في صمت. وما هي إلا لحظات حين استطاع أن يعرف في إحدى المرأتين حبيبة قلبه ماري أنطوانيت.كانت تحمل في يدها وردة جميلة وهي تمشي إلى جوار رفيقتها مشية السعيد فخيل إليه أن يخرج إليها. ويركع عند قدميها. ويهتف باسمها.

وتأهب للخروج حين إسترعي إنتباهه صوت مفتاح يدار في قفل باب الحديقة. فعاد إلى مكانه وجلس يرقب.

وفجأة. برز من بين الأشجار رجل يرتدي معطفًا سميكًا وقد رفع بنبقته إلى أعلا كي يخفي ملامحه.وتقدم الرجل صوب الملكة في تردد. ثم رفع قبعته يحييها. وأحنى قامته إحترامًا.

وتحولت دهشة دي شارني إلى شعور بالألم. وراح يتساءل عما دفع الملكة إلى مقابلة هذا الرجل تحت ستار الظلام.

وكانت رفيقة الملكة تقف على مبعدة وهي تتلفت حولها كالحارس.ورأى دي شارني رفيق الملكة. وهو يحني لها قامته ثانية. ثم يتهيأ للإنصراف ولكن رفيقة الملكة تطلب إليه الإنتظار ريثما ينصرفان.

ومرت الملكة ورفيقتها من تحت نافذة دي شارني. وأعقبهما الرجل المجهول بعد لحظات وكان يحمل في يده وردة جميلة قد رفعها إلى شفتيه وهو يقبلهما فيما يشبه الوله.

ظل الشاب جالسًا في مكانه وقد اعتمد رأسه بكفيه شأن اليائس الذي إشتد به الألم. وعول على مراقبة الملكة لعله يعرف اسم عشيقها. فلما كانت الليلة التالية جلس إلى النافذة وراح يرقب الحديقة وهو على أحر من الجمر.

ودقت ساعة بعيدة إثنتي عشرة دقة إيذانًا بانتصاف الليل. وسمع دي شارني صوت المفتاح يدار في قفل الحديقة. فحبس أنفاسه وراح يرقب الخارج في لهفة.ودلفت المرأتان إلى الحديقة. فتأوه الشاب آهة تدل على فرط الألم.

وبعد لحظات رأى الرجل المجهول وهو يسرع لمقابلة الملكة ثم ركع على ركبتيه عند قدميها. وراح يتكلم إليها في صوت خافت.. ولكنه استدل من حركاته على إنه كان يحدثها حديثًا غراميًا.

وفجأة صاح الغريب:

– مولاتي.. إنني عاجز عن شكرك.. إلى الغد إذن.

ومدت الملكة يدها. فأوقفت عشيقها. ثم تهيأت للانصراف.. وقدمت يدها إلى الرجل المجهول فطبع عليها قبلة طويلة.وعندئذ تبدل الشك لدى الشاب يقينًا.. وحزم رأيه على مباغتة العاشقين في مساء اليوم التالي ووضع حد لهذه المهزلة المؤلمة. فإذا كانت الليلة التالية مع شارني باب الحديقة وهو يفتح.. فهرول إلى الخارج ولكنه لم يجد أحدًا.

خطر له أن يكون العاشقان قد ذهبا إلى حمامات أبولو في نهاية الحديقة. فأسرع للحاق بهما بغية مناقشة الملكة الحساب. وعندما وصل إلى الحمامات ورأى رفيقة الملكة واقفة بالخارج أدرك أن العاشقين مختليان بالداخل.

شعر بالأرض تميد تحت قدميه. وغشيت عينيه سحابة من الظلام، ولم يلبث أن سقط فوق الأرض وقد أغمى عليه.ولما ثاب إلى رشده ولم يجد أحدًا أمامه، عاد إلى كوخه كسير القلب مهدم النفس. واستلقى فوق فراشه وقد انتابته حمى من الهذيان. فإذا أصبح الصباح أفاق الشاب من نومه شاحب الوجه غائر العينين.

وقصد إلى قلعة تريانون حيث كانت الملكة تصلي. وانتظر حتى خرجت. وانضم إلى مستقبليها.

وعندما وقع بصر ماري أنطوانيت عليه أحمر خداها. وأخذتها الدهشة البالغة وقالت:

– لقد كنت أعتقد إنك في إحدى المقاطعات يا مسيو دي شارني.

فأجاب في صوت أجوف:

– لقد عدت يا مولاتي.

رمقته بنظرة تدل على الدهشة.. ثم التفتت إلى رفيقاتها.. فقالت:

– طاب يومك يا كونتس دي لاموت.

ولم يكد بصر دي شارني يقع على الكونتس، حتى إنتفض. وبدت في عينيه نظرة قاسية.

وقد لاحظت الملكة إنه لم يستعد قواه تمامًا. وتحولت إليه.. ثم قالت في لهجة رقيقة:

– ومتى عدت من الريف.. وأين تنزل الآن؟

فقال في لهجة صارمة: منذ أسبوعين.. وأقطن فرساي.

عجبت لغلظته ولكنها سألت في صوت حنون:

– ألديك ما تريد قوله لي؟

– مولاتي.. إن لدي الشيء الكثير أريد قوله لك.

– إذن تعال معي.

وقادته إلى إحدى غرف القصر. وبعد أن صرفت الملكة حاشيتها التفتت إلى دي شاربي وقالت:

– تكلم يا سيدي.. إذ يبدو أنك قلق؟

قال: لست أدري كيف أبدأ يا مولاتي ؟ إن حديثي حديث مؤنب على فعلة فاضحة مخلة بالشرف.. فضيحة صارخة ترتكبها ملكة تدعي الإخلاص والولاء لبعلها..

امتقع وجهها واستولى عليها غضب ممتزج بدهشة بالغة.. صاحت:

– سيدي إذا لم تغادر الغرفة حالًا ناديت حرسي ليقذفوا بك خارجًا.

ولكنه لم يعبأ بها.. وهتف: ولكنني سأتكلم أولًا.. نعم.. لقد رأيت أثناء الثلاث ليالي الماضية..

أدركت ماري أنطوانيت أن في الأمر سرًا.. فهدأت من ثائرة الشاب، وسألته الإيضاح. وطفق الشاب يسرد عليها ما رأى.. وما سمع في لهجة مريرة ونغمة حزينة.. وأصغت الملكة إليه في اهتمام ودهشة. فلما فرغ من حديثه قالت:

–ماذا يمكنني أن أقول؟ ولكني أقسم لك بكل ما هو مقدس إنني لم أذهب إلى الحديقة في تلك الليالي وفي استطاعتي أن أبرهن لك على صدق قولي.

أجاب: ولكنني رأيتك رأي العين.

قالت لم يبق إذن إلا أن أصحبك إلى البقعة التي تدعي إنني ترددت عليها وأنا واثقة إنك خدعت بشبيهتي التي يستخدمها أعدائي للقضاء علي.

والآن أذهب يا سيدي.

وكانت (جين) تنظر في غرفة مجاورة.. وما خرج شاربي من حضرة الملكة راحت تتفحصه بإمعان..كانت قد لاحظت قلق الشاب ولهفة الملكة على التحدث إليه على إنفراد..

وغني عن البيان أن المرأة التي رآها شاربي في الحديقة لم تكن غير أوليفا، وقد استخدمتها جين دي لاموت للتغرير بالكردينال والحيلولة دون مقابلته لماري أنطوانيت.

***

وكانت جين تأمل أن تطلعها الملكة على ما دار بينها وبين دي شاربي من حديث. بيد أن ماري أنطوانيت حرصت على كتمان سرها للمرة الأولى في حياتها.. وكان هذا الحرص من جانب الملكة داعية لجين على التفكير في الموقف. ولعلها أحسنت صنعًا بإرسال أحد أعوانها لتعقب شاربي بعد مغادرته القصر..

وعاد الرسول ليخبر سيدته أن الشاب قد قصد إلى كوخ في الحديقة وعندئذ أدركت جين أن شاربي رأى ما دار بين الكردينال وأوليفا في الليالي الثلاث الماضية، فعولت على وقف هذه الاجتماعات.

ذهبت من فورها إلى منزل الكردينال متجهمة الوجه مقطبة الجبين.واستقبلها الكردينال مرحبًا. ولما سألها عن الملكة قالت:

– لقد عدت من فرساي الآن..

ولكن ماذا دهاك يا عزيزتي؟

– لقد علم الملك بالأمر، ولكنهم لم يكتشفوا شخصيتك، فأنت سعيد الحظ يا

مولاي.. وإلا لألقي بك في غياهب الباستيل.

ذعر الكردينال.. وركض قلبه بين ضلوعه..

قال في حزن: إذن فقد اكتشف أمرنا.. ولكن ما العمل الآن.. إنه ليشق علي أن يحال بيني وبينها.يا إلهي. هذا مريع.. إنني أحيا لها.. وأعيش من أجلها.. إرحميني يا كونتس.. وإبحثي له عن مخرج..

فبدا التفكير على وجه الكونتس. وظلت كذلك بضع لحظات ثم قالت: إن شرف الملكة.. وحياتها معلقتان على قرارك يا سيدي.. ولكني أرى أن خير ما تفعله الآن هو الإنقطاع عن مقابلتها إلى أن تهدأ العاصفة وحينئذ أهيئ لكما المكان الصالح للإجتماع.

فنظر إليها الكردينال نظرة شكر وتقدير، ووافق في الحال.. ولكن الخبيثة لم تطمئن حتى أخذت عليه موثقًا أن لا يقابلها دون استشارتها.

***

وفي الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم، أقبل فارس إلى حدائق القصر الملكي.. وترجل عن جواده أمام كوخ دي شارني وراح يفحص الأرض بدقة.. ويهمهم بكلمات مبهمة.. ويهز رأسه دلالة على الاطمئنان ثم عاد من حيث أتى.

ولما كانت العاشرة والنصف قصد دي شارني إلى حدائق القصر وراح ينتظر بقلق مجيء الملكة حتى أقبلت أخيرًا.. وسار بها الشاب إلى البقعة التي يجتمع بها المتآمرون تحت جنح الليل.

وطال انتظارهما بين الدغل دون جدوى.. فبدأت الملكة تعتقد أن الشاب خدعها.. بينما اعتقد هو أن إستنتاجه كان صحيحًا..ونظرت الملكة إلى دي شارني متسائلة.. فألفته ممتقع الوجه.. بادي الاضطراب يعض على نواجذه من شدة الغيظ.

مدت يدها، وتناولت راحته.. ثم غمغمت:

– تقول إنك رأيتهما تحت شجرة البندق هذه؟

– نعم يا مولاتي.. وهنا أعطته الوردة؟

وكان الإعياء قد إستولى على ماري أنطوانيت فإستندت إلى الشجرة خشية السقوط، بيد أن الشاب رأي دمعتين تنحدران من عينيها في سكون. وتنهدت وقالت: سيدي كم كان بودي أن أبرهن لك على براءتي.. ولكن تلك إرادة الله..

فصاح وهو يجثو على ركبتيه عند قدميها:

– أواه يا مولاتي.. أرجو صفحك. لقد أعماني الحب عن كل شيء.

فضحكت.. وكانت ضحكه مريرة.. ثم قالت:

– أنت تحبني ! أنت الذي تتهمني بأنني أمنح الورد والقبل والحب لكل الناس.؟

– رحماك يا مولاتي.. لقد أخطأت.. وكاد يذهب الحب بعقلي.

فضغطت يده في رفق.. ومالت فوقه برأسها، حتى لفحت أنفاسها الحارة وجهه الممتقع، فأخذته نشوة العاطفة وتناولها بين ذراعيه بقوة وطبع على فمها قبلة أودعها عصارة قلبه.

وبعد ساعتين.. غادر العاشقان حمامات أبولو.. وافترقا على أثر قبلة طويلة تبادلاها. وحينئذ نهض رجل من بين الأعشاب.. كان هو نفس الفارس الذي أقبل في الصباح وقد رأى وسمع كل شيء.

وعندما ذهبت الملكة إلى الكنيسة في صباح التالي..كانت آيات السعادة والغبطة مرتسمة على وجهها.. وكان شارني والكونتس دي لاموت، وفيليب دي تافرني ضمن الذين هرعوا لاستقبالها.

وفجأة تقدم منها فيليب وانحنى في إحترام وقال:

– مولاتي.. لدي ما أقوله لجلالتك. فهل تتفضلين بالإصغاء إلي؟ فنظرت إليه في

دهشة. ولكنها أمرته باللحاق بها إلى غرفتها.

***

وقف الشاب أمام مولاته حزينًا كاسف البال.. قال:

– مولاتي. لقد جئت أودع جلالتك.. فأرجو أن تسمحي لي بمغادرة البلاط.

دهشت.. وسألت في لهجة حزينة: ولماذا تريد مفارقتنا؟

– لأنه لم يعد ثمة فائدة من بقائي بعد أن رحلت أختي!

انتفضت الملكة حين تذكرت الفتاة.. وتذكرت اللحظة التي فارقتها فيها على أثر زيارة الجريح. قالت:

– ولكن ذلك ليس بالعذر المقبول..

– إنني أرى حياة البلاط لا تتفق ومشاربي..

– إنك تدهشني يا عزيزي فيليب.. حسنًا.. وإذا أمرتك بالبقاء؟

– يؤسفني أن أخالف أمر جلالتك في هذه الحالة..

هتفت في غضب: إنني أعرف الحقيقة.. فأنت تحقد علي، وقد دفعك هذا الحقد إلى مبارزة دي شارني.. ويغلب على ظني أن رؤيتك إياه اليوم إلى جانبي هي التي حملتك على طلب الرحيل.

فامتقع وجه الشاب وقال: كلا. ولكني رأيته قبل ذلك، رأيته في الساعة الثانية صباحًا عند حمامات أبولو.

فامتقع وجه الملكة بدورها، ولكنها شعرت بالإعجاب به.. بعد إذ ظل محتفظًا بولائه وهدوئه وسط تلك الأزمة الدقيقة.

وأخيرًا لم يسعها غير القبول.. ورحل الشاب إلى غير رجعة.

الفصل التاسع والعشرون

غيرة الكردينال

قضى الكردينال ثلاث ليال في هم مقيم. فلم تصله أخبار عن الملكة ولم تأت جين لمقابلته.. ولما ضاق ذرعًا بصمت الكونتس، أرسل إليها يستدعيها. فلما قدمت استقبلها معاتبًا على نسيانها إياه، ولكنها طيبت خاطره بكلمات تفيض رقة ورثاء. فقال لها:

– لابد أن وراء الأكمة ما وراءها. وأنت تخفين عني الحقيقة.

فضحكت في خبث وقالت: أية حقيقة تعني؟

– إن الملكة لا تحبني، وإنما هي تتخذ مني ألعوبة. إنني أدرك أنها استبعدتني عنها، لأنها خشيت أن يرتاب أحد عشاقها الآخرين في الأمر.. فقد سمعت وقع أقدام في الحديقة إبان آخر مقابلاتنا، ولست أشك في أن أحد عشاقها قد رآنا فثار عليها، وعندئذ لم تجد مندوحة من التخلص مني.

– سيدي هذه إهانة بالغة للملكة ولي.

– إذن برهني على أنها لا تزال تتعلق بي.

فابتسمت، وقالت: أكتب إليها.

– وهل ستأتيني بالرد؟

– سأحاول.

ونهض الكردينال إلى مكتبه، وكتب إلى الملكة رسالة هي آية في الإعراب عن عميق حبه وعواطفه.وناولها الرسالة وكله أمل في أن تأتيه بالرد على عجل.

وفي الطريق تركت جين لأفكارها العنان.

لقد حصلت على السلاح القوي الذي يمكنها من الحصول على العقد إذ كيف يستطيع الكاردينال أو الملكة أن يرغماها على رد العقد إلى صاحبيه عندما يطالبان بدفع الثمن، وتحت يدها تلك الرسالة الخطيرة التي تهدد ماري أنطوانيت والكردينال بفضيحة خطيرة.

خيل إليها أن شخصًا واحدًا يقف في سبيلها فعولت على التخلص منه.

***

فلما كان المساء، أشارت إلى أوليفا أن توافيها إلى الخارج. فهرعت الفتاة إليها. بيد أنها لم تكد ترى سحنة جين المقلوبة، حتى استولى عليها الفزع، وسألت:

– ماذا دهاك يا صديقتي؟

– دهاني! لقد وقعنا في مأزق خطير.. فأنت تعلمين أنني أردت أن أداعب ذلك الضابط المجنون. الذي يحب الملكة إلى درجة العبادة، ولذلك جعلتك تمثلين دورها لأنك تشبهينها قليلًا.. موهمة إياه إنك الملكة حقيقة.

– نعم.. وماذا في ذلك؟

– إنني أخشى أن يصرح المجنون بأمر هذه المقابلات فتسوء العاقبة.ومهما يكن جنونه، فإن حادثًا خطيرًا كهذا لن يمر دون تحقيق، وقد ينجلي هذا التحقيق عن معرفة شخصيتك.. وبالرغم من أن الأمر في حد ذاته ليس خطيرًا، إلا أن عقابه السجن أو النفي لأنه يعتبر خيانة وإهانة للمملكة.

فذعرت الفتاة وأجهشت بالبكاء، واستطردت جين:

– وقد يسمع بيوسير بالأمر فيقتلك لأنك خنته، ولا يستبعد كذلك أن يتخلى عنك منقذك بعد سماع الإشاعة فيسلمك إلى البوليس.. والنتيجة في جميع الحالات سيئة.

أسقط في يد الفتاة فتعلقت بذراع جين وتوسلت إليها أن تنقذها.فطمأنتها الخبيثة.. وأعربت لها عن إستعدادها لإنقاذها بالفرار بها إلى مزرعة صغيرة في بيكاردي لتختفي هناك.فرفعت الفتاة يد جين إلى فمها وقبلتها قبلة تدل على الشكر والإعتراف بالجميل.

قالت جين: والآن لنعد إلى منازلنا، حتى أهيئ وسائل الفرار.

***

وفي إحدى الليالي عادت جين إلى منزلها في مركبة تجرها ثلاثة جياد قفزت من المركبة والتفتت إلى الحوذي. ثم قالت:

– انتظر هنا ريثما أدعو الفتاة التي ستأخذها إلى أميان وهناك تسلمها لصديقك المزارع. أما هو فلديه أوامره.

– آه.. لقد نسيت.. إنك مسلح. أليس كذلك؟ فإن رجلًا مجنونًا يحقد على هذه الفتاة، وقد يعترض سبيلك، فإذا فعل اقتله.لقد أعطيتك سبعين لويسا أجرًا للرحلة، ولكنني سأزيدها إلى مائة بشرط ألا تعود إلى فرنسا. إذهب إلى إنجلترا مباشرة فإن ذلك آمن لك.

– اعتمدي علي يا سيدتي.

– وصعدت جين إلى غرفتها، حيث أضاءت مصباحها، وهي الإشارة التي اتفقت عليها مع أوليفا.

ولما هبطت إلى الشارع لم تجد للفتاة أثراً، فانتظرت لها ظنًا منها أن أوليفا تعد حاجياتها. ولما طال انتظارها دون جدوى عولت على الصعود إليها في غرفتها مستعينة بالمفتاح الذي في حوزتها.وتسللت إلى داخل المنزل في هدوء. وارتقت الدرج في حذر، حتى إذا أصبحت أمام غرفة أوليفا رأت ضوءًا خافتًا ينبعث منها، ولكنها لم تسمع صوتًا.

نادت الفتاة بإسمها في صوت خافت، وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب وبرز منه رجل يحمل في يده مصباحًا صغيرًا.

صرخت جين وهي تتراجع إلى الوراء:

– مسيو دي كاليوسترو؟

أحنى الكونت قامته لها احترامًا.. وقال هازئًا:

– لي الشرف العظيم أن أستقبلك في منزلي يا سيدتي الكونتس جين دي لاموت!

ارتجفت ولكنها سرعان ما استعادت هدوءها ودهاءها. فقالت مراوغة: لقد جئت لأستشيرك في أمر ما يا سيدي.

فأدرك الكونت مرماها، وابتسم في خبث.. وانتظر

سألت جين: أكبر ظني إنك صديق الكاردينال دي روهان؟

– إنه ليس صديقي يا سيدتي..

وأمسك عن الكلام، ثم حدجها بنظرة صارمة، واستطرد:

– من العبث أن تخدعيني يا سيدتي، فأنت إنما جئت لمقابلة أوليفا. ولكنني أؤكد لك إنها غير موجودة هنا.

– ماذا تقول؟

– ألا تعرفين الحقيقة مع إنك عاونتها على الهرب.

– أنا! أتتهمني بذلك؟

– بلا شك يا سيدتي.

وأخرج من جيه رسالة قدمها إلى الكونتس فقرأت فيها ما يلي:

«سيدي. ومنقذي الكريم.. أرجو صفحك.. إنني أحب بيوسير. وقد جاءني

فرحلت معه. الوداع! وأرجو أن تتقبل شكري».

صاحت جين في ذعر:

– بيوسير! ولكن كيف عرف عنوانها؟

– أنظري إلى هذه الرسالة التي سقطت منه يا سيدتي..

«إن مدموازيل أوليفا موجودة في منزل في نهاية شارع سان كلود ومن المستحسن أن يذهب مسيو بيوسير إليها مباشرة فإن الوقت ملائم وهذه نصيحة من صديق مخلص».

– ولكن.. من الذي بعث هذه الرسالة إلى بيوسير؟

– أنت بغير شك.. ولست أرى دافعًا للتجاهل.

فغضبت، ونهضت واقفة. ثم غادرت الغرفة على الأثر.

الفصل الثلاثين

الرسالة والإيصال

حل أخيرًا يوم دفع القسط الأول من ثمن العقد، فذهب بوهمر إلى فرساي لمقابلة الملكة.. ولما لم يكن على موعد سابق، فقد حددت له الملكة موعدًا في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه.

***

فلما حان الموعد، وذهب الجوهري لمقابلة الملكة.. بادرته قائلة:

– أي ريح دفعت بك إلينا اليوم يا مسيو بوهمر؟

– معذرة يا مولاتي.. يبدو أنك نسيت..

– نسيت ماذا يا رجل؟

– لقد حل موعد القسط أمس..

– أي قسط تعني وقد أعدت العقد إليك ومعه مائة ألف فرنك.

مادت الأرض ببوهمر ونظر إليها كالمشدوه وصاح في صوت مختنق:

– ماذا تقولين يا مولاتي.. أعدت العقد؟

– بكل تأكيد.. ماذا دهاك يا رجل.؟

– ماذا؟ أتنكرين جلالتك شراءه..

– أية مهزلة هذه يا سيدي؟

ونهضت إلى خزانتها فأخرجت الإيصال منها. بيد أن بوهمر لم يكد يلقي نظرة

واحدة على الإيصال حتى صرخ:

– مولاتي.. هذه ليست إمضائي!

فقطبت الملكة حاجبيها ونظرت إليه نظرة صاعقة.. فأسرع الجوهري وأخرج من جيبه رسالة تفيد بالاستلام وقدمها إليها..وألقت الملكة عليها نظرة خاطفة.. ثم قالت في دهشة:

– ماري أنطوانيت الفرنسية.. لابد أنك مجنون يا هذا، فأنا لا أمضي «الفرنسية» لأنني نمساوية الأصل..لابد أنك تهزل يا مسيو بوهمر..

– مولاتي.. إنني لا أقر إلا الحقيقة..

– إذن أسرع بمغادرة الغرفة قبل أن أنادي رجالي ليقذفوا بك إلى الخارج..

فغادر الرجل الغرفة وهو يترنح كالثمل، وكان شريكه بوساناج ينتظره في الخارج.. فلما سمع منه تلك الأخبار المزعجة صعق في مكانه.ولكن الملكة سرعان ما استردت هدوءها وبعثت في استدعائهما.

قالت لهما: في استطاعتنا الآن أن نتبادل الرأي في هدوء والواقع أنه خطرت لي فكرة بعد مبارحة مسيو بوهمر.. وهي أن كلينا قد خدع وغر به.لقد أرسلت لكما العقد مع الكونتس جين دي لاموت بعد إذ يئست من شرائه. فهل أعادته إليكما؟

فأجاب بوهمر: كلا يا مولاتي وكل ما قالته لنا أن ننتظر.. وفي المساء قدم إلينا رسول من قبل جلالتك يحمل هذه الرسالة.. فلم نر مفرا من الإنتظار.

دقت الملكة الحرس فلما أقبل أحد الخدم، أمرته بطلب مدام دي لاموت ثم تحولت إلى بوهمر وقالت:

– والآن إذهبا وقابلا الكردينال دي روهان ثم أطلعاه على كل هذه المعلومات، فهو الوحيد القادر على إرشادكما إلى الحقيقة.

فانطلق التاجران على الأثر..

وكان الكردينال منهمكًا في مطالعة الرسائل التي وصلته من الملكة وقد استولت عليه نوبة من الحنق. وجاء أحد الخدم ليعلن سيده بقدوم الجوهريين. فرفض دي روهان مقابلتهما باديء الأمر ولكنهما كررا الرجاء وألحا فيه، فأمر الخادم بإدخالهما..واستقبلهما الكردينال بعاصفة من الاستياء.. فقال بوهمر:

– مولاي. إننا جئنا بشأن العقد.. أليس هو عند نيافتكم؟

فدهش الرجل وقال: كلا. إنه في حوزة الملكة.

– كلا يا سيدي، ولذلك أرسلتنا لمقابلة نيافتكم. فهي تقول إنها لم تر العقد بعد أن سلمته إلى الكونتس دي لاموت كي تعيده إلينا.

– ماذا تقول؟

فطفق بوهمر يسرد على مسامعه قصة العقد.. وكان دي روهان يصغي إليه بإنتباه، حتى إذا فرغ بوهمر من حديثه. قال الكردينال:

– إذن فجلالة الملكة تعتقد أن العقد في حوزتي أو في حوزة الكونتس؟

– نعم يا مولاي.

فقال الكردينال في كبرياء:

– حسنًا.. إذهبا وأخبرا جلالة الملكة إنني سأصلي غدًا في كنيسة القصر، وسأتكلم معها في هذا الشأن، ولكن إطمئنا، فإذا لم تستعيدا العقد، فإني سأدفع لكما ثمنه.

وفي صباح اليوم التالي دخلت مركبة أنيقة. تحمل شعار دي بريتول ساحة فرساي. وكان مسيو دي بريتول من ألد أعداء الكردينال دي روهان، يتوقع الفرصة للقضاء عليه والنيل منه.

وبمجرد وصول الوزير إلى القصر، طلب مقابلة جلالة الملك. ولما أدخل على لويس السادس عشر، نظر إليه الملك متسائلًا.

فقال بريتول: مولاي.. لقد جئت بشأن سرقة، لست أشك في أنك رأيتم عقد بوهمر وبوساناج.

– نعم. وقد رفضت الملكة شراءه.

– هذا صحيح. ولكن العقد سرق.

فانتفض لويس السادس عشر. وامتقع وجهه، ثم سأل:

– ولم لم تعرض الأمر على مدير البوليس؟

– لأنني سمعت أن جلالة الملكة أعادت المفاوضات سرًا مع الجوهريين، واستعادت العقد. وإن لدى الجوهريين وثيقة تثبت استردادها إياه.. بيد إنني أؤكد لجلالتكم أن الإيصال مزور.

أهاجت هذه الكلمات، ثورة الملك. فصاح:

– أهم يقولون ذلك؟ أيتهمون الملكة بالسرقة؟

فأسرع الوزير قائلًا: مولاي. لقد قرر الجوهريان إن الكردينال دي روهان عرض عليهما شراء العقد بإسم جلالة الملكة.

– الكردينال دي روهان.. هذا مستحيل!

– ولكن هذا ما يقرره الجوهريان.. ولست أشك في أن تحقيقًا دقيقًا، قد أصبح من أوجب الأمور إظهارًا لبراءة جلالة الملكة وعقابًا للجاني الأثيم.

– إنك محق في قولك يا سيدي. بيد إنني أرى أولًا سماع أقوال الملكة.

وإنطلق لويس السادس عشر إلى جناح زوجته ماري أنطوانيت وهو يرغي ويزبد.أمرت الملكة وصيفتها بإدخال دي شارني.. الذي ألح في مقابلتها، فلما أدخل عليها ورأت وجهه الشاحب ارتجفت وتوقعت سوء.

صاح دي شارني: مولاتي.. إن الأمر خطير، إنني سمعت إشاعة قذرة حول العقد.

– لقد أعدته إلى صاحبه منذ وقت طويل، ولكن ماذا يقولون؟

– إنهم يقولون إنك تظاهرت بذلك حين رفض الملك أن يهبك المال اللازم لشرائه وإنك ذهبت لاقتراض المبلغ من أحد عشاقك.واتفق أن ذهبت إلى حانوت بوهمر وشريكه مع عمي أمس لأمر من الأمور. فأخبرنا الرجلان بأن الكردينال دي روهان أقرضك المال اللازم لشرائه.. فامتقع وجه الملكة. وقالت:

– وهل إعتقدت بصدق هذه الشائعة.

– مولاتي.. إن حياتي رهينة بين يديك.. بيد إني أؤثر الموت على أن أعرف أن دي روهان عشيق لك..

ثم مد يده وأخرج محفظة منتفخة.. وقال:

– هاك ثمن العقد.. فادفعيه. وقولي إنه في حوزتك.

– إنك مخطئ في زعمك يا سيدي، فإنني لا أعرف شيئًا عن العقد.

ثم أمسكت عن الكلام وقد بدا عليها التفكير.وأخيرًا تحولت إلى الشاب. وقالت:

– سأنادي الكردينال لأناقشه الحساب حتى أبرهن لك على براءتي.. أدخل إلى هذه الغرفة الجانبية كي تسمع كل شيء.

***

وما هي إلا لحظات، حتى دلف الكردينال دي روهان إلى الغرفة.. وحاولت الملكة أن تتلقاه باسمة. ولكن الإبتسامة ماتت على شفتيها.وكان الكردينال بادي الاضطراب متجهم الوجه تبدو عليه دلائل الفزع.. قال:

–مولاتي. إن لدي أمورًا هامة أريد التحدث إلى جلالتك بشأنها.. فهل نحن وحيدان هنا؟

فقالت بصوت عال بلغ مسامع دي شارني:

– نعم.. وأرجو أن تتكلم بصراحة يا سيدي ولا تخش أحدًا.

– مولاتي. أظنك تعرفين ما حدث بشأن العقد؟

– كلا يا سيدي. وبودي أن أعرف ذلك منك.

– تعرفين ذلك مني؟ ألم تتنازلي بالاتصال بي بواسطة امرأة أخرى؟

– إني لا أفقه حرفًا واحدًا مما تقول. وبودي أن تفصح لي عن الأدوار التي مرت بهذه المهزلة. على أني أود أن أعرف أولًا أين مدام دي لاموت الآن؟

– لقد كنت على وشك توجيه هذا السؤال لجلالتك.

– حقًا يا سيدي.. إنني بعثت في طلبها مرارًا. لكنهم لم يعثروا لها على أثر.

– وأنا أيضًا أشعر بالدهشة الشديدة لاختفائها يا مولاتي، فقد أرسلت إليها خدمي ولكن أحدًا منهم لم يجد لها أثرًا.

– إذن دعنا من أمرها الآن ولنتكلم فيما هو أهم فأنا ما طلبت مقابلتك إلا للاستفسار عما حدث للعقد.. ماذا فعلت به؟.

– أنا !! إنني لا أفهم شيئًا مما يدور حولي يا مولاتي.

– إذن إصغ إلي. لقد أخذت مدام دي لامرو العقد مني، لتعيده إلى الجوهريين باسمي.. ويقول التاجران إنهما لم يستعيدا العقد مطلقًا وهذا مما يدهشني لأن لدي من المستندات ما يثبت عكس ذلك. ولكنها يقرران أن الإيصال الذي في حوزتي مزور. ولن يستطيع إنسان غير مدام دي لاموت إيضاح الحقيقة، ولكنها اختفت فدعنا نتبادل الرأي على ضوء المعلومات القليلة التي لدينا.لقد أرادت حين أن تعيد العقد لأصحابه. ولكنك كنت كريمًا بحيث لم تشأ ذلك وعولت على شرائه كي تقدمه هدية لي.

– ولكن جلالتك رفضت ذلك.

– نعم. وأعدته إليك. ولكنك آثرت استبقاءه وأنت تأمل أن توافيك الظروف بتقديمه إليَ ثانية. ولما كانت مدام دي لاموت تعرف إنني أتلهف شوقًا للحصول على العقد فقد تآمرت معك. أليس الأمر كذلك؟

فتنهد الكردينال.. وأجاب: كلا يا مولاتي.. ليست هذه هي الحقيقة، فأنا لم أحتفظ بالعقد لأنني كنت واثقًا من أنه في حوزتك.

– هذا مستحيل!

– بل هي الحقيقة يا مولاتي..

– ألا تعرف أين يوجد العقد الآن؟

– كلا، وأكثر ما يؤلمني إنك تتجاهلين ما شملتني به من عطف إبان تلك الخلوات الثلاث في حدائق القصر..

– ماذا تعني يا سيدي؟

– الواقع إنني لا أستطيع إدراك مغزى تصرفات جلالتك. فأنت سمحت بمقابلتي أولًا، و.. فقاطعته في حدة: أنا قابلتك؟

– نعم يا مولاتي؛ ودليلي على ذلك إنني أحتفظ بتلك الوردة التي وهبتني إياها فوق قلبي.

– إنك كاذب يا سيدي..

– إن شخصًا ينتمي إلى عائلة روهان لا يكذب يا مولاتي! وإذا كنت تتجاهلين هذه المناسبات فإن رسائلك تشير إليها بوضوح.!

أفلتت من شفتي الملكة صرخة حادة، وصاحت:

– رسائلي! إما إنك مجنون أو متآمر جريء، على إني على استعداد لأن أصفح

عنك إن أنت قررت الحقيقة؟

– مولاتي! حاشاي أن أكذب. بيد إن مسلكك يحز في نفسي حزًا.. كيف أمكن أن تتجاهلين العطف الذي غمرتني به، وإنك مددت إليَ يدك فقبلتها قبلة أودعتها عصارة قلبي عربونًا لحبنا.

وثبت ماري أنطوانيت واقفة على قدميها وهي تنتفض من الغضب ثم صاحت:

– لسوف تندم على ذلك يا سيدي..

ولكن الكردينال ظل جامداً كالصخر، غير عابئ بنوبة الغضب التي استولت عليها.أما الملكة فقد دقت الجرس في عنف، فلما أقبل أحد الخدم، هتفت: أبلغ جلالة الملك إنني أريد رؤيته.ولم تمض لحظات حتى وصل الملك إلى مخدع الملكة. وبادرته ماري أنطوانيت قائلة:

– مولاي، هو ذا الكردينال دي روهان يقرر أشياء لا يقبلها العقل ولم يكد الكاردينال يسمع هذه الكلمات حتى امتقع وجهه ومادت به الأرض.

سأل الملك: هل لك أن تخبرني عما حدث للعقد يا سيدي.

لم يجب الكردينال.. فصاحت الملكة:

– تكلم يا سيدي.. وأعد قصتك على مسامع جلالة الملك.

ومع ذاك فقد أصر الكاردينال على الصمت.

قال الملك: مادام الكردينال برفض الكلام، فهل لك في الايضاح يا سيدتي؟

– مولاي.. إنني لا أدري من الأمر شيئًا، فقد أعدت العقد لأصحابه فأرسلوا إليَ إيصالًا بالإستلام.

– ولكنهم يقررون أن الإيصال مزور، فما رأيك في ذلك يا كردينال؟

فأجاب الكردينال في كبرياء:

– مولاي.. إنني لا أعرف شيئًا عن الموضوع.. فعندما علمت أن جلالة الملكة عجزت عن شراء العقد، تطوعت بتقديم المبلغ اللازم لشرائه ولكن جلالة الملكة رفضت العرض ولا أعلم ما حل بالعقد بعدئذ.

– ولكن الجوهريين يقولان إن العقد لدى أحدكما.. جلالة الملكة أو أنت، ولما كانت جلالتها تنكر وجوده في حوزتها فلابد أنه عندك إذن.

– كلا يا مولاي.

– إذن أين؟

لم يجب الكردينال. فقالت الملكة:

– إذا لم تتحدث أنت، فسأتحدث أنا..

امتقع وجه الكردينال. وصاح الملك:

– ماذا تعنين يا سيدتي؟

– لقد أهانني يا سيدي، فقد ادعى إن لديه رسائل مني، ولكنني أتحداه في أن يظهرها.

بدا الغضب على وجه الملك.. وصاح:

– أين هذه الأدلة يا لويس؟

واستطردت الملكة: وهو يتمادى في إدعائه قائلًا إنني قابلته ثلاث مرات في الحدائق..

وساد الصمت لحظة، كان قلب الكردينال خلالها مسرحًا للانفعالات المتباينة وأخيرًا قال: – لست أملك شيئًا من البراهين يا مولاي.

وقالت الملكة: ألم تقرر أن لديك شاهدًا على صدق قولك؟

وسأل الملك: ومن هو هذا الشاهد؟

فأجابت الملكة: الكونتس دي لاموت.

عاودت الملك ريبته في جين دي لاموت. وهتف:

– إذن فقد تآمرتما معًا على العرش.

ودق الجرس، فما أقبل أحد الخدم أمره باقتياد الكردينال إلى غرفة الحرس. تمهيدًا لإرساله إلى الباستيل.. أما الكردينال فقد غادر الغرفة مطأطئ الرأس

وغمغم: مهما يكن من أمر فسأنقذها !

عندما كان الملك يوقع الأمر بإلقاء القبض على الكردينال دي روهان. لاحظ أن الكونت دي بروفنس كان يشير إلى مسيو دي بريتول إشارات مبهمة. فأدرك أن في الأمر سرًا. ولكنه انتظر حتى انصرف الوزير وعندئذ سأل الكونت عن معنى هذه الإشارات..

فأجاب:

– مولاي. لقد سمعت الآن بأن جلالتكم أصدرتم أمرًا بالقبض على الكردينال دي روهان، لما حدث منه في مسألة العقد، بيد إنني سمعت إلى جانب ذلك شائعات كثيرة، من واجبي أن أطلع جلالتكم عليها..

إمتقع وجه الملك.. وقال :

– ماهي هذه الشائعات ؟

رد بروفنس: لقد قرر لي بعض المسئولين أن جلالتها كانت ترتاد حديقة القصر في ساعة متأخرة من الليل بصحبة رجل.

– ماذا تقول؟ حذار. فإن الإتهام جد خطير.

– مولاي.. إن لدي من البراهين القاطعة ما لا يترك مجالًا للشك.

ومد يده إلى الملك بأربعة تقارير، ولم يكد لويس يقرأ محتوياتها حتى استولت عليه

نوبة قوية من الغضب والإنفعال.

قال: ولكنهم لا يذكرون اسم الرجل. فأنا لا أرى هنا إلا إسم رفيقة الملكة وهي جين دي لاموت..

قال الكونت: هذا صحيح يا مولاي، ولكن تقريرًا آخر يذكر فيه صاحبه أن مسيو دي شارني هو رفيق الملكة.

– مسيو دي شارني! إذن سأرى.

وإندفع خارج الغرفة.. بعد إن إنصرف الملك من غرفة الملكة على أثر إلقاء القبض على الكردينال، أسرعت ماري أنطوانيت إلى الغرفة الجانبية وفتحتها.

سألت الشاب:

– ما رأيك الآن؟ هل لازلت تعتقد بأنني.. أحب الكردينال؟

– مولاتي.. لست أشك في أن الكردينال صادق في إدعائه فإن لهجته لهجة الرجل الواثق من قوله المؤمن بصحة دعواه، وأكبر ظني أنه راح ضحية امرأة شريرة. هي مدام دي لاموت التي اختفت في ظرف قاس، لأنها تعلم أن شهادتها تكفي لتبرئة ساحتك وساحة الكردينال.لقد غمرتها بعطفك، ولكنها بدلًا من الاعتراف بالصنيع إتخذت من ذلك ذريعة لهدمك، وإيقاع الأبرياء فيما لم يقترفوه من جرم.

سيدتي.. لو إن إنسانًا آخر كان في مثل موقفي هذا للاذ بالفرار ولكنني لا أغلب العاطفة على العقل، وأرى من واجبي أن أبقى إلى جانبك فقد أستطيع دفع الأذى عنك.

فقالت في لهجة حزينة، وقد انهمرت الدموع من عينيها:

– كلا.. بل اذهب، وابحث عن العزاء. فلست أشك في أن هذه المأساة ستنتهي بخاتمة مؤلمة، ولا أريد أن يصيبك رشاشها، فما زال المستقبل واسعًا أمامك.. وإذا كنت قد فشلت في الحصول على الحب والسعادة مع ملكة فرنسا، فقد تستطيع

الحصول عليهما مع امرأة أخرى.

ونهضت واقفة، كأنما لتصرفه، ولكنه اقترب منها في إحترام، وقال:

– كلا يا مولاتي.. إنني أحبك ولا يمكن أن أتخلى عنك. ومهما يكن من أمر فلست أشك في أن بقائي بقربك قد يعزيني في محنتي على الأقل.

وركع عند قدميها، فقدمت إليه يدها فطبع عليها قبلة حارة.

***

وفي اللحظة التالية، فتح باب الغرفة ودخل الملك.

ولم يكد بصره يقع على الشخص الذي جاء ليتحرى عن كذب دعوى الكونت دي بروفنس في إتهامه، راكعًا عند قدمي زوجته، حتى جمد في مكانه..وتبادلت الملكة وعشيقها نظرة ملؤها الفزع.. ونهض الشاب واقفًا وأحنى قامته إحترامًا للملك.

صاح لويس في صوت أجش: مسيو دي شارني!

حاولت الملكة الكلام.. فلم تستطع. وأدركت إنها هالكة لا محالة..

وسأل الملك: هل من المعقول أن يرتكب إنسان مثلك سرقة يا سيدي؟

فغمغم الشاب في دهشة: سرقة!

– نعم.. إن من يقتحم مخدع زوج ليركع عند قدمي زوجته لهو سارق بغير شك. فإذا أضيف إلى هذا أن هذه الزوجة ملكة، فإنهم يطلقون على هذه السرقة «خيانة عظمى».

عند ذلك أدركت ماري أنطوانيت فداحة الخطر المحدق بها وبعشيقها. فكادت تخر مغشيًا عليها، ولكنها تمالك جأشها وغالبت ضعفها.. وقالت في حزم:

– سيدي.. لقد جاء مسيو دي شارني يسألني معروفًا.

خففت هذه الكلمات من حدة الملك. ونظر شارني إلى الملكة في لهفة.

سأل الملك: وما هذا المعروف الذي يضطر الإنسان إلى الركوع على ركبتيه؟

لم تجد ماري أنطوانيت بدًا من التمادي في الكذب إنقاذًا للموقف. فأجابت: إنه يريد أن يتزوج، ولكن الفتاة التي يريدها صعبة المنال، فجاء ينشد معونتي.

هبطت هذه الحالات على قلب لويس هبوط السيل في حفل جدب.. أما دي شارني فقد أحس بالأرض تميد به وبعينيه تغشاهما سحابة سوداء.

فقال الملك: وأنا على إستعداد لأن أمد إليه يدي. فمن تكون تلك الفتاة التي ترفض الزواج منه؟

أخفى شارني وجهه بيديه.. بينما ضغطت الملكة قلبها بيديها خشية انفجاره، وقالت: إنها أندريه دي تافرني يا مولاي.

– ولكنها ذهبت إلى الدير على ما علمت.

– نعم يا سيدي، لأن الفقر حال بينها وبين أمنيتها.

– إذن فسأهبها نصف مليون من الفرنكات على سبيل «الدوطة»

وتحول إلى الشاب وقال:

– هيا أشكر مولاتك على هذا الصنيع يا فتى.

فركع شارني عند قدمي الملكة مرة أخرى، وقد شعر بقلبه يوشك أن يتمزق. فمدت إليه أناملها، فطبع عليهما قبلة ملتهبة.

وقال الملك: والآن هلم معي..

أدركت ماري أنطوانيت أن موقفها قد أصبح من الدقة حيث يستلزم العمل السريع، فعولت على مقابلة أندريه في الدير لتضرع إليها أن تتزوج دي شارني.

دهشت أندريه عندما وقع بصرها على الملكة التي جاءت لزيارتها على غير إنتظار. وبادرتها ماري أنطوانيت قائلة:

– كم هو عجيب أن يراك المرء في هذا الزي يا فتاتي، بل وأعجب منه أن تنزوي فتاة مثلك في ريعان صباها في أحد الأديرة لتقضي حياتها بين جدرانه.

– مولاتي. إني عاجزة عن شكرك، ولكني أشعر بأن هذه الحياة تطيب لي أكثر من سواها.

فقالت الملكة وهي تحاول إغراءها:

– ماذا لو جئت لأعرض عليك حياة كلها هناء وسعادة؟ ألا تتراجعين في قرارك هذا؟

– مستحيل يا مولاتي..

– ولو كان هذا العرض زوجًا..

فغمغمت الفتاة في دهشة: زوجًا؟

– نعم.

– إني أرفض كذلك يا مولاتي، فأنا قانعة بهذه الحياة.

شعرت ماري أنطوانيت بالألم يحز في قلبها حزًا. فقالت في ضراعة:

– أندريه لا تخيبي رجائي.. لقد جئت لأعرض عليه زواج مسيو دي شارني.

– مسيو دي شارني؟

– نعم مسيو دي شارني.

فهتفت الفتاة.. وقد صعد الدم إلى وجنتيها:

ونجحت جين في إغراء الضابط الذي قبض عليها، ليذهب بها إلى الملكة. ولما مثلت في حضرة ماري أنطوانيت، إستقبلتها إستقبالًا فاترًا فقد باتت تعتقد أن لها ضلعًا كبيرًا في كل ما نزل بها.

سألت الملكة: هل قابلت الملك؟

– كلا يا مولاتي.

– وهل تعرفين أن الكردينال قد أُلقي القبض عليه؟

– لقد أخبروني بذلك يا مولاتي.

– وكيف تبررين مسلكك حيالي في مسألة العقد؟

– إنني لم أفعل غير الواجب. فعندما رفضت شراء العقد أخذته بالتالي إلى نيافة الكردينال بدلًا من الذهاب به إلى الجوهريين ، لأنني كنت أعتقد أن الواجب يقضي عليَ بإطلاعه على الحقيقة أولًا.

– وكيف أمكنك الحصول على هذا الإيصال؟

– لقد أعطانيه الكردينال.

– ولماذا ذهبت إليهما برسالة ادعيت أنها مرسلة مني؟

– إنه أيضًا الكردينال الذي طلب إليَ ذلك.

– إذن فإن المؤامرة كلها من صنعه؟

– لست أعتقد أن في الأمر مؤامرة يا مولاتي، فأنا إنما نفذت أوامر الكردينال ليس إلا.

– حسنًا.. لقد ثبت أنك كنت تتلاعبين بي وبالكردينال. ولا أخالك تجهلين نتيجة ذلك.

أما وقد أرسل هو إلى الباستيل. فلا أرى غير أن تلحقي به.

***

واستطاع إثنان من أعوان مسيو دي كروسني بناء على المعلومات التي لديهما أن يلقيا القبض على أوليفا أثناء تجوالها في ضواحي باريس.وما إن سمع دي كروسني بالقبض على شبيهة الملكة حتى غمره الفرح وأسرع بمقابلة ماري أنطوانيت.ولما أنبأها

ما كان من القبض على أوليفا. كادت الملكة تطير من الفرح. وهتفت: لقد آن لي أن أظهر براءتي أمام العالم كله إذن.

وطلب دي كروسني من ماري أنطوانيت، أن تأخذهما إلى مكان حيث ترى ولا ترى. فقادته إلى غرفة المكتبة حيث اختفت وراء حاجز، وراحت ترقب الباب في لهفة.

وفتح الباب أخيرًا ودخلت أوليفا وهي تمشي مشية المتردد الوجل، فلما رأت الملكة شبيهتها، أفلتت من شفتيها صرخة تدل على الدهشة.

ثم غمغمت لنفسها:

–ليت شارني كان موجودًا ليرى بعيني رأسه دليل براءتي!

– وماذا تريدين جلالتك؟

– أن تعرضي على جلالة الملك.

– ومسيو بروفنس أيضًا؟ أليس كذلك يا مولاتي؟

– شكرًا لك يا مسيو دي كروسني.. أكبر ظني إنك تملك مفتاح المؤامرة الآن؟

– نعم يا مولاتي.

– وهل يعرف مسيو روهان شيئًا؟

– كلا..

– ومدام دي لاموت.

– لا تعرف بأمر القبض على الفتاة. وهي تحاول إتهام الكونت دي كاليوسترو بأنه هو الذي حمل الكردينال على أن يقول ما قرره أمام جلالة الملك.

– وماذا يقول دي كاليوسترو؟

– لقد وعد بأن يقابلني في باريس هذا الصباح، إنه رجل خطر ولكنه نافع. وفي

اعتقادي أن حملة جين دي لاموت عليه سوف تجعله يصرح بالحقيقة كلها.. لاسيما وإنه يقيم إلى جوا في شارع سان كلود.

***

وعندما عاد مسيو دي كروسني إلى باريس ألفى الكونت دي كاليوسترو في انتظاره. وكان كاليوسترو يعرف مخبأ بيوسير. ولما أحس بمطاردة البوليس ذهب لينذره بضرورة مغادرة فرنسا. بيد أنه وصل متأخرًا.

وقص بيوسير كل شيء على كاليوسترو، وختم حديثه بالتوسل إلى الكونت في لهجة ضراعة ورجاء أن ينقذ الفتاة..وأجاب الكونت الشاب إلى طلبه. وقال:

– إذن فتعال معي إلى باريس. واتبع ما سألقي إليك من تعليمات. فقد نتمكن من إنقاذها.

وألقى إليه بتعليماته. وأمره باللحاق بمركبة الفتاة التي أقلتها إلى السجن.. وإبلاغها ما يختص بها من هذه التعليمات. وقد فعل الشاب ما أمر به واستطاع أن يتحدث إلى أوليفا بعد أن رشا حراسها.

***

قال الكونت لمدير البوليس: أعتقد إنك تريد إستجوابي فيما يحدث هذه الأيام.

فقال كروسني وهو يتظاهر بالدهشة: إستجوابك؟ ولم؟

أجاب كاليوسترو: يبدو أنه في حاجة إلى إيضاح مسألة جين دي لاموت وإختفاء العقد؟

ضحك مدير البوليس وسأل: وهل عثرت عليه؟

– كلا يا سيدي.. ولكن مدام دي لاموت كانت تقطن منزلًا يواجه منزلي.

– أعرف ذلك..

– إذن ما دمت تعرف كل شيء عن أوليفا، فلا داعي للكلام.

– ومن هي أوليفا هذه؟

– ألا تعرفها؟ إنها تلك الفتاة التي كانت تحيا حياة عابثة مستهترة. وكان للفتاة عشيق يسومها العذاب ويسرق منها كل ما تقع عليه يده.. فأخذتني الشفقة بها وحاولت إنقاذها.

– أتعني بيوسير؟

– آه.. إذن فأنت تعرفه.. على العموم حدث أن ضرب بيوسير الفتاة ضربًا مبرحًا في أحد الأيام فلجأت إليَ.. ولما كنت أعطف عليها فقد آويتها في أحد منازلي.

صاح دي كروسني في دهشة: منزلك؟

– نعم.. في منزلك.. ولم لا ؟!

– هذا هو إذن السبب في أن أعواني لم يستطيعوا العثور عليها.

– ماذا تقول. هل تبحث عنها يا سيدي؟ لابد إنها متهمة في جرم إذن!

– كلا يا سيدي.. كلا.. استمر في حديثك.

– لقد فرغت من سرد ما عندي من معلومات.

– كلا. لا أعتقد ذلك. فقد ذكرت أمامي إسم جين دي لاموت منذ لحظات..

– لقد كانت جارتي..

– ولكن كيف أمكن أن أجد أوليفا هذه في منزل ريفي مع بيوسير وأنت تقرر إنها كانت في منزلك؟

– مع بيوسير؟ إذن فقد اتهمت مدام لاموت ظلمًا..

– وكيف ذلك يا سيدي؟

– بينما كنت أعتقد إنني سأصلح أخلاق الفتاة، فإذا بها تختفي فجأة.

– هذا عجيب..

– أليس كذلك؟ وكنت أعتقد أن مدام لاموت أغرتها بالهرب، فكثيرًا ما كنت أراها تشير إليها من نافذة منزلها. وتلقي إليها برسائل وقع أغلبها في يدي، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى خروجهما معًا في الليل..

– أواثق أنت من ذلك؟

– كل الثقة.

– وهل تعرف الغرض من هذه الجولات الليلية؟

لزم الكونت الصمت فأدرك مدير البوليس إنه لا يريد الإجابة على هذا السؤال. وأدار الحديث إلى ناحية أخرى.

سأل: هل أنت على استعداد لأن تقدم الرسائل التي أرسلتها جين لأوليفا عندما يحين الوقت المناسب لذلك؟

– كلا بكل تأكيد. فلا أظن أن فيها ما يفيد أحدًا.

– وهل لديك براهين أخرى على صداقة الاثنتين؟

– نعم.. فلطالما ترددت جين على منزلي إبان غيبتي.. وقد إتفق ذات مرة أن كنت موجودًا في المنزل عندما جاءت، ولما لم تجد اوليفا بدا عليها الفزع.

وانتهى عند ذلك الحديث بينهما وإنصرف الكونت وهو يتوعد جين بهدمها.

***

وكان الملك قد أرسل مسيو دي بريتول إلى جين دي لاموت في الباستيل لاستجوابها. فأكدت السجينة للوزير أن لديها براهين تثبت براءتها ولكنها لن تقدمها إلا في الوقت الملائم، وفي وجود الكردينال. فلما أخبروها أن الكردينال تقع عليه

تبعة كل ما حدث. قالت:

– إذن إخبروه إنني أنصحه بألا يصر على ارتكاب هذه الحماقة..

***

وانتشرت أخيرًا شائعة مؤداها أن مسيو ريتو الصحافي قد باع العقد في انجلترا.. فألقى مسيو كروسني القبض على الصحافي المسكين. وجيء بريتو إلى الباستيل مقبوضًا عليه ولما واجهوه بجين، قرر أمامها أنها عهدت إليه بتزوير إمضاء مسيو بوهمر وجلالة الملكة. وإنه كتب الرسالة والإيصال بناء على أوامرها.

أسقط في يد جين. وحاولت الدفاع عن نفسها. وإنكار إتصالها بريتو. فقدم كروسني إليها السائق الذي أقلها في مركبته إلى منزل الصحافي.

وقرر أحد خدم الكونت دي كاليوسترو إنه رأى سائق الماركيز نفسه يعود بالكونتس إلى منزلها في الليلة التي ضبطها فيها الكونت في منزله عندما أرادت إغراء أوليفا على الهرب.

وعندما سئلت جين عن جولاتها في حدائق القصر مع شبيهة الملكة أنكرت إنكارًا باتًا.. فلما ووجهت بأوليفا. أطرقت برأسها إلى الأرض ولزمت الصمت..

وحينئذ فقط شعرت بالهوة السحيقة التي حفرتها للملكة تفغر فاها لها.

الفصل الحادي والثلاثون

المحاكمة

وجاء يوم الحساب أخيرًا. وتشكلت هيئة المحكمة للنظر في تلك القضية التي شغلت الرأي العام مدة طويلة.وكان مسيو ريتو أول من مثل أمام المحكمة من المتهمين. فراح يطلب العفو في لهجة ملؤها الضراعة والتوسل.

وجاء دور جين بعده. فقادها حراسها إلى قفص الإتهام، فوقفت شامخة الأنف وقد تجلت في عينيها نظرة تدل على التحدي.ولما سألها القاضي أن تدلي بما لديها من أقوال، راحت تراوغه مدافعة عن نفسها بحماس.

والواقع إن جين لم تشأ اتهام أحد، ظنًا منها أن ذلك قد يدفع الملكة إلى العطف عليها والعفو عنها.وبعد أن فرغت من شهادتها.. رأت خدم المحكمة يحملون مقعدًا أنيقًا ويضعونه أمام منصة القضاة.

ودخل الكردينال دي روهان وهو يتوكأ على ذراع إثنين من الكهنة، وكان ممتقع الوجه بادي الوجوم.وأدى الكردينال شهادته بصوت هادئ متزن النبرات.. ولما فرغ منها غادر قاعة المحكمة بصحبة حاكم الباستيل.. وتقدم بعده الكونت دي كاليوسترو فأدى شهادته في هدوء دون أن تقاطعه المحكمة.

وأخيرًا جاء دور أوليفا. فمثلت أمام المحكمة وهي تحمل طفلها الذي وضعته في السجن بين يديها.

وأدت الفتاة شهادتها دون أن تخفي شيئًا. فذكرت كيف أن جين أغرتها على تمثيل دور الملكة وكيف أنها كانت تقابل شخصًا مجهولًا لا تعرف شيئًا.. والدور الذي لعبته

معها جين. إلى آخر ما يعرفه القراء.

وأدركت جين إنها هالكة لا محالة! فأطرقت برأسها إلى الأرض.

***

ولما أعيدت جين إلى غرفتها في السجن، جلست قبالة النافذة وهي ترقب الطريق في ذهول.ولشد ما كانت دهشتها، حين رأت رهطًا محيط بمركبتين تتقدمان نحوها.. وزادت دهشتها حين رأت الكردينال يجلس في إحدى المركبتين وهو ممتقع الوجه.. بينما راحت الجماهير تحييه بالتصفيق والهتاف.

ورأت جين أوليفا والكونت دي كاليوسترو وبيوسير في العربة الثانية.. وكانت صيحات الجماهير تشق عنان الفضاء وهم يهتفون:

«يحيا كاليوسترو.. يحيا نصير الشعب!»

***

إرتدت جين عن النافذة وهي تشعر بالحسرة.. وفي اللحظة التالية فتح الباب.. ودخل القاضي.رمقته جين بنظرة شاردة. ولكنه تقدم نحوها غير عابئ بإضطرابها ثم قرأ الحكم في صوت متهدج: «قررت المحكمة براءة الجميع من التهم الموجهة إليهم، عدا جين دي لاموت فالوا. فقد ثبت إدانتها بتهمة الخيانة العظمى. وتقرر إعدامها بعد تعذيبها».

***

صرخت جين صرخة حادة ثم سقطت على الأرض مغشيًا عليها.

الخاتمة

الزواج

دخل الملك إلى غرفة الاستقبال بعد ظهر اليوم ذاته.. وكانت الملكة جالسة فوق أحد المقاعد وقد ارتدت ملابسها إستعدادًا للخروج.وتلفت الملك حوله في لهفة.. ثم سأل: ألم يستعد العروسان ؟

فقالت الملكة وهي تغالب الإغماء بمجهود جبار:

– سيدي.. إن مسيو دي شارني ينتظر أوامر جلالتكم..

– إذن دعوه يأتي ونادوا العروس.

دخل دي شارني الغرفة وكان ممتقع الوجه بادي الاضطراب.. ولم يستطع أن يرفع عينيه إلى الملك خشية أن تخذله قواه ويفتضح أمره.

قال: مولاي.. أرجو أن تصفح عن مدموازيل دي تافرني. فقد أثرت وفاة أبيها تأثيرًا سيئًا على أعصابها، ولم تستطع مغادرة الفراش إلا الآن.

فأجاب الملك: مسكينة هذه الفتاة.. يبدو أنها كانت تحب أباها حبًا جمًا..

وأقبلت أندريه في تلك اللحظة. وقد إرتدت لباس العرس. وهي تتوكأ على ذراع أخيها فيليب.

قال يخاطب أندريه: لقد طلبت إليك الإسراع بالزواج قبل انقضاء مدة الحداد كي يكون لي شرف الاشتراك في تهنئتك، لأنني عولت على القيام برحلة في جميع أداء المملكة مع جلالة الملكة في المستقبل القريب.

***

وكانت حفلة الزفاف بسيطة.. لم يحضرها إلا المقربون.وبعد أن فرغ الكاهن، قبل الملك العروس في جبينها، ثم قال:

– إذهبي إلى الملكة فهي تريد أن تقدم لك هدية العرس.

هرولت الفتاة إلى غرفة الملكة في خطى متثاقلة وقلب حزين.وكانت ماري أنطوانيت جالسة في أحد المقاعد، والأعياء باد عليها.وأحاطت الملكة أندريه بذراعيها، وقبلتها في جبينها، ثم أشارت إلى المنضدة وقالت: هذه هديتي.

ومدت أندريه يدها وأخذت المظروف. وفضته ثم قرأت:

«أندريه.. لقد أنقذتني، فأنا مدينة لك بشرفي وحياتي..

«وإن قلبك النبيل لابد أن يصفح عن تضحيتي إياك في سبيل هناء المملكة».

«ماري أنطوانيت دي لورين ديتريش»

ورفعت الفتاة رأسها ونظرت إلى الملكة فرأت دمعتين تنحدران على وجنتيها.

أما العقد فقد اختفى إلى الأبد. وإضطرت الملكة إلى دفع ثمنه رحمة بالجوهريين.

الفهرس